مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب:فضول/ رواية
الكاتب: محمود محمد محمود
رقم الإيداع: 17774/ 2018
ISBN: 978-977-6471-84-9
تصميم الغلاف:محمد عبد القوي مصيلحي
تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com
دار ليان للنشر والتوزيع
مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056
Email: layanpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

محمود محمد محمود

فضول

رواية

للنشر والتوزيع

إهداءٌ أول

إلى أسرتي..

آسفٌ أن خيبتُ ظنكُم بي يومًا..

إهداءٌ ثانٍ

إلى الصديق العزيز.. أحمد حمدي غازي

كلماتُكَ، وإن كانت غيرُ مقصودة، أعادتني للحياة

أنقلُ كلِماتُكَ حرفيًا دون تدقيق إملائي لعلها تنفعُني مُجددًا أو تنفع غيري:

"أكتر حاجة بتزعلني، اللي ربنا إداله موهبة أو هواية أو حتى ميول لشيء وبيضيعها ومابيهتمش بيها وبيضيع وقته في حاجات تانية مش هتفيده ومش مدرك إن الحاجات اللي بيضيعها دي هي الهَويّة الحقيقية لشخصيته وقيمته الحقيقية"

إهداءٌ ثالث

شكرٌ خاص لمن ساعدوني سواء

بالنصيحة.. أو بالتقريع.. أو بالسخرية

تنويهٌ هام جدًا..

الأحداثُ والشخصيات هي محض خيال أدبي بحت.
وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل المصادفة.. ليس إلا.

هُنَاكَ غُرْفَةٌ مُظْلِمَةٌ تَمَامًا بِدَاخِلِكَ

لَا يَمْلِكُ مِفْتَاحَ إِضَاءَتِهَا سِوَاكَ

فَلَا تَتْرُكَ المِفْتَاحَ بِيَدِ غَيْرِكَ

فَلَرُبَّمَا يُؤْذِيهُ الضَّوءُ أَوْ يُؤْذِيكَ

دَعْ الحَيَاةَ تَسِيرُ بِلَا تَطْفُّلٍ مِنْكَ

فَدْعَ النَّاسَ وَشَأْنَهُمْ وَابْقَ أَنْتَ فِي شَأْنِكَ

(1)

بالقرب من مدخل طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، يقود حامد سيارته الضخمة بسرعة وكفاءة تعكس قدرته الكبيرة على القيادة، متجاوزًا السيارات المجاورة والتي بدت كسلحفاء تُسابق فهدًا، استمرَّ في إطلاق نفير سيارته ليُفسح طريقًا لمروره هربًا من زحام المدينة وصخبها، وما إن عبر بوابات محطة تحصيل الرسوم، حتى هدَّأ من سرعته والتزم بتعليمات الطريق من حيث السرعة والتركيز في القيادة فقط، دون أن ينشغل بغير الطريق، لكن الصرخة القادمة من الجالس بجواره بعدما انسكب كوب القهوة الساخنة على ملابسه بسبب المناورة المُفاجئة التي قام بها حامد ليتفادى إحدى السيارات التي توقفت أمامه فجأة، أطلق حامد ضحكة ساخرة بسبب صراخ الجالس بجواره وقال:

- مالك يا عصام، إنت اتسلقت ولَّا إيه؟!

صرخ عصام من الألم وردَّ سخريةَ صديقه بسخريةٍ مماثلةٍ وهو يرفع قبعته عن رأسه بغضبٍ:

- عقبالك لما يتسلقوا زيي.

قهقه حامد وقال:

- ماتبقاش فرفور أوي كده، هي أول مرة حاجة سخنة تقع عليك.

ردَّ عصام مُتألمًا:

- أنا عاوز أشوف منظرك لما تقع عليك قهوة مغلية أو مَيَّه مغلية، هتقعد ساكت ولا هتتنطط زي القرد.

هدَّأ حامد من سرعته ثم توقف على جانب الطريق وهبط من السيارة، وفتح الحقيبة الخلفية، وأخرج زجاجة مياه، وأشار لعصام ليهبط من السيارة.

هبط عصام وقد تحول البنطال الأبيض الذي يرتديه إلى مزيجٍ من الأبيض والبني والأسود، وكذلك حذاؤه الأبيض كان ضحية للقهوة المسكوبة. نظر حامد لملابس صديقه وقال ساخرًا:

- إنت لازم تغيَّر ماينفعش حاجة غير كده، خُش العربية غير واغسل جسمك بشوية مَيَّه، عشان تبرَّد المسائل شوية.

- أبرَّد المسائل.. المسائل ولعت خلاص.

قالها عصام لاعنًا حظه العاثر، وهو يجذب زجاجة المياه من يد حامد الذي لم يتمالك نفسه من الضحك وانفجر ضاحكًا ساخرًا من بِنية صديقه الضعيفة التي ظهرت عندما بدأ في تغيير ملابسه واستبدالها بأخرى نظيفة من إحدى الحقائب التي فتحها، فقال مازحًا:

- ولا يا عصام، إنت ماكانوش بيرضعوك وانت صغير، إيه يا ابني ده.. ده لبشة القصب أتخن منك.

هزَّ عصام رأسه مُحبطًا من جسده الهزيل، الذي طالما وضعَه في موضع سخرية دائمة، فقال بغرور:

- بس النسوان بتحب الجسم الرفيع، وأهو جايب نتيجة زي ما انت عارف.

ارتسمت على وجه حامد ابتسامة باهتة وهو يقول مؤكِّدًا:

- ما أنا عارف! إنت هتقولي! ما أنا عارفك طول عمري.. نسوانجي قدّ الدنيا، بس لو هتتكلم على الجسم بُص عليَّا أنا، رياضي طول عمري.

دار حامد على عقبيه عدة مرات، ظهر خلال الدوران جسده الممشوق، وأضافت له ملابسه الأنيقة مظهرًا رياضيًا جذابًا، ثم التفت نحو عصام الذي انتهى من تبديل ملابسه، مُغلقًا باب السيارة الجانبي الخلفي، وركب السيارة قائلاً:

- يلا يا عم انت، خلينا نوصل، عاوز استحمى، شُغل أزايز المياه مش نافع.

لفت انتباه عصام عصا بيسبول خشبية ملونة، فقال متسائلًا:

- إيه عصاية الغلية اللي أنت جايبها دي؟

- عصاية البيسبول بقت عصاية غلية.. جاهل

دار حامد حول السيارة، ثم استقلها وأدار مُحركها، وانطلق ينهب الطريق نهبًا كأنما يطارده شيء ما، اختلس نظرة لعصام ليجده قد مال بجسده للخلف ليُحضر عبوتي مياه غازية، ثم يعود لجلسته الطبيعية مُمسكًا بعبوة مياه غازية يُقدمها لحامد الذي رفضها، أعاد عصام عبوة للخلف وفتح العبوة التي في يده وارتشف منها القليل ثم قال:

- مش كنا شقطنا حاجة أو جبت الصاروخ معايا بدل ما هي ناشفة زي المستشفى كده.

ضحك حامد وهو يقول:

- اطمن، في هناك كتير أوي.

هز عصام رأسه عدة مرات ثم قال:

- عندك حق في هناك بالزوفة، سلام.

قالها عصام ساخرًا بعدما أزاح ما تبقى من عبوة المياه الغازية دُفعة واحدة، ثم أرجع كرسيه للخلف ووضع قبعته على عينيه وأسلم جسده وعقله للنوم، تاركًا

حامد مشغولاً بالقيادة، وحامد ينقل بصره بين الطريق الممتد والشمس الحارقة وبين عصام الذي دخل في سبات عميق وارتفع صوت تنفسه وهو نائم، يرمقه حامد بنظرات غاضبة حارقة، جعلته يضغط على المقود وبدال الوقود أكثر.. ليصل وجهته المنشودة في أسرع وقت.

ومع غروب الشمس وصل الاثنان إلى وجهتهما، فغر عصام فاه من فخامة المكان، الحديقة الغنَّاء الواسعة، وحمام السباحة الكبير، والقصر المصمم على طراز قديم جذاب. دلفا للداخل حاملين أمتعتهما ليستريحا قليلاً من عناء الرحلة ليبدآ السهرة.. سهرة أول أيام الإجازة التي سال لها لعاب عصام عندما عرفَ بها، متمنيًا لنفسه وواعدًا إياها بالاسترخاء وعودة الأيام الخوالي مع صديق عمره، حيث النساء واللهو وكل ما يجعل الإجازة رائعة.. وممتعة.

ليلًا، جلس الصديقان يتناولان طعام العشاء الذي أعدَّه حامد بنفسه، ثم نهض حامد لإعداد القهوة؛ المشروب المُفضَّل لكليهما، بينما انهمك عصام في تجهيز سجائر الحشيش، يراقبه حامد في صمتٍ فوجده منهمكًا، ثم أخرج من جيبه قنينة بلاستيكية صغيرة، كسر عنقها، وأفرغ محتوياتها في أحد الأقداح، ثم عاد حاملاً قدحي القهوة ليجلس بجوار عصام موجهًا القدح المفخَّخ ناحية صديقه الذي لا زال منهمكًا في لف سجائر الحشيش.

يتحدثان ويضحكان ويمزحان بما توجد به ذاكرتهما من عبق الماضي المشترَك بينهما، وأثناء مزاحهما يقع فنجان حامد وتتناثر القهوة على الأرض، غضب حامد من تحطُّم القدح ثم قام بغضبٍ مُصطنَعٍ وتوجَّه ناحية المطبخ ليصنع قدحاً آخر، لكنه توقف بغتة عندما وجد عصام يسعل بشدة وبدت عليه علامات الاختناق، احتقن وجهه وأمسك بصدره وزاغت عيناه، وبدأ يفقد القدرة على التنفس تدريجيًا، ذلك وفي ظِل علامات الوجوم والغضب التي تُسيطر على وجه حامد.

قام عصام كالمجنون بعينين زائغتين وجسدٍ هزيلٍ، اشتعلت غريزة البقاء ووصلت إلى ذروتها وهو يحاول التشبث بالحياة، اتجه نـحو صديقِ عمره ممسكًا بتلابيبه، لكِنَّ حامد دفعهُ بعصبية ليسقُطَ أرضًا بوهنٍ، وصوت أنفاس عصام المتحشرجة يُحطم أذني حامد الذي اشتعل غضبه أكثر وأكثر ليهوي بعصا البيسبول المجاورة لكرسيه على رأس عصام عدة مرات بكل ما أوتي من قوة ليقسمها نصفين.

ألقى حامد بجسده المرتجف على الأريكة، الارتباك والغضب سَيِّدا الموقف، يتنفس بصعوبة ويكسوه التوتر، وجثة صديقه تحت قدميه تسيل منها الدماء، نظر للجسد الميت وبصق عليه، والتقط قدح القهوة الموجود أمامه على المنضدة واحتساه دفعة واحدة، ثم أرجع رأسه للخلف وأغمض عينيه وتنفس ببطء وهدوء وهو يتذوق مرارة طعم القهوة بتلذذ.

انتفض حامد فجأة مصعوقًا من هول المفاجأة التي أصابته .. لقد شرب من القدح الذي أراد لصديقه أن يشربه.

ضرب حامد رأسه بيديه بسخرية وانتابتهُ نوبة ضحك هيستيرية قام من مكانه بسرعة وتوجه للمرآةِ الكبيرة المجاورة لباب القصر الكبير، واستمر في الضحك بجنونية وهو ينظر لنفسه، ثم ركض مسرعًا ليدخل غرفة المكتب، ويُعَدْلَ من وضعية كاميرا الفيديو الموجهة ناحية المقاعد الكبيرة المُتراصة أمام المكتب لتصبح مواجه لكرسي المكتب الضخم، ثم يتأكد من كون إعدادات تشغيلها تم ضبطها على أفضل ما يكون، ثم جلس على الكرسي الضخم مبتسمًا في سخرية وأغمض عينيه لثوانٍ وفتحهما ونظر لعدسة الكاميرا ثم ضغط زرًا صغيرًا في جهاز التحكم الخاص بها، وبدأ في الحديث والتسجيل .. تسجيل كل ما حدثَ.

❊ ❊ ❊

(2)

الصدفة والفضول هما السببان الرئيسيان لكل ما حدث.. تعجبتُ كثيراً عندما رأيته وسمعت اسمه لأول مرة بعد أن قادتني الصدفة على أحد المقاهي لأراه متكومًا في أحد الأركان يدخن ويأكل.. ولا يفعل شيئًا غير ذلك، يومها كان اليوم شاقًا؛ خلافات في العمل مع أبي، وتقلبات أُسرية مع زوجتي، وعراك تافه مع صديق عمري، يوم تقليدي روتيني ممل، تركت يومها سيارتي في جراج التحرير وسرت باتجاه كوبري قصر النيل راغبًا في الحصول على بعض الهواء المنعش والهدوء، تحقَّق هدفي الأول ولم يتحقق الثاني بسبب الإزعاج القادم من المراكب والصخب القادم من مجموعات من الشباب الواقفين على الكوبري يرقصون على موسيقى المهرجانات المزعجة ويطلقون الشتائم القبيحة والنكات والإفيهات التي تحمل معاني مختلفة، تركت كل هذا ومضيتُ في طريقي حتى وصلت إلى دار الأوبرا، توقفت قليلاً هناك ثم تابعت السير حتى وصلت لكوبري الجلاء حيث الصخب أقل والهواء مُنعش، صائدو الأسماك واقفون وجالسون يتسامرون ويضحكون في انتظار ما يجود به النيل عليهم من خيره، تابعت سيري بغير اتجاه محدد حتى قادتني قدماي إلى أحد المقاهي جلست في الخارج في الهواء الطلق، طلبت من عامل المقهى قهوتي المفضلة بدون سكر، وجلست أُمارس أحد هوايتي المُفضلة

بإمعان النظر في الناس، في رواد المقهى والمارة، فجذب نظري ذلك الشخص البدين الجالس في أحد أركان المقهى وقد انهمك تمامًا في التهام ما أمامه من طعامٍ بنهَمٍ وشراهة لم أرَ مثلها من قبلُ، يأكل وكأنه لم يأكل من قبل ولن يأكل بعد ذلك، فرغ من طعامه وأمسك بالشيشة، التقط المبسم بلهفةٍ في فمه كما يلتقط طفل رضيع جائع ثدي أمه، تابعته بنظري ويبدو أنه انتبه لذلك فأشار بيده متسائلاً ماذا تريد؟، حييته بإشارة من يدي أي لا شيء، ينظر إليَّ شزرًا ويحرك شفتيه، أظنها سُبة أو شتيمة، استدعيت عامل المقهى مرة أخرى طلبت منه قدحًا آخر من القهوة وسألته عن ذلك الرجل البدين الجالس في الركن، ودون أن أشير أو أساله سؤالاً آخر، ردَّ عليَّ قائلاً:

- آه، ده فريد شوقي.

كررتُ الاسم مُتعجبًا:

- فريد شوقي!

أجاب عامل المقهى بضحكة قصيرة:

- أيوه يا باشا اسمه فريد شوقي، بس حالته صعبة شوية بعيد عنك وعن السامعين يا باشا.

- صعبة ازاي يعني.. فلوس ولَّا مرض ولَّا إيه حكايته؟!

- صعبة في كله يا باشا، أنا من ساعة ما اشتغلت في القهوة دي من تلات سنين وانا بشوفه قاعد على طول كده، ياكل يشيش أو يشرب سجاير لحد ما سألت صاحب القهوة عنه وقال لي حاجات كتير عنه، فسألته بفضول:

- قالك إيه؟

- المعلم قال لي إن العجل ده كان...

لم يكمل كلامه بسبب صراخ صاحب المقهى فيه:

- خليك في شغلك يا زفت.

استأذن عامل المقهى بعدما سَبَّ ربَّ عملِه، وظللت ممعنًا النظر في اتجاه فريد شوقي هذا، البدين غريب الأطوار الذي وجدته هذه المرة ممسكًا بطبق حلوى كبير يأكل منه بشراهة، دفعني فضولي للقيام من مكاني والذهاب إليه ووقفت أمامه:

- ممكن أقعد جنبك شوية؟

ردَّ بفمٍ مليءٍ بالحلوى وبصوتٍ منخفضٍ:

- ما تقعد يا اخويا هو حد حيشك.

جلست وأنا أضحك من طريقته في الرد فقلت مازحًا:

- شكرًا، إنت بتتفرج على أفلام قديمة.

- مالَكش دعوة

ضحكتُ قائلًا:

- أنا آسف بس كنت عاوز أتكلم معاك شوية.

- وانت تعرفني أصلاً عشان تتكلم معايا.

- لا، بس أحب أتعرف.

- ليه، إنت بسلامتك داخل تُشقط واحدة..

قهقهت لأسلوبه الساخر في الحديث والرد، غضبَ بسبب ضحكي فقال:

- إنت تعرفني عشان تضحك وتتمسخر عليَّا.

- فريد شوقي!

ردَّ ضاحكا بطفولية:

- ده أنا بقيت مشهور بقى.

حاولت كتم ضحكتي لكنه منعني من ذلك عندما هبَّ واقفًا وبدأ في وصلة رقص في منتصف المقهى وينحني لرواد المقهى كما ينحني الممثلون على المسرح للجمهور، وحاول الاستمرار في الرقص لكنَّ ثِقل وزنه حالَ بينَهُ وبين رغبته باستمراره في الرقص، فجلس على كرسيه مجددًا يتنفس بصعوبة ويسعل بصوتٍ عالٍ، ربتُّ على كتفيه لكنه أزاح يدي بحركة عصبية قائلًا:

- هاطلي شيشة!

ضحكت لغرابة الطلب وطريقة نطقه للكلام، فقلت:

- إهدا شوية عشان صدرك، إنت مش شايف نفسك بتنهج ازاي.

ردَّ بعصبية وهو يشيح بيديه في الهواء ثم يضرب بها رأسه ووجهه:

- مالَكش دعوة بأمي سِبني في حالي.

أشرت لعامل المقهى بأن يأتي بالشيشة بسرعة، أتى بها سريعًا ووضعها أمامه والتقطها بسرعة وسحب منها عدة أنفاس متتابعة ازداد معها احمرار وجهه، وبدأ في السعال بصورة مخيفة، ثم وقف من مكانه وذهب لمنتصف المقهى وباعد بين ذراعيه ورفعهما في الهواء وبدأ يدور حول نفسه كلاعب تنورة ويهز وسطه حتى سقط مغشيًا عليه.

انتفضت مع رواد المقهى وهرولنا لإنقاذه لكنه هبَّ واقفًا ويفاجئنا جميعًا بقوله:

- أنا عندي شعرة ساعة تروح وساعة تيجي، أنا عندي شعرة ساعة تروح وساعة تيجي. كرَّرَها باستمرار وهو يرقص مغمض العينين، وفي غمرة استمتاعه بالرقص اصطدم رأسه بأحد الأعمدة وسقط مغشيًا عليه إثر الاصطدام، اقتربت منه وبمساعدة من رواد المقهى حملناه ووضعناه في سيارة أجرة وانطلقت معه إلى المستشفى.

❊ ❊ ❊

(3)

وصلنا إلى المستشفى متأخرين ومنهكين بسبب الزحام، أدخلته من باب الطوارئ بمساعدة السائق، أتعبنا ثقل وزنه حتى أدخلناه إلى غرفة في قسم الطوارئ ووضعناه في السرير، دفعتُ للسائق بسخاء، شكرني وسألني إن كنت أريد أيَّة مساعدة فشكرته ثم انصرف.

لحق بنا أحد الأطباء داخل الغرفة وبدأ في فحصه وهو يسألني:

- إيه اللي حصل؟

- كنا قاعدين على القهوة وقام يدخل الحمَّام داخ ووقع ودماغه اتخبطت في ترابيزة حديد.

- وبعدين؟

- مفيش بعدين، ده كل اللي حصل.

- إنت تعرفه كويس؟

- لسه من شويه.

- بُص الراجل ده تعبان جدًّا هيقعد شوية في المستشفى بس طبعًا الموضوع هيكلف شوية لأن حالته صعبة جدًّا، والمستشفى هنا غالية شوية.

- مفيش مشكلة خالص، اللي انت شايفه صح اعمله.

أمسك الطبيب بالهاتف وطلب رقمًا قصيرًا، وطلب سريرًا شاغرًا في غرفة الرعاية المركزة، أغلق الخط وبدأ يكتب في أوراقٍ معه بسرعة، ناولها للممرض الذي جاء لاصطحاب الحالة، ودَّعتهما بعيني حتى غابا بين ممرات المستشفى، ثم خرجت لمكتب الاستقبال سجلت بياناتي وبيانات الرجل البدين التي عرفتها من حافظة نقوده التي كانت معه وملابسه التي أخذتها، ولحُسن الحظ توجد ماكينات صرَّاف آلي داخل المستشفى، استخدمت أغلب البطاقات التي معي لتجميع مبلغٍ جيدٍ مؤقتٍ حتى الغد، دفعت المبلغ وعُدت لغرف الطوارئ وقابلتُ الطبيب وطلبت منه رؤيته فوجَّهَني لغرفة الرعاية المركزة ذهبت إليها ووصلت لها وسألت عنه فأدخلوني لغرفة بها شاشات تعرض المرضى الموجودين بالغرفة ووجدته ملقىً على السرير ويقومون بتوصيله على الأجهزة الطبية، خرجت من غرف الرعاية إلى مكتب الاستقبال مُجدَّدًا لمراجعة الموقف مرة أخرى.

وفي طريقي لخارج المستشفى، انتبهت لصوت رنين هاتفي فكانت زوجتي هي المتصلة:

- أيوه يا رحمة!

- إيه يا حامد بحاول اتصل بيك من بدري مابتردش، كنت فين؟

- كنت مع واحد صاحبي في المستشفى.

- صاحبك مين، عصام؟

- لا مش عصام واحد تاني.

- معلش يا حبيبي، أنا كنت عاوزة أفكَّرك إن خطوبة ريهام بكرة.

- أوف، كنت هنسى، جهزيلي بدلة على ذوقك أنا هتأخر شوية في المستشفى.

- ربنا معاك يا حبيبي.

- شكرًا يا رحمة.. مع السلامة!

أنهيت المكالمة سريعًا، ثم كتبت رسالة لعصام صديقي أن يذهب غدًا للمستشفى التي يرقد بها فريد لسداد مبلغ يكفي للعلاج لفترة؛ لأنه من الممكن أن أنشغل عنه لفترة فلا أتركه هكذا دون سندٍ.

خرجت من المستشفى، أوقفت سيارة أجرة لأعود لأخذ سيارتي من حيث تركتها، وأثناء العودة يشغل تفكيري ما الذي دفعني للاهتمام بفريد شوقي هذا، حقيقة لا أعرف! قررت مبيت الليلة في أحد الفنادق لمزيد من الراحة، وفي الصباح سأذهب للبيت حيث ستصبح ريهام شقيقتي عروسًا في هذا اليوم.

❊ ❊ ❊

(4)

تزيَّنَ القصر الواقع بإحدى أرقى التجمعات السكنية بالقاهرة الجديدة، لذلك الحفل الكبير الذي سيشهد حفل خِطبة سيبدو أُسطوريًّا أو خياليًا من فرط التجهيزات والدقة البادية في المكان.

أشرفت ريهام بنفسها على كافة التفاصيل الخاصة بالحفل، التفاصيل الكبيرة والصغيرة على حدٍّ سواء بالنسبة لها، بداية من اختيارها لباقات الورود التي ستوضع على الطاولات وحتى قائمة الموسيقى التي ستُعزَف أنغامها، لم تترك للصدفة بابًا للدخول منه ليكون هناك شيء ينقص من حفل خطبتها وتجعله يظهر بصورة ملكية، ولمَ لا، فهي ابنة رجل أعمال ذائع الصيت، ولم يبخل بأي شيءٍ عليها.

تقف ريهام في الشرفة المطلة على الحديقة التي ستشهد الحفل، تتابع بدقة التجهيزات التي تتم بسرعة وحرفية، انتابها القلق وهي تحاول الاتصال بوالدي للمرة العاشرة على التوالي خلال دقائق، باءت كل محاولاتها بالفشل فهاتف والدي مغلق منذ الأمس، حاولَتْ مرارًا لكن دون فائدة، تشعر بأنه لن يحضر حفل خِطبتها لانشغاله الدائم والمستمر بالعمل.

التفَّت ريهام نحو مدخل الحديقة عندما رأتني أدخل بالسيارة نحو الداخل مطلِقًا النفير المميَّز لصوت الزفة، ابتسمت ولوَّحت بيديها فرحًا بقدومي، فأنا أخوها الأكبر.

أوقفت السيارة وهبطت منها مذهولاً من التجهيزات، كنت غائبًا عنهم لفترة مفضِّلًا الإقامة في الفنادق أو في شقتي التي اشتريتها سرًا على نيل الزمالك.

وبمجرد نزولي من السيارة، انطلق نحوي ابني الأصغر ياسر مُطلِقًا صيحاته الفرحة، احتضنته ثم قذفته في الهواء ثم التقطته وهو يضحك، أغرقته بالقبلات، وقعنا سويًا على الأرض نلعب، فيما جاءت منار ابنتي الكبرى تركض هي الأخرى نحونا، يتطاير شعرها خلفها والفرح والسعادة يطلان من عينيها، وشاركتنا المرح والضحك بمجرد وصولها إلينا.

بينما نلعب نحن الثلاثة بطفولية، وقفت زوجتي رحمة في مدخل الفيلا وبجوارها أمي وريهام اللواتي جئن على عجل، ينظرن نحونا مبتسمات من الموقف الذي يشاهدنّه، رأيت أمي تنظر إلى رحمة نظرة ذات معنى وضربت كتفها وتقول مازحة بصوت عالٍ:

- روحي يا أختي العبي معاهم.

ضحكت رحمة لدعابة أمي، وحماتها تنظر لها من تحت عويناتها وهي تضرب كفًا بكف وتقول:

- يا بت ماتتكسفيش روحي العبي مع جوزك وعيالك.

دفعتها أمي دفعًا، وكأن رحمة كانت تنتظر إشارة للانطلاق، انطلقت نحونا باسمة سعيدة، لكن خجلها منعها من مشاركتنا اللعب، فاكتفت بسحب أطفالنا من فوقي، قمت مُتعبًا بعض الشيء، ثم احتضنت رحمة وقبَّلت رأسها هامسًا:

- وحشتيني.

ردَّت رحمة بصوت لائم هامس:

- وانت كمان، كده الشغل ياخدك مني.

قالتها بلهجة معاتبة ممزوجة بدلالٍ أنثوي ونظرة حانية في عينيها، فنظرت لها بعين معتذرة وقلت:

- خلاص بقى يا رحمة، بقولك وحشتيني.

أمسكت بيديها وقبلتهما، ثم أمسكت بيدها وسرنا نحو الفيلا يسبقنا منار وياسر، وعندما وصلنا إلى حيث تقف أمي، قبَّلت يديها ورأسها:

- وحشتيني يا ماما.

- وانت كمان يا حبيبي، إيه الغيبة الطويلة دي، أنا خُفت ماتحضرش خطوبة ريهام، عشان أبوك مسافر ومش هيقدر يحضر.

هززت رأسي في أسفٍ مؤكِّدا كلام والدتي، التفتُّ لريهام الواقفة بجوارنا وطبعت قُبلةً على جبهتها:

- بقيتي عروسة يا مفعوصة.

بكت ريهام وألقت بنفسها في صدري، ربتُّ على رأس ريهام، وسألت أمي:

- هو بابا مسافر من قدّ إيه؟

- يجي من إسبوع؟

- هو قالك إنه مش هيحضر الخطوبة؟

- هو قال هيحاول يحضر، جرَّب تتصل بيه وتشوفه فين.

- حاضر.

أحطتُ وجه ريهام بكفَّيَّ وقلت:

- خلاص يا حبيبتي، أنا موجود أهو.

- ربنا مايحرمنيش منك يا مادا.

قبَّلتُ جبينها مرة أخرى، ثم صعدتُ للطابق العلوي حيث غرفتي، بدَّلت ملابسي وأخذت حمامًا دافئًا ساعدني على النوم بعمقٍ، انتبهت منه عندما انتفضت فزعًا بعدما قامت رحمة بإيقاظي، اعتدلت في السرير بصعوبة، وبوجه منتفخ من أثر النوم، فقلت بصوت مملوء بالنعاس:

- اعمليلي برميل قهوة عشان أفوق.

أومأت رحمة برأسها إيجابًا، وقالت:

- طب خُش خد دش كده وصحصح.

قمت من السرير بمساعدة رحمة، ثم دخلت الحمَّام، وضعت نفسي أسفل تيار الماء البارد راجيًا الاستفاقة، خرجت من الحمَّام واحتسيت القهوة وبدأت أرتدي ملابسي، بدأ مفعول القهوة في العمل، استفقت مع انتهائي من ارتداء ملابسي، بدلة سوداء، وقميصًا أبيض، وزينت عنقي برباطِ عُنقٍ أسود متدرِّج السواد، ثم وضعت عطري المفضل والملائم للمناسبات الليلة، ثم خرجت من الغرفة هابطًا الدَّرَج ومنه إلى البهو ومنه إلى الحديقة الواسعة حيث الحفل على وشْكِ أن يبدأ.

دخلت سيارة بيضاء مكشوفة مكسوة بالزهور والأشرطة الملونة، تجلس فيها ريهام بجوار خطيبها زياد الذي قاد السيارة إلى منتصف الحديقة وأوقفها وحيَّيا المدعوين الذين استقبلوهما بالتصفيق واستقبلتهما أنغام موسيقية حالمة وأطلقت الألعاب النارية وأطلقت أمي وفتاة لا أعرفها تقف بجوارها العنانَ لزغاريدهما مُرحبتين ومهللتين.

وصلتُ للسيارة، وفتحت الباب لريهام وأمسكت يدها واحتضنها وقبَّلتها وداعبتها قائلًا:

- خلاص كبرتي وبقيتي عروسة.

ضحكت ريهام للدعابة، وقبَّلت رأسي وقالت بصوت مملوء بالسعادة وبعين لامعة من الفرحة:

- ربنا يخليك ليا يا مادا، ومايحرمنيش منك أبدًا.

قبَّلتها مرة ثانية، وأمسكت بيدها مُتجهًا نحو الكوشة المُزدانة بعناية، بينما وقف زياد مذهولًا يقول مازحًا:

- يا عم دي عروستي أنا!

لم التفت إليه وأشحت بيدي دون اكتراث، فقلت مازحًا:

- لا دي بتاعتي أنا، امشي ياض من هنا.

ضحك زياد للدعابة وجرى نحو عروسه وأمسك يدها، أوقفتُه وأمسكت بتلابيبه فاعتلت وجهي تعبيرات جادة وقلت بجِدَّة:

- خَلي بالك منها بدل ما أنفخك.

فتح زياد عينيه عن آخرهما مُتعجبًا من تعبيرات وجهي الجادة، فضحكت من رد فعل زياد وقلت:

- ياض بهزر، بس تخلي بالك منها فعلاً لأحسن أنفخك بجد، مبروك يا زيزو.

سلمت ريهام إلى خطيبها، سار الاثنان تزفهما الموسيقى والألعاب النارية والزغاريد، ووقفت أمي في انتظارهما أمام الكوشة تكسوها الفرحة والدموع، ذهبت لريهام واحتضنتها وبدأت كلاهما في تقبيل الأخرى والبكاء حتى بدا أن مساحيق التجميل التي تضعها ريهام بدأت في الفساد.

جلس العروسان في الكوشة البيضاء المصممة على شكل قلب ضخم وتكسوها الورود وصورة كرتونية للعروسين تتوسطهما من الخلف باقة من الورود البديعة.

انتبهت إلى أن القلب المصمم على شكله الكوشة يبدو كبيراً جدًّا عن المعتاد، ورأيت كتلة داكنة تتحرك داخل القلب، توترت خوفًا من أن يكون هناك من يرغب في إفساد الحفل.

انفتح باب يتوسط القلب ليخرج رجل يرتدي الأبيض من رأسه حتى قدمه وقد غطى وجهه أيضًا بقناع أبيض وخرج بخطوات هادئة ليُفزع العروسين اللذين ظهرَ عليهما التوتر كذلك.

خلع الرجل قناعه بسرعة لتصرخ العروس من المفاجأة:

- بابا!!!

فتح أبي ذراعيه عن آخرهما وابتسم وهو يقول:

- ما أقدرش أفوِّت فرحك يا جميل.

قام العروسان واحتضناه، زياد وحماه يضحكان وبدأت ريهام في البكاء، فيما وقفت أنا وأمي ننظر ناحيته في ذهولٍ.

❊ ❊ ❊

(5)

مساء اليوم السابق للحفل..

خرج من مطار القاهرة الدولي رجلٌ أشيب الشعر قصيره، طويل القامة أخفت النظارة السوداء عينيه، يرتدي بنطالاً أزرق من الجينز وقميصًا أزرق وحذاءً بنيًّا من النوع المخصص للأعمال الشاقة، ويحمل حقيبة سوداء متوسطة الحجم، أنهى إجراءات الوصول والتفتيش وخرج من المطار قاصدًا ساحة الانتظار الملحقة بالمطار، اقترب من سيارة يقف بجوارها شاب وجهُهُ طفوليٌّ على الرغم من اقترابه من الخامسة والثلاثين، ابتسم فور رؤية الرجل الكبير يقترب منه، تحرك نحوه في حماسٍ مصافحًا، استقبله الرجل الكبير بالترحاب، ركبا السيارة وأغلق الشاب ذو الوجه الطفولي زجاج السيارة، وقال بمرح:

- حمد الله ع السلامة يا آدم باشا.

أجاب آدم بوقار وبلهجة قوية:

- الله يسلمك يا عصام، عملت إيه في اللي كلمتك فيه من يومين؟

- تمام يا كبير، اتفقت مع الناس بتوع التنظيم على اللي حضرتك فكرت فيه.

ربت آدم على كتف عصام ثم قال:

- إوعى يكون حامد عِرِف حاجة.

هز عصام رأسه نافيًا، ثم قال:

- أبدًا، يا عمي أنا خليتها مفاجأة زي ما طلبت، ده حتى أنا هحضر الحفلة من الأول عشان ما يبانش إني متفق معاك.

ضحك آدم قائلًا:

- طبعًا.. لازم تحضر ده فرح أختك برضو، ولا ريهام مش زي أختك.

- طبعًا زي أختي وحضرتك زي والدي والعيلة كلها عيلتي.

ربَّت آدم مجددًا على كتف عصام وقال:

- وانت معزتك من معزة حامد وريهام.

ردَّ عصام بأدبٍ:

- طبعًا يا عمي، نتحرك على الفيلا ولا على فين؟

- على الفيلا طبعًا.

قاد عصام السيارة من المطار إلى القاهرة الجديدة، المسافة قصيرة نسبيًا لكن الزحام جعلها طويلة، وصلا الفيلا، وتسلل آدم في خفة واختفى في حجرة مكتبه، ثم تسلل في هدوءٍ بمساعدة عصام داخل الكوشة وبمساعدة منظمي الحفل وحقق مفاجأته التي تمناها.

عندما ذُهِلَ الجميع من تلك المفاجأة، كان الوحيد الذي ظلَّ يضحك لفترة طويلة هو عصام الذي رضخ لأوامر أبي بضرورة حضوره، لفت عصام الانتباه نحوه بضحكه المستمر، حتى اقتربتُ منه وعلى وجهه علامات غضب مُصطنع، وأمسكت بعصام الذي ما زال يضحك من تلابيبه وأقول:

- يعنى انت كنت عارف الحركة دي؟

أجاب عصام وهو يغالب ضحكه:

- أنا اللي مرتب كل حاجة أنا وعمي آدم.

انفجرت ضاحكًا وانفجر الجميع ضحكًا وعادت الموسيقى لتصدح مجددًا مُعلنة استكمال الحفل.

❊ ❊ ❊

(6)

بعد حفل الخطوبة بأيام..

كنت على وشك حضور اجتماع هام في المجموعة التي أديرها مع والدي، جلست أمامي لميس سكرتيرتنا الحسناء المجتهدة على مكتبها الكبير الأنيق تُراجع بعض الأوراق أمامها وتعد ملفات جلدية فاخرة وتوزع الأوراق بداخلها، ولما انتهت منها دخلت لغرفة الاجتماعات الرئيسية الفخمة الملحقة بمكتب والدي رئيس المجموعة، ووضعت على كل لافتة اسم المسئول الذي سيحضر هذا الاجتماع ووضعت كلَّ ملفٍّ في مكانه وذهبت للمكتب الصغير الموجود بـجوار طاولة الاجتماعات وأعدت شاشة العرض وأمسكت بسماعة الهاتف وطلبت رقمًا طالبت فيه الطرف الآخر بإعداد المشروبات والمأكولات الخفيفة لأن الاجتماع على وشك أن يبدأ خلال دقائق.

بدأ الحضور في التوافد قبل الموعد المحدد للاجتماع في الحادية عشرة صباحًا وجلس كُلٌّ منهم على المقعد المخصص له وتحدثوا في موضوعات جانبية حتى دخلنا عليهم أنا ووالدي رئيس مجلس الإدارة، قام الحضور واقفين في احترام كبير، ثم جلس كلانا مُرحِّبين بالحضور، ثم قامت لميس لتبدأ بعرض ملفٍّ تفاعليٍّ عن إنجازات المجموعة في الفترة السابقة وقامت بعرض ملفٍّ آخر يتحدث عن المشروعات والخطط المستقبلية المزمع البدء في تنفيذها، شاهد الحضور العرضين

في اهتمام بالغ وصفقوا بعد انتهاء العروض، ثم يفتح أبي الملف الفاخر الذي أمامه ويعدل من ربطة عنقه الأزرق، وبدأ يتحدث للحضور عن أهمية الدور الذي يقوم به كل العاملين في المجموعة من أصغر إلى أكبر فرد فيها، وتحدَّث كذلك عن ضرورة الإخلاص والتفاني في العمل للإبقاء على نجاح المجموعة، نظر الحضور إلى أبي آدم الشامي رئيس المجموعة بإعجاب شديد لأسلوبه الرصين والهادئ في الحديث، ورونق الكلمات التي يختارها بعناية، وأناقته والمحافظة على جسد رياضي على الرغم من سنوات عمره التي تجاوزت الستين وإصراره وتفانيه في العمل.

شكرت والدي باحترامٍ وإجلالٍ كبيرين، وشكرت كذلك باقي الحضور وأكدت على كل ما قاله أبي بضرورة الاهتمام بالعملية التسويقية لمنتجات المجموعة وطلب من لميس أن تجهِّز العروض في نسخةٍ مطبوعةٍ ونسخة إلكترونية وتوزيعها على الحضور وكذلك نشرها على الموقع الإلكتروني للمجموعة والبدء في حملة إعلانية جديدة لتسويق نجاحات ومنتجات المجموعة.

ذهبت لميس لتنفيذ الأوامر الصادرة لها بالتنسيق مع إدارات المجموعة المختلفة، فيما جلس الحاضرون يتحدثون عن العمل وأمور أخرى ويتناقشون ويضحكون، حتى ارتفع صوت رنين قصير جاء من هاتفي مُعلِنًا عن وصول رسالة فاستأذنت منهم ودلفت إلى غرفة جانبية وتصفحت الرسالة الواردة من عصام والتي يقول فيها:

- الجدع التخنان اللي قولتلي خلي بالك منه، رُحت المستشفى لقيتهم بيقولولي خرج امبارح، مش عارف أعمل إيه!!

غضبت جدًا لنسياني فريد، واتصلت بعصام الذي أجابني بهزله المعهود:

- برنس، فينك يا معلم مختفي بقالك شوية؟

لم أُمهله فرصة للهزل فقلت غاضبًا:

- خرج امتى؟

- إمبارح!

قالها عصام بتأفف، ثم أردف:

- لما سألت في المستشفى قالوا لي خرج لوحده.

- لوحده!!

- آه.. لوحده وفيها إيه، بس هو شكله عبيط ومسخرة والله.

- ليه؟

- في حد اسمه فريد شوقي.. قديم فشخ.

قالها عصام ساخرًا وانفجر بعدها ضاحكًا، بينما أنا حائر وثائر.

- بقولك إيه يا عصام؟

- قول يا معلم!

- انا مش قُلت لك تخلي بالك منه.. غور يا وش الفقر!

أنهيت المكالمة، ثم خرجت من المكان بأسره، واتجهت نحو السيارة وفتحت الحقيبة الخلفية وأخرجت حقيبة سوداء، ثم ركبت السيارة وأدرت مُحركها وقررت الذهاب إلى شقة الزمالك لعلي أهدأ قليلًا.

دلفتُ للشقة التي اشتريتها لسببين، أولهما البحث عن الهدوء، وثانيهما كمقر للنزوات العابرة، لا يعلم عن هذه الشقة أحدٌ غيري أنا، حتى عصام صديقي الحميم لا يعرف عنها شيئًا، أثثت الشقة على أحسن ما يكون التأثيث وفقًا لرغبتي ، فهي ملاذي الأول والأخير عند حدوث مشكلة.

ألقيت الحقيبة التي أحملها على الأريكة، ثم خلعت حذائي وملابسي وجلست القرفصاء وبدأت بإفراغ محتويات الحقيبة، هذه هي الملابس التي كان يرتديها،

رائحتها مزيج من العرق وعبق دخان، ألقيتها بجانبي على الأريكة لرائحتها الكريهة، ثم بدأت بإفراغ محتويات البنطلون، هذه حافظة نقوده، وبعض العملات الورقية والمعدنية القليلة، علبة مناديل ورقية استُعملَ نصفها تقريبًا، ورقة من الكرتون مرسوم عليها رموز غريبة لم أفهما، قلبتها على وجهها الآخر فكانت مقطوعة من علبة دخان معسل، وهذا شريط إيريك، ضحكت ساخرًا، ما هذا أيضاً؟، دواء للصداع وقد استُهلك نصفه، لبان ممضوغ وقشور لب.

- إيه القرف ده، باين عليه كان معفن.

شعرت بالاشمئزاز، وضعت محتويات بنطلونه على المنضدة التي أمامي، نظفتُ كفَّيَّ، ثم أمسكت بقميصه وشممته:

- هو بقاله قدّ إيه ما استحماش؟

لم أجد في جيب قميصه سوى دفتر من أوراق لف السجائر:

- ده صاحب مزاج بقى.

لم يتبق سوى الجاكيت، أحسسته ثقيلًا، وبدأت أفرز ما فيه، سلسلة مفاتيح ضخمة بها عدد كبير جدًا من المفاتيح لا أدري ماذا تفتح من أبواب معلَّق بها حرف (N) مصنوع من الخشب ومُلون بلون وردي، ودبلة فضية منقوش بداخلها اسم شيرين وبجوارها رسمٌ لقلب، نحيتُها جانبًا، ثم وجدتُ دفترًا صغيراً مكتوب فيه رموز غريبة كالتي رأيتها من قبل على ورقة المعسل، صفحات الدفتر مُرقمة، لكنها فارغة، وجدت أيضا هاتفًا محمولًا من طراز قديم كان مغلقًا ويبدو أن بطاريته قد نفدت تمامًا:

- أجيب منين شاحن للموديل ده بس!

دفتر آخر أكبر وجدته في الجيب الداخلي الثاني مُلصق عليه ورقة زرقاء مكتوب عليها بخط اليد "مذكراتي" فتحتها وكانت صدمتي من صفحاتها البيضاء المائلة

للاصفرار مكتوب فقط على غلافها من الداخل اسمان "فريد شوقي حسين" و "محمود المليجي حسين"، وبجوار اسم محمود المليجي هذا كلمة(SOB) تعجبت من هذه السبة التي نعت به أخاه على ما أظن، هذه الكلمة هي اختصار للسبة الشهيرة (SON OF BITCH).

- إيه اللي يخليه يشتم أخوه الشتيمة دي؟

تعجبت من ذلك، لكن أظن أن العلاقة بينهما سيئة جدًا.

قاطعني رنين هاتفي وكان عصام هو المتصل رفضت المكالمة ثم أغلقت الهاتف نهائيًا.

- إزاي أوصل له، يا إما أروح القهوة أو أروح المستشفى.

قمت من مكاني لإحضار بعض القهوة، سقط مني وأنا أنهض الهاتف المحمول ذو البطارية الميتة وحافظة نقوده التي لم أبحث فيها بعد.

جلست مرة أخرى وبدأت أفرغ محتويات الحافظة.

بدأت في إفراغ محتويات الحافظة المنتفخة، مليئة بأوراق صغيرة مكتوب فيها رموز غريبة شبيهة بالمتواجدة في الدفتر الأول، ثم وجدت بطاقة تعريف تحمل اسمه وشعار لشركة شهيرة، كان يعمل ضمن فريق (R&D)، وجدت رقم لهاتف محمول مكتوب بخط يدوي على ظهر البطاقة التعريفية، اتصلت بذلك الرقم فكان مغلقًا، أظن أن هذا الرقم هو رقم المحمول الذي أمسكُ به الآن، بطاقتا ائتمان انتهت صلاحياتهما منذ فترة طويلة، بطاقته الشخصية مكتوب فيها اسمه كاملًا " فريد شوقي حسين رياض السروجي"، يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، مطلَّقٌ، يقيم في الدقي:

- الدقي، يبقى أكيد البيت قُريِّب من القهوة.

لا شيء مفيد تقريبًا في حافظته، ألقيتها جانبًا ثم أمسكت بالهاتف المغلق فتحته، وأخرجت بطاريته والشريحة، قمت من مكاني نحو المكتب أخرجت هاتفًا وضعت به الشريحة فلم تعمل لأنها قديمة:

- أعمل إيه دلوقت، إيه النحس ده؟

عدت للجلوس على الأريكة مرة أخرى، ألقيت بجسدي كله عليها مادًّا قدميَّ، أقلق جلستي شيءٌ على الأريكة، أمسكته دون أن أقوم فكانت حافظة نقوده اللعينة، نظرت لها محبطًا وألقيتها على المنضدة المقابلة، سقطت مفتوحة وظهر لي أن بها جيوب داخلية لم أنتبه لها في أول الأمر، أمسكتُ بها مرة أخرى لأتأكد من ظني، وكان فعلاً بها جيبان، أفرغتهما بسرعة فوجدت ورقتين، فتحت الأولى ووجدت مكتوبًا في منتصفها ثلاثة أحرف بالإنجليزية (TST)، وأسفل الورقة توقيعه بالإنجليزية:

- يعني إيه TST؟

هززت رأسي متعجبًا وبدأ الملل يصبح صديقًا مُخلصًا في هذه اللحظات، فتحت الورقة الثانية فكانت مكتوبة على الوجهين، قلبتها على الوجهين للوصول إلى بدايتها وقد كان، الخط المكتوب مميزًا جدًّا ومنمقًا وواضحًا، وبدأت أقرأ ما هو مكتوب:

- "السادة المشاهدين الكرام، أهلًا وسهلًا بكم في الحلقة الأولى والأخيرة من البرنامج العلمي المبسط How to create your drug at home؟ أو بالعربية "كيف تصنع مخدراتك في المنزل؟"، إذا تساءلت لماذا هي الحلقة الأولى والأخيرة في نفس الوقت، سأقول لك، ما سأقوله الآن يُمكن تصنيفه تحت بند "خطير جدًّا"، ما فعلته هو تركيب عقار الحقيقة وبالإنجليزية يسمى "Truth Serum"، الموضوع من الممكن أن يكون محض خيال، ومن الممكن أن تظن أنه من وحي مشاهدة أفلام الحركة والإثارة، الأمر ليس محض خيال، لكني قمت ببعض البحث،

وتوصلت إلى أنه بدأ تطويره في ثلاثينيات القرن الماضي واسمه العلمي "So-dium thiopental" وبالتحديد عام 1936، ولنكون محددين أكثر تم ابتكاره في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت بداية تطويره على يد اثنين من الكيميائيين هما "إيرنست هـ. فولويلر" و"دونالي إل. تابيرن" كمسكِّن للآلام لكن أثناء التجارب اكتشفوا أنه لا يقتل الألم إلا بجرعات كبيرة كانت تقضي على المرضى، لكن عند تجربته بجرعات صغيرة يُساعد على الاسترخاء، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ استخدامه على الجنود المشاركين في الحرب بإضافة مادة أخرى هي "Sodium Amytal" لإجبارهم على التحدث.

الموضوع إذًا ليس محض خيال سينمائي بل هو حقيقي، حقيقي جدًا، فقمت بإعداده كمية مناسبة منه استكمالًا لعمل مُعلِّمي، تكفي لتجارب عديدة مُتشوق لبدء إحداها قريبًا.

هل علمتم إذًا لماذا هي الحلقة الأولى والأخيرة؟ لأنها ستقودني لطريق يعلم الله ما فيه من خبايا وأسرار."

توقفت عن القراءة مصدومًا وحدَّثت نفسي:

- إيه الكلام ده؟، العِجل ده يا إما ممكن يطلع عبقري أو يطلع مجنون وأهبل.

قمت من جلستي المُتعبة، أشعلت سيجارة وخرجت للشرفة بعد أن ارتديت جلبابًا، اتكأت على سور الشرفة أنظر للمكان من حولي وصفحة النيل الهادئة، لأجد حارس العقار يتحدث بلكنته الصعيدية ممسكًا بهاتفٍ شبيهٍ بهاتف فريد، صحت في الحارس:

- يا عواد.

ألتفت وقال:

- أؤمر يا بيه.

- معاك شاحن للتليفون اللي معاك؟

- أيوه يا بيه، أومال إيه..

- هاتوهولي بسرعة أنا دايخ عليه من بدري.

دخل عواد إلى داخل البناية وانتظرته في لهفة على باب الشقة، أعطاني الشاحن ودخلت بسرعة وأمسكت بالهاتف وأوصلته بالشاحن، وأسعدني جدًّا سماع الصوت المميَّز لتشغيل الهاتف.

*** * ***

(7)

استيقظ الهاتف من سباته العميق بعد أن تمَّ إحياء خلاياه بجرعة كهربائية أعادت له الحيوية والنشاط مُجدَّدًا، الصوت المميَّز لإعادة تشغيله، تلك الموسيقى القديمة أشعرتني بسعادة لأنني على وشك معرفة المزيد عن ذلك الرجل البدين الذي خرج من المستشفى ولا أعلم كيف أصل إليه حتى الآن.

تركت الهاتف يُكمل استيقاظه وخرجت إلى الشرفة طالبًا بعض الهواء النقي، الطقس بارد لكنه منعش، جعلني أتذكر أحداثًا قديمة كوقت شرائي لهذه الشقة، ابتعتها لغرضٍ تَرفيهيٍّ بحت وهو مقابلة العشيقات أو البحث عن الهدوء والراحة مبتعدًا أو هاربًا كلما سنحت لي الفرصة عن المشاكل سواء أسرية أو في الحياة العملية، كلفتني مبلغًا طائلًا لتأثيثها، لا أحد يعرف شيئًا عن هذه الشقة حتى عصام أقرب أصدقائي والذي أعتبره كاتم أسراري، فعلنا كل شيء يمكن تخليه سويًّا منذ أن تزاملنا في المدرسة.

خلافاتي المستمرة مع أبي يبدو أنها لن تنتهي يومًا ما، أمام الجميع نحن أصدقاء، والعلاقة المثالية بين الأب والابن تكون في أوج تألقها، ولكن عندما نكون بمفردنا تبدأ الخلافات، علاقتي بأمي وريهام نمطية كما يجب أن تكون علاقة الابن الأكبر بأمه وأخته الصغرى، أما رحمة التي تزوجتها نزولًا على رغبات أمي، والتي شاهدتها من قبل في إحدى حفلات زفاف أحد الأقرباء أو الأصدقاء لا أتذكر متى

رأتها، كان الهدف من الإصرار على إتمام زواجي هو رغبة أمي في انتشالي من الضياع والحياة المستهترة، لكن من قال إن الزواج سينهي حياة الضياع والاستهتار الذي كنت أعيشه؟، علاقتي بها أصبحت سطحية ومملة خصوصًا بعد إنجابنا لمنار وياسر، نادرًا ما نلتقي، وحتى عندما يحدث بيننا لقاء، يكون مملًا وأشعر بسخافة لا مثيل لها، ويبدو لي أن هذا هو السبب في عودتي لأسلوب حياتي السابقة قبل الزواج.. بعيدًا عن الأعين.

عُدت للداخل ثانية بعدما أصبح الطقس باردًا لا يُمكن تحمُّله، اقتربت من الهاتف الجائع للكهرباء فوجدته قد فرغ من طعامه وأصبح جاهزًا ليتجشأ ما به من معلوماتٍ وأخبار.

نزعته من الشاحن وجلست على الأريكة وبجواري حافظة نقوده التي أفرغت محتوياتها من قبل، بدأت بالأرقام المسجلة، الأرقام قليلة وأغلبها لمطاعم هذا كبابجي النصر، مطعم الإخلاص، شعراوي الكبابجي، جاد، رضوان، الجهاد، كشري المؤمن، حلواني الجهاد، القهوة المعفنة.

- إيه ده، الأرقام كلها محلات أكل، هو طفس للدرجة دي؟، وأرقام أخرى صاحبة الشقة، دكتور المجانين، وهناك اسم آخر يبدو غريبًا عن نمط الأرقام التي يحتفظُ بها، هو "السفير"؟

بدأ الإحباط يُصيبني، بحثتُ في المكالمات الصادرة والواردة وكان سجلها خاويًا، وكذلك كانت الرسائل!

تملَّك مني الإحباط بالفعل، ألقيتُ بالهاتف العقيم على الأريكة وقمت أقطع جنبات الغرفة ذهابًا وعودة بلا هدف، وأتجول ببصري بين الحافظة والهاتف، فتزداد حسرتي.

وقفت أمام النافذة سارحًا في لا شيء حتى شتَّت انتباهي صوت رنين الهاتف القديم وظهور اسم المتصل وكان "دكتور المجانين"، أجبت على الفور:

- إزيك يا فريد عامل إيه دلوقت؟

- تمام؟ بس أنا مش فريد!

أتاني الصوت مُرحبًا:

- يبقى انت السفير، حمد الله على السلامة، رجعت إمتى؟

أجبت بهدوءٍ:

- حضرتك، أنا مش فريد ولا السفير، فريد تعبان شوية ودخل المستشفى وخرج لوحده، أنا اللي وديته المستشفى وبحاول أوصله ومش عارف.

- مستشفى!، مش انت أخوه السفير؟

- لو حضرتك تقدر تديني معلومات أوصله بيها أكون شاكر.

- طبعًا، لو تقدر تشرَّفني في العيادة.

- لو سمحت الاسم والعنوان.

- دكتور شادي حسَّان العيادة في برج الأطباء مدينة نصر.

- متشكر جدًّا يا دكتور، أقابل حضرتك الساعة كام؟

- أنا موجود دلوقت لو تحب؟

- مسافة السكة.

- في انتظارك، مع السلامة.

- مع السلامة يا دكتور، متشكر جدًا.

ارتديت ملابسي على عجل، جمعت أغراضه في الحقيبة وخرجتُ من العقار، قابلت حارس العقار، منقذي صاحب الشاحن، شكرته وركبت السيارة متجهًا لعيادة

ذلك الطبيب الذي تذكرت كلماته وخصوصًا عندما تحدث عن أخيه السفير، ألهذا البدين أخ يعمل سفيرًا؟

لحسن الحظ الطريق كان شبه خاوٍ، وصلت لمكان العيادة ووجدت اسم الطبيب على اللافتة الرئيسية للمبنى، كان الدكتور شادي حسان طبيب نفسي، هكذا أعلنت اللافتة عن اسمه وطبيعة عمله، ضحكت عندما تذكرتُ أن فريد أسماه دكتور المجانين على هاتفه، دلفت المبني وركبت المصعد وفي رأسي آلاف الأسئلة تتعارك فيما بينها أيهما يُسأَل أولًا.

العيادة كانت خالية من المرضى، باستثناء تلك الفتاة الجميلة التي تجلس إلى مكتب الاستقبال المواجه للباب الرئيسي للعيادة، اقتربت منها وسألت على الطبيب وأكدتُ لها أن لدي موعدًا معه، نظرت في أوراق أمامها فلم تجد اسمي.

استأذنت بأدب ثم دخلت في إحدى الغرف، غابت لثوانٍ ثم عادت مبتسمة:

- اتفضل حضرتك، الدكتور في انتظارك.

دخلت غرفة الطبيب، شاب أظنه في العقد الثالث من العمر، وسيم، أنيق الملبس، يرتدي نظارة طبية خفيفة، لحيته خفيفة بها بعض شعيرات بيضاء تناقض سنه الصغير وتعطيه وقارًا وهيبةً يليقان بطبيبٍ، هيئته تماثل الصورة النمطية للطبيب النفسي كما أشاهدها في الأفلام وأتخيلها دومًا.

قام واستقبلني ورحَّب بي وعرَّفَني بنفسه:

- دكتور شادي حسان، طبيب نفسي.

- حامد الشامي، رجل أعمال.

- الاسم مش غريب!، المجموعة الاقتصادية.. صح؟

- ده صحيح.

جلست أمامه ثم طلب من فتاة الاستقبال قهوةً وطلب لي واحدة، ثم توجَّه بنظره إليَّ وقال:

- تحب تعرف إيه؟

- أنا هحكي لحضرتك اللي حصل وشوف إنت ممكن تساعدني إزاي، بس الأول ينفع أدخن؟

- براحتك.

أشعلت سيجارتي وناولته واحدة:

- إحنا كنا قاعدين على القهوة، كنت لسه ما أعرفهوش وقتها، لفت نظري طبعًا الحالة اللي هو فيها، قاعد لوحده، ومابيعملش غير حاجتين أكل وسجاير، سألت عنه القهوجي بس مايعرفش حاجة عنه غير اسمه، وزي ما قُلت لفت نظري، روحتله وقعدت أتكلم معاه شوية حسيت إنه مش مظبوط، طريقة الكلام ونظرة عينيه غريبة جدًّا، المهم، أغمى عليه وخدته وديته المستشفى وقعد فترة بس أنا انشغلت فترة بس كنت متابعه عن طريق صديق ليَّا وعرفت إنه خرج من المستشفى لوحده وماعرفتش أوصل لحاجة من بطاقته ولا تليفونه وورقه اللي معايا، لحد لما حضرتك اتصلت.

بدا الاهتمام واضحًا على وجه الطبيب أثناء حديثي، أشعل سيجارته وسحب نفسًا عميقًا منها، ثم قال:

- ملاحظتك لفريد إنه مش مظبوط وطريقة كلامه وعينيه دقيقة فعلًا، فريد المريض بتاعي من زمان، بقاله فترة كبيرة حالته النفسية سيئة جدًا، اتعرَّض لصدمات متتالية كانت ممكن تقضي عليه بس ربنا ستر.

رددت بتعجب:

- صدمات!

- أيوه، صدمات كتير!

- صدمات كتير!! قلت، وقد زاد تعجبي.

- مستغرب ليه، أنا ماشفتش سوء توفيق بالشكل ده.

- ممكن حضرتك تحكيلي؟

- أنا آسف يا حامد بيه، دي أسرار مرضى.

- أنا عارف، بس مفيش أي معلومة أوصله بيها؟

حك الطبيب ذقنه، ثم قال:

- إنت مش معاك الورق بتاعه، ماتدوَّر فيه؟

- بصراحة أنا كنت هدور عليه بكرة، بس تليفون حضرتك غيَّر طريقي.

- بص أنا هديك رقم تليفون ممكن يدلك..

أمسك بهاتفه، وظل يعبث فيه، ثم كتب رقمًا على ورقة وأعطاها لي، نظرت فيها مُتسائلًا:

- وده رقم مين؟

- طليقته.

- نعم!!!

- أيوه طليقته، هي هتدلك على كل حاجة، أنا آسف مرة ثانية إنت عارف أن دي أسرار.

قالها وقام ناهيًا المقابلة، قمت وصافحته شاكرًا، وفي رأسي سؤال مُلح "هعمل إيه بطليقته؟"

خرجت من الغرفة فوجدت الفتاة تحمل القهوة شكرتها وشربت فنجاني دفعة واحدة لعلي أستفيق.

التفتُّ له وسألته:

- اسمها إيه؟

- شيرين عماد الدين.

شكرته مرةً ثانية، وخرجت من المبنى وركبت سيارتي، وأمسكت بالورقة المدوَّن فيها رقم حرم فريد شوقي سابقًا، وطلبته على الرغم من الوقت المُتأخر نسبيًا، انتظرت قليلًا ثم جاءني صوت أنثوي رقيق:

- ألو، مين معايا.

- أنا آسف لو بتكلم في وقت مش مناسب.. مدام شيرين معايا.

أجابتني بصوت ظاهره أنها لا تمانع في الحديث في مثل هذا الوقت، وباطنه مَن هذا الغبي الذي يتصل في مثل هذه الساعة المُتأخرة:

- اتفضل، بس انت مين الأول؟!

- أنا اسمي حامد الشامي صديق لجوزك فريد شوقي.

كنت أتمنى أن أرى وجهها عندما سمعت اسمه، الغضب واضح جدًا وانتقل لصوتها سريعًا:

- هو اللي إدَّاك رقمي؟ هو عايز مني إيه الحيوان ده؟

يبدو أن العلاقة بينهما سيئة للغاية لتصفه بالحيوان:

- لا، أنا دكتور شادي حسَّان هو اللي اداني الرقم في الحقيقة.

- دكتور شادي!، وإيه اللي فكَّره بيَّ بعد المدة دي كلها؟

- هو فريد تعب شوية ودخل المستشفى وخرج منها لوحده من غير ما أعرف هو راح فين، وبحاول أوصله ومش عارف، الدكتور شادي اتصل صدفة على تليفونه وقابلته ومارضيش يديني تفاصيل بحجة أسرار مرضى وكده، وقالّي لو عاوز توصل لفريد يبقى أكلم حضرتك.

زفرت بقوة ثم قالت:

- دكتور شادي ده راجل زبالة أساسًا، هو عارف إن علاقتي بالزفت ده انتهت من بدري ومصمم يفكرني بيه، بص أنا عاوزة أوضحلك حاجة، أنا طليقته مش مراته، وعلاقتي اتقطعت بيه من ساعة ما اتطلقنا من سنين و...

قاطعتها:

- أنا كل اللي أنا عايزه أعرف مكانه، وكل اللي طالبه مساعدة حضرتك.

ازدادت غضبًا وملًا وهي تُجيب:

- عاوز إيه من الآخر؟

- لو ممكن أقابلك نتكلم شوية أكون مُتشكر جدًا.

زفرت بقوة قبل أن تقول بحدة:

- أوك، بكرة في كافيه كوستا اللي في عباس العقاد الساعة تمانية بالليل.

- متشكر جدًّا، طب هعرفك إزاي؟

- كلمني أول ما توصل، مش ناقصة غباء هي، مع السلامة.

أنهت المكالمة قبل أن تسمع حرفًا إضافيًا مني، ألقيت الهاتف بجواري وأشعلت سيجارتي وأرجعت رأسي للخلف استدراجًا للاسترخاء، لكن هاتفي اللعين أصدر رنينًا قصيرًا، وكانت رسالة من رحمة مكوَّنة من كلمة واحدة:

- وحشتني!

ألقيت الهاتف دون اكتراثٍ على المقعد المجاور، وسرتُ في طريق عودتي لصومعتي المُطِلّة على النيل، والهاتف يُواصل الرنين، ورحمة تواصل اتصالاتها بي، وأنا لا أجيب أيًا منها، عشر محاولات للتواصل معي، لكن دون جدوى، لقد مللت من رحمة.

❊ ❊ ❊

(8)

في يوم لقائي بشيرين، وصلت مبكرًا قبل الموعد كعادتي عندما يُكون لدي موعد هام، وقفت خارج المكان حتى أراها عندما تأتي، قضيت الوقت أُمعن النظر فيما حولي الناس وزحام السيارات وأضواء المحال وضوضاء الشارع في هذا الوقت، رنين هاتفي أعادني للواقع، وكانت مدام فريد هي المتصلة أخبرتها أني منتظر بالخارج، فأجابت بأنها ستقوم بعبور الطريق، نظرت للجانب الآخر من الطريق فوجدت سيدة تتحدث في الهاتف، وبدأت في عبور الطريق، انتظرتُ في مكاني حتى تتأكد رؤيتي لها، وكانت هي عندما اقتربت منِّي وقالت:

- مساء الخير، أنا شيرين.

تجاهلت يدي الممدودة لمصافحتها، ابتلعتُ الإهانة راضيًا:

- أنا حامد اللي كلمتك في التليفون بخصوص...

قاطعتني:

- أيوه، لو سمحت ندخل نتكلم عشان أنا مش فاضية.

تعجبتُ من أسلوبها الفظ، لكن ما باليد حيلة فالفضول يقتلني.

- اتفضلي، وأوعدك مش هنتأخر.

دلفت داخل المكان وهي خلفي، التفت خلفي لأسالها أين تريد أن تجلس، وجدتها تطلب من النادل الجلوس في منطقة التدخين، هذا رائع.

جلسنا، طلبت قهوة أمريكية فطلبتُ مثلها، في الحقيقة أنا منجذبٌ لأسلوبها الفظ في التعامل، جلسنا صامتين لفترة حتى جاءت القهوة، أخرجَتْ من حقيبتها علبة سجائر ذهبية أنيقة، أشعلت واحدة ونظرت لي وهي تريح ظهرها إلى الكرسي ثم قالت بتوتر:

- الزفت هو اللي باعتك!

زاد انجذابي لها، ولأسلوبها، ثم كيف لهذا الغبي أن يترك امرأة مثل تلك الجالسة أمامي، تبدو لي صاحبة شخصية قوية وعنيدة، طلتها رائعة، عيناها تطل منهما قوة وإصرار قلما تتوافر في الرجال والنساء، وملابسها لائقة تمامًا، وتلك النظارة الطبية أضافت لها رونقًا خاصًا.

نظرت نحوها متوقعًا هجومًا كاسحًا منها لعدم إجابتي على سؤالها، همت بأن تتحدث لكنني أوقفتها عندما قلت:

- اطمني، مش هو اللي باعتني زي ما قولتلك في التليفون.

- أومال طلبت تقابلني ليه؟

سألتني بملل، حاولت كسر أسلوبها القوي مُتصنعًا الابتسامة، لكنها قابلت ابتسامتي بوجه مصمت خالٍ من أية تعبيرات، نظراتها تكفي لبث الرعب والخوف بداخلي.

- أنا هحكي الموضوع بس يا ريت تبقي صبورة شوية.

أشارت بيديها إليَّ أن أتحدث، قررت أن يكون كلامي مُختصَرًا، أشعلتُ سيجارة ثم ارتشفت بعضًا من قهوتي، وبدأت أتحدث، حكيت لها كيف قابلته،

والذي حدث بعدها في المستشفى ومقابلتي لطبيبه النفسي الذي أعطاني رقم هاتفها إذا كنت أريد المزيد من التفاصيل، وعن تعجبي من كون مطلقته ستتحدث عنه بعد ما حدث بينهما.

استمعت في اهتمام واضح بعكس الانطباع الذي شعرتُ به عندما تحدثتُ معها عبر الهاتف وأول مرة رأيتها، تنحنحت ومالت بجسدها للأمام قليلًا ودققت النظر في وجهي:

- إنت متوقع إني هتكلم!

- أيوه!

يبدو لي أنها فوجئت بإجابتي هذه، ابتسمت، أعادت ظهرها للخلف وبدأت تضحك وترجع رأسها للخلف، ضحكتُ لضحكها، وبدأ رواد المكان في النظر نحونا باستغراب، لم تشعر هي بأي حرج ولا أنا.

اعتدلت في جلستها وبدا عليها الاهتمام والجدية وعلى وجهها وصوتها شبح ابتسامة وسخرية:

- بص، أنا هتكلم، بس أرجوك ماتقاطعنيش وماتطلبش تفاصيل زيادة عن اللي هقوله، أوك.

لمحت شبح الابتسامة يزداد على وجهها.

- أوك، اتفضلي.

أشعلت سيجارة من علبتي، وبدأت تتحدث:

- فريد كان زميلي في الشغل، هو كان كيميائي وانا كنت سكرتيرة في القسم اللي كان شغال فيه، اللي هو R&D، بدأت علاقتنا زي أي اتنين زملاء، نظرات وبعدين اهتمام وبعدين كلام عادي وبعدين كلام خاص عن حياة كل واحد فينا وبعدين

كلمة بحِبك وبعديها بحبَّك، خطوبة أربعة شهور، وبعد كده جواز وبعدها طلاق بعد خمس سنين جواز.

واحنا مخطوبين حكالي وبكل صراحة عن حبه الأول اللي كانت زميلته في الكلية اسمها نورا لو حابب تعرف، اتكلم معايا باستفاضة، الحقيقة كل اللي حكاه محزن جدًا، وخصوصًا لما عرفت إنها ماتت، قال لي إن تعِب بعديها ووصلت إنه راح لطبيب نفسي، اللي هو شادي اللي انت قابلته وإداك رقمي عشان لو سرحت مني، وعلى الرغم من كل المشاكل اللي هو كان فيها أنا قبِلت ارتبط بيه لأنه طيب وحنين جدًا، وصعِب عليَّا بصراحة، بعد سنتين جواز ربنا رزقنا بنورا، ده حتى أنا اللي صممت على الاسم ده، بعديها بفترة بدأ يتغير؛ بقى يهمل الشغل ونفسيته اتغيرت وشكله كمان اتغير بدأ يبقى عصبي ومزاجي، في الحقيقة أنا خفت على نفسي وعلى البنت، طلبت منه ننفصل ساعتها ضربني وضرب البنت هربت منه ورُحت عند أهلي، حاول يرجَّعني مرة بهدوء وكذا مرة بعصبية وبلطجة وقلة أدب، طبعًا ما كانش في حل غير المحكمة عشان تطلقني منه، كلمني بعديها بفترة وهو بيعيط ومنهار وكلام بتاع سامحيني أنا آسف يا حبيبتي، بس أنا كنت رافضة عشان هو اتحول تمامًا لمسخ، وبالرغم من إنه صعبان عليَّا مارضتش أقوله أنه بنته ماتت عشان مايحصلوش حاجة بعد كل اللي حصلّه، يعني أبوه يموت وأمه تموت بعديها بكام شهر وبعدين ننفصل وبنته تموت بعد كده، أظن كفاية عليه المصايب دي كلها.

توقفَتْ عن الحديث وعيناها تدمعان، أظنه بسبب تذكرها لابنتها، الأمر مُحزنٌ جدًا ومرير جدًا جدًا.

- لو مش قادرة تكملي ماتكمليش.

أشاحت بوجهها لتخفي ما به من دموع، استأذنت وقامت، غابت قليلاً ثم عادت وقد تحسنت حالتها بعض الشيء، جلست وطلبت كوبًا آخر من القهوة.

آثار الدموع لا زالت موجودة، سيظن الناس من حولنا أنني أجرح قلب هذه الفتاة، لكن لو يعلمون الحقيقة...

- أنا عاوز أسألك عن أخو فريد؟

- ماله!

- كان الدكتور شادي قال لي إن له أخ بيشتغل سفير!

- أيوه أخوه، محمود المليجي.

ضحكت بصوت عالٍ لما سمعت الاسم، وضحكت هي كذلك.

- مستغرب ليه؟! حكالي عن أخوه اللي بيشتغل في السلك الدبلوماسي وسفرياته كتيرة، بس عمري ما قابلته.

سألتها ولا زلت أضحك:

- محمود المليجي!

فيروس الضحك معدي جدًّا، وأثره واضح عليها جدًّا.

- باباه ومامته كان بيحبوا السيما جدًّا وده السبب اللي خلى فريد شوقي ومحمود المليجي إخوات بعد ما كانوا أعداء.

- تقدري تساعديني أوصلُّه!

- ليه!

- عشان نفس السبب اللي انتي وافقتي ترتبطي بيه، عشان طيب وغلبان وتعبان جدًّا.

- مش فاهمة!

- عشان السبب اللي قولتهولك!

- وتفتكر أنا ممكن أساعدك إزاي!

- أي عنوان أو رقم تليفون أو أي حاجة أقدر أوصله بيها.

تنهدت في عمق، وعادت للحالة الجادة التي كانت عليها من قبل، أخرجت من حقيبتها قلمًا، وأخرجت دفترًا قطعت منه ورقة كتبت فيها أرقام لهواتف نقلتها من هاتفها ويبدو أنها تكتب عنوانًا، ناولتني الورقة مطوية فوضعتها في جيبي.

- لو حبيت أقابلك تاني، تسمحيلي!

قالت مجاملة:

- طبعًا، في أي وقت!

تركتني وانصرفت بعد أن صافحتني، فقالت مازحة وهي راحلة:

- اعزمني المرة دي، والمرة الجاية أنا عازماك!

ضحكت لمُزحتها، جلست ثانية، فتحت الورقة ونظرت فيها وحدَّثت نفسي:

- ياريت بفايدة المرة دي!

سرحت قليلًا، ورفعت رأسي لأجد آخر شخص من الممكن أن أراه في مكانٍ كهذا؛ لأن حياته منحصرة بين العمل والمنزل، قمت من مكاني مبتسمًا:

- صدفة!!

قال بهدوءٍ:

- أكيد طبعًا.

ضحكت من المفاجأة وقلت:

- استريّح يا بابا!

❊ ❊ ❊

(9)

كانت مفاجأة كبيرة لي عندما وجدت أبي واقفًا أمامي، لم نلتقِ منذ فترة سواء في العمل أو في المنزل؛ لذلك كنت متفاجئًا عندما وجدته هنا، لا أتذكر أننا جلسنا في لقاءاتنا القليلة في مكانٍ غير المنزل أو العمل.

جلس صامتًا طلب كوبًا كبيرًا من القهوة وأنا كذلك، كسرت جدار الصمت لتلطيف الأجواء التي قد تنذر بمشكلات:

- بس حلوة الصدفة دي!

ابتسم وقال:

- لا أبدًا، أنا كنت معدِّي وزهقان من السواقة قلت أريَّح شوية وأشرب شوية قهوة وبعدين أكمل.

- كنت رايح فين يا بابا؟

- اجتماع.

- بيزنس جديد!

- أيوه، مع إني تعبت من الشغل وانت مش واخد بالك.

ابتسمت بسبب الإحراج الذي سبَّبَه لي، بالفعل أنا بعيد لفترة كبيرة عن العمل منذ أن قابلت فريد هذا:

- أنا آسف يا بابا، اعذرني، كنت مشغول شوية.

لوَّح بيديه:

- المهم مايكونش فيها ستات!!

قالها وانفجر ضاحكًا وانفجرت أنا كذلك وقلت:

- إطمن، مافيهاش لا ستات ولا رجالة.

أجابني وهو لا يزال يضحك:

- طمنتني، المهم أنا كنت عاوزك تركز الفترة الجاية معايا، عشان أنا قررت أعتزل الشغل وأرتاح وكفاية السنين اللي فاتت كلها!

- بابا، إنت تعبان!

- أنا صحتي أحسن منك، بس فعلاً الضغوط بقت كتير.

استوقفني كلامه لبرهة، لماذا يريد ترك العمل وهو الذي لا يتحمل الجلوس في المنزل حتى أيام الإجازات والعطلات؟! دومًا في لهفة للعمل والترحال، ما الذي دفعه لاتخاذ قرارٍ كهذا، أعلم أن المسئولية كبيرة عليه وعليَّ بالتبعية، فأمي وأختي لا تفقهان شيئًا في العمل؛ فمِن الطبيعي إذًا أن يُلقَى على عاتقي بكامل المسئولية، أنا لا أريد الهرب منها، لكنها مسئولية كبيرة.

أعادني مرة أخرى للواقع عندما لكزني في ذراعي:

- سرحت في إيه!

- في كلامك طبعًا.

- إنت خايف؟

- لا يا بابا، أنا شغال معاك بقالي كتير.

صمت لفترة ثم شرب ما تبقى من قهوته وقال:

- خلَّص اللي انت مشغول فيه وافضى لي عشان أوريك الدنيا ماشية إزاي.

- حاضر يا بابا.

قام يستعد للانصراف، وابتسم قائلاً:

- إبقى حاسب على القهوة، أنا عازمك على حسابك!

ضحكت لدعابته، ثم قال:

- إنت هتفوق إمتى من اللي شاغلك؟

- قريب جدًّا!

- يا رب، سلام.

قالها وخرج من المكان، عدت وجلست مرة ثانية، والأسئلة تغلي في رأسي، هل حقًّا جاء هنا صدفة أم إنه يراقبني؟، ولماذا يريد التقاعد بعد كل هذه المدة، حتى ظننت أنه سيموت وهو يعمل؟، لقد تركني في حيرة بالإضافة إلى ما أنا فيه من حيرة بسبب فريد شوقي هذا، أسأل نفسي باستمرارٍ ما الذي يدفعني للبحث عنه، وتكون الإجابة مكرَّرةً، لا أعرف.

تذكرت الورقة التي أعطتها لي شيرين، أخرجتها من جيبي، ونظرت فيما هو مكتوب فيها، سعدية مختار، الدقي مرة ثانية، وأرقام هاتف، نظرت في ساعتي وكانت تقترب من منتصف الليل، إذًا الوقت تأخر لإجراء المكالمة، فلا داعي لمكالمة تليفونية، تُهدَر فيها كرامتي، سأذهب إليها غدًا.

❊ ❊ ❊

(10)

اتصلتُ كثيرًا بالأرقام التي أعطتها لي شيرين، جميع المحاولات بلا إجابة، الأرقامُ جميعها مغلقةٌ، وكأن صاحبة الأرقام تتهرَّب من أن تجيب اتصالات أي شخص، وصلت للعنوان الموجود معي بسهولة، بناية من سبعة أدوار قديمة نسبيًا، يجلس أمام مدخلها شاب يرتدي ملابس عادية، عرفت أنه من الصعيد بسبب لهجته عندما بدأت أتحدث معه.

- صباح الفل.

- صباح الخير، يا أستاذ، أؤمر.

- كنت عاوز أقابل الحاجَّة سعدية.

- يااااه، ربنا يديك طولة العمر يا أستاذ، دي ماتت يجي من سنتين، الله يرحمها كانت ست طيبة.

- ماتت من سنتين؟!

أصِبتُ بالإحباط وأحسست بإحساس إسماعيل ياسين عندما ظل يبحث عن جثة يوسف فخر الدين داخل الدواليب دون جدوى، انتشلني البواب من شرودي بقوله:

- أيوه يا بيه، أؤمرني بأي خدمة.

- لا إله إلا الله، طب بقولك تعرف حد ساكن هنا اسمه فريد شوقي؟

- أيوه، يا بيه، في الدور الخامس.

شكرته واتجهت داخل البناية، فأوقفني قائلاً:

- إنت عاوز حاجة معينة يا أستاذ.

- عاوز أقابله عشان معايا أوراق شخصية ليه كانت ضايعة منه، تسمح!

- اعذرني يا أستاذ.

اعتذر بهدوء فقبلت اعتذاره، ثم سألته:

- شقة كام في الدور الخامس؟

- الدور شقة واحدة.

شكرته واتجهت للداخل، لا يوجد مصعد، بدأت في صعود السلم، لكن البواب صاح قائلاً:

- يا أستاذ.. يا أستاذ، الدكتور فريد جاي هناك أهوه.

التفت للبواب وعدت لمدخل البناية فاصطدمت بفريد الذي ابتسم وقال ساخرًا:

- إنت مصمم تُشقطني مش عارف ليه!

ضحكت لقوله وتصافحنا وتعانقنا بحرارة، ثم قال مازحًا:

- بقولك إيه، تعالى نطلع نفطر مع بعض ونشرب شوية شاي حلوين كده.

أشرت للحقيبة التي تحوي أغراضه، وقلت:

- دي حاجتك اللي أنا أخدتها لما دخلت المستشفى!

جذبني فريد من يدي وهو يبتسم بغموض وصعدنا، فريد يصعد بعض الدرجات ويتوقف ليلتقط أنفاسه، فقال مُتهكمًا:

- أنا لازم أخس شوية، مش كده؟ بعيد عنك إن ركبي بسمع صوتها وهي بتزيق زي ما بسمع صوت فرامل المترو.

بالفعل الطابق عبارة عن شقة واحدة، ويبدو أن مساحتها واسعة فعلًا. وصلنا للطابق الخامس؛ باب كبير عليه لافتة مكتوب عليها "حسين رياض السروجي" وتحت الاسم مكتوب "وكيل وزارة سابقًا".

حملت عن فريد حقائبه المليئة بالطعام حتى يُمكنه فتح الباب الثقيل، فتح الباب ودخلنا وأغلقت الباب خلفي، وضعت الحقائب، الإضاءة داخل الشقة خافتة بعض الشيء، فالتفتَ إليَّ وقال مُتسائلًا:

- إنت سامع صوت حد بيتكلم؟

هززتُ رأسي بالنفي، فقال:

- ركِّز شوية؟

أنصتُّ قليلاً.. فخُيِّل لي أن هناك من يتحدث.

تحرك فريد ببطءٍ واختفى قليلاً، ثم عاد حاملاً سكينًا كبيرًا وساطورًا صدئًا، ناولني الساطور ثم قال هامسًا في تحفُّزٍ:

- فيه حرامي في البيت، عاوزين نمسكه ونروِّقه، ولو حاول يخلع نلبّه بالحاجة اللي معانا.

تحركنا ببطءٍ وخِفَّةٍ نحو باب إحدى الغرف وكان الباب مواربًا، تنصتنا وجلس فريد على ركبتيه وأنا من خلفه نختلس نظرات لمن يجلس في الغرفة أمام جهاز كمبيوتر في اهتمامٍ، وينزع وحدة تخزين من الجهاز ويضعها في جيبه، ثم رأيناه يقوم ويلتقط أوراقًا مبعثرة على الأرض ثم يضعها على المكتب ويصوِّرها بهاتفه، عاد اللص للجلوس مرةً أخرى، فرأيناه يبحث مجددًا في أدراج المكتب، ثم أخرج

دفترًا صغيرًا قلَّبَ صفحاته ثم بدأ في تصويرها، وعاد مرة أخرى للبحث في جهاز الكمبيوتر.

دقائق.. قام اللص بعدها واختفى عن ناظرنا، نظر فريد نحوي وقال هامسًا:

- ندخل دلوقت!

أشرتُ بيدي نافيًا، وطلبت منه أن يصبر قليلًا، رأينا اللص يعود لمجال رؤيتنا من جديد ولا يحمل معه أيَّ شيءٍ، جلس على مقعد المكتب مرة أخرى يُتمتم بكلمات لم نتبين ماهيتها، رأيت فريد يقوم من مكانه متألمًا من أثر بقائه هكذا لفترة ثم أشار إليَّ بأننا سندخل الآن، ثم رأينا اللص يقوم ويتجه نحونا، فتح اللص البابَ ليجد فريد واقفًا أمامه والشرر يتطاير من عينيه.

ظل الاثنان يرمق بعضهما البعض لفترة، وقفت بينهما حائرًا، أليس من المفترض أن نقوم أنا وفريد بتلقين هذا اللص درسًا قاسيًا، فما الذي حدث لفريد جعله صامتًا جامدًا أمامه كتمثال فرعوني..

أفقت من شرودي على ركلة قوية من فريد في بطن اللص أتبعها بلكمة قوية أسقطا اللص أرضًا ليرتطم رأس اللص بالسرير، هجم فريد عليه بشراسة تتناسب مع جسده الضخم وكأنه حيوان مفترس في غابة وجد فريسة تعيسة الحظ تعبث في عرينه، أكمل فريد انقضاضه على اللص بركلتين قويتين في بطن ووجه اللص تعيس الحظ، سقط بعدها فريد على المقعد المجاور للسرير، يتنفس بصوت مرتفع وصدره يعلو ويهبط كأنما سافر إلى أسوان ركضًا، ثم خلع حذاءه، وقام من كرسيه بصعوبة تاركًا الغرفة ومعي اللص وهو ينزف.. ثوان وعاد فريد وهو يحمل حقيبة إسعافات أولية، وجلس بجوار اللص يضمد جراحه!!

ما هذا الذي يحدث؟! منذ قليل كاد فريد أن يقتل ذلك اللص، والآن يُسعفه ويُضمد جراحه؟ أي شخص هذا الذي يفعل ذلك؟

- إنت بتعمل إيه يا فريد؟ بدل ما ترنه علقه ولا تسلمه للبوليس.

أجاب فريد دون أن يلتفت نحوي:

- مايهونش عليَّا برضو.

اعترضتُ بشدة وقلت:

- مايهونش.. إنت غريب أوي.. بتعمل كده مع واحد حرامي كان بيسرقك.

- ده مش حرامي...

قالها فريد وهو ينظر للص مبتسمًا، وأردف:

- ده أخويا.. محمود المليجي.

صُدمت لما قاله، أنظر لهما غير مُصدِّقٍ لما سمعته، لكن صدمتي زالت قليلًا عندما وجدت فريد يصفع أخاه اللص على وجهه وهو يقول:

- حمد الله على السلامة، فينك من زمان!

❊ ❊ ❊

(11)

أمسك محمود المليجي بذراع فريد السمين الذي مده ليساعده على النهوض من أرضية الغرفة التي شهدت استقباله الرائع لعودة شقيقه، ولا زالت تعلو وجه فريد تلك النظرة الطيبة، نهض بصعوبة ثم ساعد أخاه حتى وصلًا للحمَّام الذي دفعه فريد نحو بابه قائلًا:

- خُد دش لحد ما أعمل شاي، إنت لسه بتشرب الشاي تقيل سكر زيادة!

أومأ المليجي برأسه الثقيل إيجابًا ثم ناوله فريد من الدولاب المجاور للحمَّام منشفة وملابس منزلية.

- خلَّص وحضَّلني على البلكونة.

قالها فريد بلهجة آمرة كمن يُعاقِب طفلًا صعب المراس، ثم دفعه مجددًا داخل الحمَّام وأغلق الباب.

خرجت للشرفة في انتظارهما مُتعجبًا مما رأيته منذ دقائق، لو كان اللص شخصًا آخر غير أخيه لافترسه فريد على الفور.

رأيت وأنا أقف على مدخل الشرفة نحو الصالة الواسعة، تفاصيل الشقة بعد أن أُنيرت الأضواء، الشقة تفتقد اللمسة الأنثوية، من حيث النظافة والاهتمام، العشوائية مُسيطرة على المكان، هذا إذًا هو مسكن الأسرة، ثم رأيت المليجي يخرج

من الحمَّام خلف فريد قادمين نحوي ومتجهين للشرفة؛ فريد يحمل صينية عليها أكواب الشاي ويقول للمليجي:

- خلَّصت بالسرعة دي!

- أيوه، إنت ماعندكش ملابس داخلية بدل ما أنا لابس على اللحم؟!

- عندي أكيد، بس زي ما انت شايف، أنا بقيت عامل إزاي دلوقت، ممكن اتنين يدخلوا فيه مع بعض.

دخلا الشرفة وجلس ثلاثتنا متقابلين ينظر كلٌّ منا للآخر في عينيه، كان فريد قد بدَّل ملابسه وارتدى جلبابًا أسود فضفاضًا ثم أخرج من جيبه علبة سجائر محلية رديئة وعلبة كبريت.

قدَّم لي سيجارة وأشعلها ثم أشعل لنفسه واحدة وللمليجي، واستمرت النظرات المُغلفة بالصمت، تعجَّب المليجي من نوع السجائر الرديئة والكبريت، ويبدو أنه فريد قرأ أفكار أخيه فبادره مستنكرًا:

- طبعًا مستغرب إني بدخَّن نوع حقير!، الدنيا اتغيرت جدًّا من ساعة ما جنابك سافرت من تسع سنين.

أجاب المليجي مازحًا:

- عشر سنين.

التفتَ فريد لأخيه بعدما كان ينظر للشارع والتعجب يملأ صوته ووجهه ثم تنهَّدَ وقال:

- واضح إنك حاسبهم كويس.

- معلش على الفترة اللي فاتت، إنت عارف ظروف الشغل!

- إيه اللي رجَّعك؟

- سِبْت الشغل.

اعتلت علامات التعجب والاستنكار قسمات وجه فريد الممتلئ فقال مُتسائلاً بفضول:

- إزاي، إنت كنت شغال في مكان كويس، في حد يسيب وظيفة زي دي، وضع وظيفي ممتاز ومرتب محترم وسفر ويرجع مصر!

- الحقيقة إنهم رفدوني.

قالها المليجي بهدوء كمن ينصح أحد المدخنين بأن التدخين ضار جدًّا بالصحة جعله يطلق صوت مُنغم يدل على التعجب قبل أن يقول:

- هببت إيه؟!

- تحرش.

أصدر المليجي صوتًا مُنغمًا جديدًا أكثر قوة من سابقه، كاد أن يفتك بجيوبه الأنفية، وسحب نفسًا سريعًا من سيجارته ثم ألقاها في الشارع، وقال ضاحكًا بسخرية:

- اتحرشت بمين؟!!

استقبل المليجي ردَّ فعل فريد بنفس الهدوء المستفز، ووضع قدمًا على أخرى وقال كمن يفتخر بإنجازاته:

- تحرشت بزوجة السفير الإيطالي في النرويج.

ارتفعت ضحكة فريد وترجرج جسده الممتلئ حتى كاد أن ينقلب من على كرسيه لكنه تمالك نفسه بصعوبة ثم قال وصوته مملوءٌ عن آخره بالضحك والسخرية:

- مرات سفير مرة واحدة، تلاقيها جامدة بنت الكلب.

انتاب المليجي الحماس والفخر وهو يقول شارحًا ما حدث:

- أقولك إيه بس، صاروخ عابر للقارات، مع إن عندها بتاع 50 سنة، بس الولية عود بنت الجزمة، ولَّا بنتها! مخلفة طوربيد صغير من النوع اللي يطلع الرطوبة من جتتك، بس والله هي اللي كانت عايزة وعمالة تبصلي وتضحك، غمزتلي.. غمزتلها، راحت ضاحكة أنا قُلت بس ضحكت يعني قلبها مال، ويا بركة دعاكي يا أمّا، مشيت وراحت في ممر على جنب روحت ماشي وراها ودخلنا في أول أوضة لقيناها مفتوحة، وراحت باستني قُلت في عقل بالي "حلاوتك يا فايزة لما تبقي عايزة" ولسه هحضن وأبوس، لقيت الأفندي جوزها كبس علينا، شكله كان مراقبها بس عامل عبيط، وفين يوجعك ضرب على شتيمة بالطَّلياني، والولية اللي كنت فاكر نفسي بظبتها ألاقيها شغالة ضرب وشتيمة معاه.. يا بنت الكلب يا واطية، وطبعًا الصوت عِلِي والشتايم اللي أنا مش فاهم منها حاجة عمالة تزيد، لحد ما أمن المطعم جه وأنقذوني منهم، وطبعًا انفضحت واتجرست جُرسة كبيرة، وبقت مشكلة والكل عَمَّال يعتذر، وحقك علينا يا ست، حقك علينا يا بيه، وجه مدير المطعم وصاحب المطعم وإحنا آسفين والجو بتاع الزبون دايمًا على حق.

قاطعه فريد بإشارة من يده وقال:

- في مطعم، وطبعًا الأوضة دي أكيد كانت الحمَّام يا معفن!

- أبدًا وحياتك، ده كان المخزن بتاع المطعم.

- إنت شكلك دايس المطعم كويس؟

- أكيد.. مش شغلي.

- شغلك!

قالها فريد وهو يميل برأسه جانبًا، كمن يريد أن يتأكد أنه يعي ما يسمعه جيدًا، فأكمل متسائلاً:

- إنت مش شغال في الخارجية وعمال تتنقل في السفارات بتاعتنا بره!

ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجه المليجي وهو يجيب بإشارة من رأسه نافيًا سؤال فريد، فازداد فريد تعجبًا وقال:

- أومال جناب سيادتك بيشتغل إيه؟

بلع المليجي ريقه بصعوبة ولا زالت الابتسامة البلهاء تكسو وجهه:

- أنا بشتغل في مطعم في شرم الشيخ..

أطلق فريد العنان لصرخة أفزعتني وبالتأكيد أفزعت أخاه، فقام من كرسيه يضربُ كفًّا بكف وينظر إلى المليجي:

- وبتقولي سفير يا ابن الكلب.

قالها فريد وصفع المليجي بيده الثقيلة، وركله في بطنه جعلت جسد المليجي يميل للأمام ويعانق أكواب الشاي، ثم انهال فريد عليه بلكمة أخرى قوية أفقدت المليجي الوعي.

❊ ❊ ❊

(12)

عينان دامعتان يُسيطر عليهما الخوف والرعب والألم بفعل الضربات المتتالية والتي تنهال من يد فريد التي تحمل خرطومًا بلاستيكيًّا مُتهالكًا حوَّله إلى سوط لينهال به على جسد أخيه، انهار المليجي -وما زال- عندما رأى في عينيّ أخيه نظرات غاضبة مُخيفة، يقف بجوار السرير وقد قيد فريد جسده بحبل، وما زال ينهال ضربًا على جسده، جعلته يصرخ من شدة الألم، أشاح المليجي برأسه جانبًا ليتجنب النظر إلى فريد، لم يتركه فريد وشأنه وتوجه إلى الناحية الأخرى من السرير، فقال المليجي متألمًا:

- إنت بتعمل فيَّا كده ليه؟

- عشان ضحكت عليَّا وعلى أبوك وأمك اللي كانوا فاكرينك حاجة كبيرة، بشتغل في الخارجية وهتبقى سفير وبعديها وزير خارجية، كويس إنهم ماتوا قبل ما يعرفوا إن جناب السفير طلع خدَّام ولا سفرجي.

- هما ماتوا إمتى؟

قالها المليجي مُلتاعًا وحدقتا عينيه تتسعتان، واستمر فريد في النظر له باحتقارٍ وارتفع صوته وتقطعت أنفاسه وهو يوبخه:

- من سنتين يا بيه، حاولت أوصلَّك ماعرفتش، رقم التليفون اللي معايا مش شغال ولا سايب عنوان السفارة، قصدي المطعم اللي جنابك بتخدم فيه على الناس،

ولا فيسبوك ولا أي هباب الواحد يعرف يوصلك بيه، ولو يهمك تعرف ماتوا إزاي هقولك؛ أبوك الكلى بهدلته قعد سنة تعبان وبعد ما مات أمك ما استحملتش القهرة وحصلته.

كان يتحدث بمرارة، وكان غاضبًا جدًا، وأظنه سيقتله في أي لحظة، لو فعلها فَلَهُ ألف حق.

لقد خدعهم وانطليت عليهم الخدعة تمامًا، بكى المليجي وهو يقول:

"منذُ تخرجي من كلية التجارة بتقدير مقبول، أخبرتهم أني حصلت على تقدير جيد جدًا، فرحتهم كانت تفوق الوصف، وبعد أن تم إعفائي طبيًا من أداء الخدمة العسكرية، أخبرتهم أنني سأتقدم للاختبارات التي تجريها وزارة الخارجية للالتحاق بالعمل الدبلوماسي، وطبعًا كل هذا محض خيال وافتراء، فأنا شخص تافه رصيدي من مقومات اللغة والمعلومات الاقتصادية والسياسية أو من أي مقومات أخرى يساوي صفرًا، وفي نفس الوقت كنت أجهز نفسي للهجرة للخارج بطريقة غير شرعية، سرقت ونصبت لأُدبر المال اللازم للسفر، دفعت لسمسار الهجرة ثلاثين ألف جنيه، ودبرت مبلغًا آخر من المال يكفني للعيش لفترة هناك حتى أستقر وأجد عملًا، ودعت العائلة وعلى أمل اللقاء قريبًا، الفَرحُ في أعينهم وكلماتهم لم يُثنيني عن الاستمرار في الكذب، وصلت إلى سواحل إيطاليا الجنوبية مُنهكًا بسبب السباحة لفترة طويلة، كُتبت لي النجاة من الغرق مع ثمانية أشخاص آخرين وغرق الباقي وكانوا كثيرين، أصابني الرعب من هول المنظر، لا تستطيع أن تنقذ أحدًا منهم، التفكير في الآخرين مشلول بل ممنوع، الكُل في هذه اللحظات يفكر بنفسه فقط، ولا عزاء للآخرين فليذهبوا إلى الجحيم، فالمهم نفسي. وبعدها تم إلقاء القبض عليَّ من الشرطة الإيطالية وتم إعادتي لمصر مرة أخرى"

كنا قد خرجنا من الغرفة أنا وفريد، وبقيت أنا بجوار الغرفة أراقب المليجي،

الذي بدأت أُشفق عليه مما هو فيه، رأيته وقد فتح عينيه ودار بهما في أنحاء الغرفة، فلم يجد أحدًا من حوله، حرَّك جسده المُنهك بصعوبة محاولًا النهوض من على السرير، نهض بصعوبة، الألم يسري في جسده كما يسري الدم في العروق، وقف بعد عناء، أظنُّه يُفكر في الهروب، بحث عن ملابسه في الغرفة فلم يجدها، فقال:

- دي مش أوضته اللي أنا دخلتها؟!

بدت كغرفة ثانية بها سرير فقط يجاوره ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه، سار نصف عارٍ مُصابًا بالدوار نـحو باب الغرفة الذي أكمل فتحه ببطء حتى لا يسمع أحدًا حركته، خرج من الغرفة ووجد نفسه في الصالة بالقرب من باب الشقة.

احتار تفكير المليجي في البحث عن ملابسه ثم الهرب، لكن الخوف أوقف تفكيره في هذا الحل، تفكيره في الهروب على حالتهِ تلك، ذكَّرَني بأحمد زكي في فيلم "ولاد الإيه".

- مش مهم أجري عريان، ومش المهم الناس يقولوا عليَّا مجنون، المهم أنفد بجلدي منه.

تسلل المليجي واقترب من باب الشقة، لكن صوت الغناء القادم أوقفه، كان هناك من يغني بالإنجليزية، دقق السمع ثم قال:

- أيوه، هو فريد اللي بيغني، بس إيه اللي بيغنيه ده!

دفع الفضول المليجي للبحث من أين يأتي الصوت، وصل للحمَّام كان مفتوحًا، ذهب للغرفة التي أمسكنا به فيها كاللص، فتحها وهو خائف من أن يمسك به مرة ثانية، صوت غناء فريد يرتفع، قالها المليجي، فتح الباب بقوة ودخلها فوجدها خاوية.

صوت الغناء يرتفعُ أكثر فأكثر، عاد المليجي للصالة، وعاد للممر الذي يُفضي

إلى الحمَّام، وأزاح ستارة ثقيلة مُتربة، أزحاها ليجد فريد واقفًا في المطبخ بجوار الموقد واضعًا قدمًا على الحائط، وقد أولى ظهره للحائط، مرتديًا سماعاتٍ في أذنيه، ويدندن ويمسك بملعقة يقلِّب بها القهوة في هدوءٍ، التفَّ المليجي إليه وابتسم بملءِ فيه، نزع فريد السماعات من أذنيه، وأكمل صنع القهوة، ثم قال بصوتٍ ساخرٍ ودون أن ينظر للمليجي:

- تشرب معايا قهوة على غيار الريق، يا مليجي؟

❊ ❊ ❊

(13)

عاد فريد والمليجي للغرفة التي أجلس فيها بجوار الكمبيوتر، الغرفة التي أمسكنا بها اللص.. أقصد المليجي، يحمل المليجي صينية عليها أقداح القهوة، خلفه فريد يضحك ساخرًا وهو يضربه على قفاه، ثم جلسا متجاورين، قام فريد وفتح أحد الأدراج وأخرج مظروفًا سحب منه بعض الأوراق النقدية، وأعطاها للمليجي الذي أخذها دون تردد ودسها في جيبه، جلس فريد مجددًا وأراح ظهره للخلف وتنفس بعمق وقال:

- إيه اللي رجعك يا مليجي؟

- زي ما قولتلك وإحنا قاعدين في البلكونة.

تنهَّد فريد:

- يعني السنين دي كلها كنت بتشتغلنا..

مدَّ المليجي يده مُربتا على فخذ أخيه السمين:

- سامحني يا فيري، أنا عارف إن أنا غلطان فيك وفي أبويا وأمي.

- أنا مسامحك عادي، المهم أبوك وأمك يسامحوك.

- يسامحوني إزاي؟

- نروح نزورهم في التُرب، ماشي؟

اكتسى وجه المليجي بالحزن:

- ماشي، إمتى؟

- بكرة أو بعده.

أومأ المليجي برأسه موافقًا، ثم وقف وذهب لمنضدة عليها علبة سجائر، سحب سيجارتين ناول واحدة لأخيه وأشعلها له ثم أشعل سيجارته ووقف مواجهًا له:

- وانت إيه اللي جرالك الفترة اللي فاتت؟، بقيت كده إزاي؟، ده انت كنت رياضي، وحاجة تانية، إيه الدفتر اللي مليان تذاكر أوتوبيسات وقطارات ومترو؟

نظر فريد للمليجي وقد أمال رأسه لأسفل، بعد أن أشار المليجي بيده إلى أنَّ فريد أصبح بدينًا، ستكون مصيبة إذا كان يفكر كما تفكر النساء عندما يخبرهن أحدٌ ما أنهن أصحبن بدينات، ساد الصمت بيننا، فكسره المليجي بقوله:

- لو مش عايز تتكلم، بلاش خالص؟

دفن فريد وجهه في كفيه وأطلق صرخة كتمها في كفيه، ثم قام من مكانه، لكنه فاجأنا عندما جلس مرة أخرى بلا سببٍ.

وفتح درجًا آخر في المكتب وسحب منه نظَّارةً طِبيةً وضعها على عينيه وهو يقول:

- تعالى اقعد يا مليجي..

جلس المليجي بجواري، فناوله فريد دفترًا، وعندما فتحه المليجي وجد به تذاكر قطار وتذاكر مترو وتذاكر حافلات عامة وتذاكر حافلات سياحية، مكتوب تحت كل منها تاريخها.

- افتح أول صفحة واقرأ.

قالها فريد، لكن نظرة المليجي لي والتي أشعر أن معناها أنه لا يرغب في

وجودي أثناء قراءته، فالتقط فريد خيط الفكر من رأس أخيه وقال وهو يشير نحوي:

- اتكلم عادي، الراجل ده أنقذني، ولولاه كان زمانك بتاخد العزاء فيَّا.. ده لو كنت عرفت أصلًا.

صمت المليجي لبُرهة وقال:

- اللي تشوفه.

- لو مش عايزني أقعد أنا همشي، أنا حاسس إنه هيضربني.

قلتها، فردَّ فريد ضاحكًا وهو يربِّت على كتفي:

- ماتخافش منه، ده عيِّل بوق، هو طيب بس عامل نفسه وحِش، أخويا وأنا عارفه.

صاح المليجي قائلًا:

- يلا بينا.

هبَّ فريد واقفًا، فجأة كَمَن تذكرَّ أمرًا هامًا وقال:

- نسيت أطلب الأكل، تحب تأكل إيه؟

- والله ما عايز حاجة!

- بقولك إيه هتاكل يعني هتاكل..

تركني وذهب نحو الهاتف، وظلَّ يتحدث ويضحك ويملي الأصناف التي يريدها، طلب كميات من الطعام تكفي لإشباع سكان العمارة التي يسكنها.

- مش كتير اللي انت طلبته!

- كُل اللي تقدر عليه إنت والعبيط ده، وسيبولي الباقي هتصرف فيه بمعرفتي.

التفت لي فريد وقال:

- إلا قولي.. إنت عرفت تيجي إزاي هنا؟

- ده أنا دُخت واتبهدلت، ما بين الدكتور شادي، ومدام شيرين، والست صاحبة البيت اللي ماتت من فترة لحد ما وصلت؟

- قابلت شادي، وشيرين، طب إزاي. قالها فريد مُندهشًا.

- أقولك، التليفون اللي كان معاك، لقيت رقم باسم دكتور المجانين بيتصل رديت طبعًا عشان أوصلَّك، طلع الدكتور شادي وافتكرني أخوك اللي شغال سفير ولما عرَّفته اللي حصل قابلته وما اتكلمش كتير بصراحة ودلِّني على مدام شيرين وقال لي إنها هتساعدك وفعلاً ساعدتني.

وجدت من فريد انتباهًا شديدًا عندما سمع اسم طليقته، فسألني بسرعة:

- كان معاها بنت صغيرة بتاعت خمس سنين كده!

أجبت كاذبًا:

- لا.

أصيب بالإحباط، لم أُرِد أن أخبره أن ابنته قد ماتت، سأخبره بالطبع عندما تأتي اللحظة المناسبة، ولمحت في عينيه بدايات دموع تريد أن تتساقط، منعها بأن شرب من زجاجة مياه بجواره، ثم قام وطقطق فقرات ظهره بقوة وصوت مخيفين، ثم جلس مرة أخرى وقال:

- اقرأ يا مليجي!

ردَّ المليجي الذي أشعُر أنه يكرهني لسببٍ لا أعرفه: حاضر يا اخويا.

اعتدل المليجي في جلسته وبدأ يقرأ...

❊ ❊ ❊

(14)

بدأ المليجي فعلاً في القراءة.. بدون تردد:

"سامحَكَ الله يا أبي، لماذا أسميتني بهذا الاسم؟، صحيح أنه اسم مميز، لكنه سخيف في ذات الوقت، أضاف على حياتي مزيجًا عجيبًا من الشهرة والسخرية.

أعُلم يا أبي جيدًا أنك شغوف بالسينما والتمثيل وكذلك أمي، أسمَيتَني - فريد شوقي – حُبًا وتقديرًا له، كنت أراك وأنت تشاهد أفلامه عندما كنتَ تصحبني إلى السينما ثم أمام شاشة التلفاز، تجلس مبهُورًا به، تحفظ أقواله وحركاته عن ظهر قلب، حتى إنك تقلِّد حركة حاجبه الشهيرة في بداياته الفنية.

وأتذكرُ كذلك وقت ولادة أخي مشاجرتك اللطيفة مع أمي حول تسميته، هي تريد تسميته أحمد رمزي وأنت مصمم على تسميته محمود المليجي، وقد كان لك ما أردت بعدما راوغت أمي وأقنعتها بأنك رضخت لرغبتها، ولكنك عند إصدار شهادة الميلاد سجَّلتَه بالاسم الذي أردته أنت لا الذي أرداته أمي، وقتها رأيتك وأنت تضحك، وأنا أضحك لضحكك وقلت لي وقتها:

- أمك هتتجنن لما تعرف، خليها مفاجأة.

عندما عدنا للمنزل ثارت أمي وأنت كما أنت، تضحك لثورتها وهي تبكي، وأنا واقفٌ على باب الغرفة وأضحك أنا الآخر، حينها نظرت أمي ناحيتي وصاحت بي:

- إنت بتضحك على إيه!

ردَدتُ عليها وأنا أضحك مثلك:

- بابا ضحِك عليكي وسماه محمود المليجي مش أحمد رمزي مش زي ما انتي عايزة!

وأكملتُ سخافتي بأن أخرجت لها لساني، لم تقدر أمي أن تقوم من سريرها لتمسك بي لتعبها، وأمسكت بي أنت وتصنَّعت أنك تضربني وأتصنع أنا الألم والصراخ حتى سمعنا صوتها وهي تقول:

"كفاية يا حسين، خلاص مسامحاك ومسامحة الواد اللمض ده!"

ساعتها ضحكنا نحن الاثنين لفترة طويلة بعد أن وضعنا أيدينا على أفواهنا خوفًا من أن تسمعنا أمي.

مرت الأيام وكوَّنَّا أنا وأخي ثنائيًا مميزًا في المدرسة، ولاسمينا الفضل في ذلك، أصبحنا مشهورين جدًّا في جميع مراحل التعليم حتى الجامعة، التحق محمود المليجي بكلية التجارة عندما كنت أنا في السنة الثالثة في كلية العلوم، وعلى الرغم من الفارق السني بيننا إلا أنه التحق بالجامعة وأنا لا زالتُ طالبًا فيها بسبب تفوُّقي الدراسي المعكوس الذي جعلني "موكوسًا" -على حدِّ قول أمي في إحدى المرات-، وعندما تكون هناك بوادر لحدوث مشاجرة وكنا نتدخل فيها، كانت تنتهي قبل أن تبدأ عندما يقول أحدهم:

- خلاص يا جدعان فريد شوقي ومحمود المليجي وصلوا، كله يلم نفسه بدل ما ننضرب علقة مانفوقش منها.

يضحك الجميع بمن فيهم المتشاجرين على الجملة الساخرة وينتهي العراك قبل أن يبدأ."

توقف المليجي عن القراءة لشرب بعض الماء، ثم أشعل سيجارة وقال:

- إيه الكلام الفاضي اللي انت كاتبه ده!

ركل فريد أخاه في ساقه بقدمه السمينة مسببًا ألمًا قويًا جعل المليجي يصرخ، شرب مزيدًا من الماء قبل أن يكمل القراءة:

" أثناء الدراسة الجامعية تعرفت على نورا الطالبة في كلية الآداب، كانت تدرس علم الاجتماع، كنت أكبرها بثلاث سنوات، قابلتُها مع مجموعة من الزملاء في كافيتريا الجامعة انجذب كُلٌّ منَّا للآخر، أصبحنا نلتقي كثيرًا داخل الجامعة وخارجها، وُلِدَت قصة حب بيننا أردنا أن ننهيها نهاية سعيدة، الزواج طبعًا هو الطريق لذلك، أخبرتها لتُمهِّد الطريق لأسرتها، هي راضية وسعيدة وأنا كذلك، وافقَ والدها على لقائي قبل لقاء الأسرتين وطلب لقائي في شركته حيث يمتلكها هي وشركات ومشروعات أخرى، كان رجل أعمال بدأ في النجاح وهو في طريقه نحو الشهرة.

قابلتُه وكان اللقاء مريرًا وتقليديًّا بين شاب في مقتبل حياته ووالد محبوبته ذلك الوغد الإقطاعي الثري، عشت هذا الموقف الذي كنت أراه فقط في الأفلام أو أقرأه في القصص والروايات.

النتيجة معروفة، نلتقي سرًا بعد أن أنهيت دراستي ويتبقى لها سنة دراسية واحدة فقط، وفي إحدى مرات لقاءاتنا وجدتها مُنهارة تمامًا، كان ذلك واضحًا من ملامح وجهها الذي اختلف عمَّا اعتدت عليه، واستمرارًا لتقليدية مثل تلك المواقف، أصرَّ والدها على تزويجها لابن أحد الاوغاد الأثرياء من أصدقائه ترسيخًا للعلاقات التجارية بينهما لتصير هناك علاقات أسرية مترابطة، العريس المنتظر وفقًا لما فهمته من نورا لا يمانع في الزواج منها، لا عشقًا لها ولا اهتمامًا بعقلها الرزين وإنما لأنها - مُزة جامدة - على حدِّ قوله لنورا.

فكرنا في الزواج ووضع الجميع في صدمة، لكن من أين لنا بالجرأة الكافية لتنفيذ مثل تلك الفكرة، فاستسلمنا لضربة القدر.

وفي أحد الأيام كنا جالسين على كورنيش النيل، صامتين، مُتأملين، شاردين في علاقتنا التي تنهار، فوجئنا بأبيها وأخيها يمسكان بها ويضربانها، وهي تصرخ في انهيارٍ، حاولتُ منعهما لكنَّ أخاها أشهر مسدسًا وهددني به، دفعني بعيدًا حتى اصطدمت بسور الكورنيش، وهرول نحوي وضربني بكعب المسدس في وجهي فنزفت من أنفي وفمي بقوة، ركبوا سيارتهم ولا زلت أسمع صوت صراخها ونحيبها، قمت مُتعبًا على الفور وركضت بوهنٍ ناحية السيارة التي انطلقت بسرعة ولم أستطع اللحاق بها.

عُدت للمنزل منكسرًا، دخلت غرفتي وتكومت على سريري، نظر لي أخي وبدأ التحدث معي وأنا لا أعيره أي اهتمامٍ على الإطلاق، ألحَّ في اسئلته فأجبته مُحبطًا:

- اتخانقت، ارتحت..

- اتخانقت إيه إنت شكلك مضروب علقة تمام.

نظرت إليه شزرًا، لكنه أكمل ساخرًا:

- أومال فريد شوقي إيه بس؟، إنت شكلك اتظبطت.

خلعت حذائي وألقيته عليه في وهنٍ فلم يصل إليه فقال ساخرًا:

- يا حنيِّن.

الألم النفسي يفوق الجسدي، النفس محطمة والجسد ينهار بالتبعية، دخلت في نوبة بكاء نمت بعدها لفترة طويلة.

وطوال الأيام التالية كانت حالتي النفسية تزدادُ سوءًا، وبدأت أشعر بالانهيار والضياع، إلى أن جاء أخي يومها من الجامعة مطأطأ الرأس وألقى نحوي بجريدة، ثم قال بصوت مرير:

- فرح نورا النهارده!

أمسكت بالجريدة المفتوحة على صفحة الاجتماعيات وكانت صورتها وصورة الملعون الذي سيتزوجها تعلو الديباجة المعروفة لإعلان الزواج الميمون في جو عائلي بهيج.

استمرت حالتي في الانحدار بسرعة نحو الأسوأ، لا فرق هنا بين الحالة النفسية والجسدية، ويومًا ذهبت إلى الجامعة لإنهاء بعض الأوراق، قابلت بعض الزملاء، وقفنا نتحدث عن ذكريات أيام الدراسة، تحاشيت الحديث عن نورا وتنميت ألا يأتي أحدٌ بِاسمها، لكن القدر لم يمهلني أي فرصة، لأجد أخي قادمًا يجري مُتفاجئًا من وجودي في الجامعة، توقف عندي ثم قال وهو يتنفس بصعوبة:

- إنت بتعمل إيه هنا؟

- بخلص ورق يا حمار، أومال جاي ليه يعني؟

- أنا فاكرك عرِفت؟

- عرفت إيه؟

تلعثم وهو يقول:

- أنا فاكرك عرفت إن .. نورا .. تعيش انت!

- إيه!

- أنا افتكرت جيت عشان عرفت!

مرة ثانية الألم النفسي لا يضاهيه أي ألم آخر، سألته:

- ماتت إزاي!

ناولني ذلك المأفون جريدةً، فتحتها كانت هذه المرة صورتها تزين صفحة الحوادث، ويقول الخبر:

(وفاة عروس شابة بعد أسبوعين من زفافها)، قرأت بعيني سطور الخبر وأنا لا أعي شيئًا، كل ما تذكرته أنني عندما فتحت عينيَّ وجدتني في غرفتي وبجواري أبي وأمي وأخي."

توقف المليجي عن القراءة مرة ثانية وقال:

- إنت لسه فاكر الكلام ده كله.

- طبعًا وهي دي حاجة تتنسي. قالها فريد بأسى.

قام المليجي من جلسته وأدى بعض التمارين لإراحة ظهره، ثم تحرك في الغرفة وفتح النافذة لتجديد وتنقية الهواء، ثم مدَّ فريد قدميه على الكرسي الذي كان يجلس عليه أخوه، وقال:

- إنت مش ملاحظ إنك بومة.

ضحك المليجي وقال:

- فعلًا، بس تصدق إن أبوك ده فقري بجد، بقى عشان بيحب السيما يسمينا فريد شوقي ومحمود المليجي، أومال لو كنا لينا أخت كان هيسميها إيه، لا وبُص اسمه كمان حسين رياض، لا واضح إن جدك كمان غاوي سيما هو راخر.

ضحك فريد بصوتٍ عالٍ، وأشعل سيجارة ثم ألقى نحوي بواحدة، فقال المليجي متسائلًا:

- تفتكر لو كان لينا أخت كان أبوك هيسميها إيه؟

حكَّ فريد رأسه بيده، ولوى شفتيه وقال:

- أكيد كان هيسميها هدى سلطان!!

❊ ❊ ❊

(15)

ضحكنا جميعًا للدعابة، عندما يضحك فريد يرتج جسده بقوة فيبدو كطفلٍ صغيرٍ لا يحمل هَمًّا للحياة، يبدو أنه يعشق الفكاهة ويكره الاكتئاب والحزن، ويتمنى أن تعطي الدنيا له وجهها الحلو لا وجهها القبيح، لكن ما حدثَ، أظهر له الوجه القبيح لا الحلو، تأثر بسبب وفاة نورا، والتي حطمته برحيلها، الأقدار لم تساعدهما، على الرغم من كلاسيكية الموقف، فهو ابن الطبقة المتوسطة وهي ابنة أحد الأثرياء، موقف تقليدي سينيمائي الصورة يمكنك تخيُّلَه عند قراءتك لقصة أو لرواية أو مشاهدته في عمل فني، لكن أن يحدث لك في الحقيقة وأن ينتهي تلك النهاية المأساوية فلا شكَّ في أنك تتعرض لصدمة نفسية أو بالتعبير الشعبي الدارج - نفسك تتكسر - وهذا ما حدثَ فعلاً.

قام فريد من جلسته وقام ببعض التمرينات لتنشيط جسده مرةً أخرى بعد الجلوس لفترة طويلة، ثم تجول في أرجاء الغرفة لنفس الغرض، وقف بجوار أخيه بجانب النافذة وقال:

- نكمل؟!

أجابه المليجي على الفور:

- نكمِّل، ليه لأ!

- يلا بينا نشوف حصل إيه.

أمسك المليجي بالدفتر وعاد للقراءة مجددًا:

"كنتيجة لقراءة خبر وفاة نورا أصِبتُ بالسكري، هذا ما عرفته من والدتي التي جلست بجواري تبكي، أبي واقف بجوار السرير ينظر نحوي بإشفاقٍ، أما محمود وجدته واقفًا عاقدًا ساعديه أمام صدره والضيق واضح على قسمات وجهه.

أمي ومحمود هما الوحيدان اللذان يعرفان علاقتي بنورا، أما أبي فيظن أنني تعبت لأني تعرضت لموقف سيء في الجامعة أو أنني فقدت فرصة عمل جيدة، واساني وتركني وخرج قبل أن يقول: "مفيش حاجة تستاهل كُلّه على جزمتك".

نظرت له محاولًا أن أبتسم، أومأتُ برأسي موافقًا على كلامه وبداخلي التمست له العذر لعدم معرفته بحقيقة الأمر.

بقيت أمي وأخي بجواري قليلاً قبل أن تخرج والدتي هي الأخرى لتحضر لي الطعام وهي تدعو لي بالصحة والعافية.

اعتدلت في جلستي على السرير بمساعدة أخي الذي جاء وجلس بجواري، قام وتأكد من خروج والدتي للمطبخ وكذلك تأكد من خروج أبي من المنزل، أغلق الباب بالمفتاح وعاد للجلوس بجواري:

- والله العظيم مفيش حاجة تستاهل ده كله، ده قدَرْ ربنا ومانقدرش نعترض عليه.

- ونعم بالله، هو إيه اللي حصل؟

- يا عم سيبك من اللي حصل، استريح شوية وبعدين نتكلم براحتنا.

انفعلت عليه بقسوة وضربته في صدره على قدر استطاعتي، فلم يردّ أو يصدر ردة فعل رأفة بي، كل ما فعله ابتسم وربت على كتفي وقال:

- ريَّح شوية عشان تفوق وتركز في دنيتك، عاوز حاجة من تحت؟

لم أُجِبه، فتركني وخرج من الغرفة، فقمت مترنحًا نحو الدولاب وأخرجت عُلبة حلوى قديمة حولتها لحافظة تحوي أشيائي الثمينة، عدت للسرير بصعوبة وألقيت جسدي عليه وقد غفلت عيناي قليلًا. ولم أشعر بشيءٍ بعد ذلك.

لم أعلم كم مَرَّ من الوقت قبل أن أفتح عينيَّ وكنت وحيدًا في الغرفة، الشيش مغلقٌ جزئيًا، تتسلل من فتحاته أشعة الشمس والزجاج مفتوح يدخل تيارٌ هواء باردٌ ومنعِشٌ.

قمت من السرير بنشاط على غير حالتي التي كنت فيها منذ قليلٍ، فتحت باب الشرفة ودخلتها، وكان الطقس بديعًا، الشمس مشرقة والهواء معتدل، جلستُ على الكرسي الصغير أتابع الطريق فوجدته خاويًا من المارة والسيارات والمحال مغلقة، حدَّثت نفسي:

- الجو جميل جدًّا النهارده، أومال الناس نايمة ليه لغاية دلوقت!

جلستُ لفترة أستمتع بالهواء وأشعة الشمس، ثم دخلت ثانية للغرفة ولا زلتُ متعجبًا من ذلك النشاط المفاجئ الذي أنا فيه.

وقفت في وسط الغرفة لا أدري ماذا أفعل، قررت أن أستحم لمزيد من النشاط والاستفاقة، فتحتُ الدولاب والتقطت ملابس جديدة ومنشفة، ثم خرجت باتجاه الحمَّام، بدأ الجوع يصيبني بسيفه، ناديت على أمي فلم ترد، ناديت على أبي وأخي فلم يجِبني أحدٌ، هل تركوني نائمًا كل هذه المدة وخرجوا من المنزل؟، سمعت صوتًا خافتًا لم أتبين مصدره، الصوت مُتكرر على الرغم من خفوته، نزعتُ كل الأفكار السيئة من رأسي كوجود لص في المنزل سيقتلني عندما أكتشف أنه يسرق وقبل أن أطلب المساعدة، أو أن هناك شبحًا ما قابعًا في أحد الأركان سيقتلني من الرعب بمجرد ظهوره، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، ودخلت الحمَّام، شعرت وأنا

أستحم بنشاط أكثر من ذي قبل. أنهيت حمامي وخرجت إلى المطبخ.. كوبٌ من القهوة لنشاطٍ أكثر، هذا كان هدفي، البُن المفضل لي كان مُتوفرًا وبكثرة، أعددتُ كوب القهوة، كان ممتازًا على غير عادتي عندما أصنعها، أخذت الكوب وخرجت للصالة أرتشف منه على مهلٍ مستمعتًا بمذاقه، لكِنَّ الصَّوتَ عاد من جديدٍ، أنصتُّ السمع لأتبين ما يقوله الصوت، أسمعه يُكرر كلماته، حتمًا هذا ليس لصًا، استقر في نفسي أنه شبحٌ يتلاعب بي، الصوت يتكرر لكني سمعته ينطق باسمي، نعم.. إنه شبح، النداءُ يتكرر، بدأ الصوت يتضح، الصوت أُنثوي ينطق اسم فريد بنعومة ورِقَّةٍ وحنانٍ لم أعهدها من قبل.

حاولت تبيُّن مصدر الصوت، ويبدو أن من يصدر ذلك الصوت أراد مساعدتي، فارتفع الصوت مُناديًا:

- فريد، أنا هنا!

يا الله لم أسمع اسمي بهذه العذوبة من قبل، تتبَّعت مصدر الصوت، كان قادمًا من غرفة أبي وأمي، لعلَّها أمي تلاعبني كما كانت تلاعبني وأنا صغير، اتجهتُ نحو الغرفة سعيدًا والصوتُ يستمرُ في مناداتي، لكن عندما اقتربت من الغرفة اتضح الصوت أكثر، هذا ليس صوت أمي، انتبهت وزادَ رُعبي وتأكدت من ظني السابق، نعم.. في بيتُنا شبحٌ.. وشبحٌ لأنثى؟

وبناءً على رغبتي في إنهاء مهمة ذلك الشبح بسرعة، فكفاني الخوف الذي أعيشه، دلفتُ داخل الغرفة بقوة لأجد سيدة تجلس القرفصاء على السرير مرتدية فستانَ زفافٍ منقوشًا بالورود الفضية، قصيرًا جدًّا وعاري الصدر، كل هذا وهي جالسة وقد أخفت وجهها بغطاء أبيض مُزين بنفس نقوش الفستان.

اقتربت منها، فقالت:

- اتأخرت جدًّا يا فريد، أنا زعلانة إنك ماعرفتش صوتي!

الصمت غلَّفني، فلم أستطع الرد، ووجدتها وقد فتحت ذراعيها عن آخرهما وقالت بحنانٍ:

- تعالى اقعد قدامي، عاوزة أشوفك كويس.

سرت باتجاهها كالمنوَّم مغناطيسًا أو كمن جذبته النداهة، جلستُ أمامها القرفصاء مثلها، مدت ذراعيها وتحسست وجهي، ثم بدأت في رفع الغطاء عن وجهها ببطء، وأنا لا زلت مجذوبًا ومبهورًا، أنهت رفعها للغطاء في ثوانٍ، وكل ما فعلته أنا هو أنني صرختُ بكل ما أوتيت من قوة، انتفضت وقفزتُ للخلف لكنها أمسكت بي وأجلستني، أما أنا فقد انهرتُ تمامًا وانعقد لساني ودمعت عيني، لأنه وببساطة الصوت الذي كان يناديني والسيدة التي تجلس على السرير.. كانت نورا.

إنها هي ولا شك، اتضح وجهها بعدما نزعَتْ عنه الغطاء، شعرها الأسود الفاحم وعيناها السوداوان الواسعتان، ولا زال بهما تلك النظرة الحزينة الحانية، تزين أذنيها بأقراط ذهبية كبيرة مُطعمة بفصوصٍ حمراء، مساحيق التجميل التي تضعها رغم قلتها إلا أنها جعلتها في أبهى صورة، ما عدا شفتيها الورديتين طبيعيًا دون أي تدخل.

فستان الزفاف الذي ترتديه كان رائعًا، وضعها في صورة ملائكية، أحببتُ جميع إطلالاتها، حتى صورها وهي صغيرة التي أطلعتني عليها كانت رائعة، تنبعث منها السعادة والطمأنينة، لكن ما ترتديه الآن، ناقض الصورة المحفورة لها في قلبي وعقلي، وتساءلتُ بداخلي لماذا ترتدي مثل هذه الملابس؟ ولماذا قابلَتْني بهذه الصورة وهي التي تعلم جيدًا أنني أبغض الملابس القصيرة والعارية، وتعلم كذلك رأيي في ملابسها وخصوصًا عندما جاءت الكلية وهي ترتدي بلوزة مفتوحة من الصدر، عاتبتها بقسوة يومها، قابلَتْ قسوتي هذه بهدوءٍ وحنانٍ واعتذرَتْ بجملةٍ واحدةٍ: أنا آسفة يا حبيبي.

قامت من جلستها بعدما مسحت رأسي بيديها ووضعتهما على فمي كي لا أصرخ، وقفت بجوار السرير وابتسمت ابتسامتها التي قتلتني - ولا زالت - وقالت بعدما ألقت بغطاء رأسها بعيدًا ليستقر في ركن الغرفة بجوار المرآة:

- إيه رأيك في الفستان؟

قالتها ودارت حولها نفسها كراقصة باليه، فاتحة يديها على قدرِ اتساعهما وقدماها عاريتان. توقفت ونظرت إليَّ وأنا أنظر ناحيتها ولا أستطيع الكلام، وضعت يديها على وسطها وقالت وقد ظهر عليها الحرج والخجل:

- الفستان مش عجبك، عشان قصير وعريان، أنا عارفة إنك مابتحبش تشوفني كده، بس أنا ماليش ذنب، أنا مجبرة عليه.

أجبتها:

- كويس إنك عارفة، فاكرة يوم ما جيتي الكلية وانتي لابسة البلوزة المفتوحة؟

ضحكت، ثم قالت:

- فاكرة طبعًا يا حبيبي، يومها اتأكدت من إنك بتحبني وبتغير عليَّا جدًا، وقولتلي إني ممكن أكون جميلة وشيك ولابسة على الموضة من غير ما تلبسي حاجة قصيرة أو عريانة أو حتى ضيقة.

حاولت القيام لأحتضنها فلم أستطع، فأجبتُها باسمًا وأنا جالس:

- إنتي فاكرة كل كلمة قُلتها وبالحرف، بس الفستان حلو أوي بس لو ما كانش...

قاطعتني مُعاتبة:

- يا فريد والله العظيم ماليش دعوة بيه، أنا مجبورة عليه.

- ومين اللي جبرك عليه؟

- اللي قتل حُبِّنا؟

لم أرد، فأكملت هي السؤال الذي أطل من عيني:

- جوزي يا فريد هو اللي عاوز كده!

- جوزك؟!

أطلت علامات التعجب والاستفهام من عيني أكثر وأكثر، نظرت نحوي مشفقة، فجلست على ركبتيها على مقربة مني، ثم قالت:

- أيوه جوزي هو اللي عاوز كده، هفهمك.

عدلت من جلستي فأصبحت مواجهًا لها، أنا جالسٌ على السرير وهي على الأرض، وأشعر أن جسدي بدأ يتحرر قليلًا:

- قولي يا نورا، فهميني.

- بُص يا فيري، بعد اللي حصل على الكورنيش خَدُوني وسفَّرُوني عند عمتي في الإسكندرية، فضِلْت هناك لحد يوم الفرح كان بعديها بإسبوعين تلاتة تقريبًا، وطبعًا كانت حالتي زفت، جالي بابا وأخويا والعريس وأمه، أمه ماكنش عاجبها موضوع الجواز الغصب لأن هي مجرباه مع جوزها، يمكن هي الوحيدة اللي وافقة في صفي، المهم، كانوا جايبين المأذون معاهم، خلَّصوا ولقيت عادل اللي هو خلاص بقى جوزي، عاوز يقعد معايا شوية، طلعنا قعدنا في البلكونة و...

قاطعتها وأنا غير مصدق:

- حماتك واقفة في صفِّك!

ابتسمت ابتسامتها الساحرة وأكملت:

- أيوه، واقفة في صفي، مستغرب ليه يا حبيبي؟ بس للأسف مش قادرة تعمل حاجة، جوزها - اللي هو حمايا - صعب جدًّا وشكله قاسي أوي، المهم طلعنا

البلكونة وقعد يتكلم إنه بيحبني ومعجب بيَّا من فترة وفِرِح جدًا لما باباه كلمه في موضوع جوازي منه واعتبرها فرصة إنه يقرَّب منِّي.

لا زلت غير مصدق لما تقول:

- يعني هو اللي خلاكي تلبسي كده!

زفرت نورا بمرارة:

- أيوه، عشان هو حابب يشوفني كده وبيحب الأستايل ده ونِفسه يشوف عروسته لابسة كده بس عرفت من مامته بعد كده إنه عاوز كده عشان يغيظ خطيبته اللي سابها من سنة.

- ثواني كده، عشان يغيظ خطيبته!، أومال فين باباك وأخوكي وحماكي اللي بتقولي عليه صعب وقاسي، وفين حماتك؟

قالت مُحبطة:

- كلهم كانوا موافقين، جوزك ولازم تسمعي كلامه.

شعرتُ بجسدي يتحرَّر، قمت من مكاني ووقفت وأنا أنظر إليها، أمسكت يدها وساعدتها على الوقوف، وقفنا متقابلين تختلط أنفاسنا وتتعانق عيوننا وقلوبنا فيها ما فيها من غرام، ولم أدرِ بنفسي عندما قلت لها:

- ما تيجي نرقص؟

احتضنَ كلٌّ مِنَّا الآخر بقوة، وبدأ صوت موسيقى قُلوبُنا في الارتفاع، اندمجنا معها، غبنا عن الواقع نرقص ونضحك، كانت هذه أول مرة اقترب منها لهذا الحد، كانت جميلة ومتألقة كعادتها.

كانت هذه أول مرة نرقص فيها سويًا، كانت دومًا ما ترفض ذلك وتقول "لما نتخطب على الأقل"، ها نحن نرقص، لم ننطق بحرف واحد، كانت عيوننا هي التي

تتكلم، وقلوبنا تعزف موسيقانا الخاصة بنا، لنا وحدنا وليس لأحدٍ سوانا، احتضنَّا بعضنا أكثر وأكثر مع تسارُع الإيقاع، وارتفاع ضربات قلوبنا.

وأثناء ما نحن مستمتعين سمعت أصواتًا صاخبة وأقدامًا تُهرول نحو الغرفة، رغبتي في عدم ترك نورا أن تفلت من يدي تزداد، اقتحم علينا الغرفة رجلان لم أتبيَّن ملامحهما، وقفا ينظران لنا والشَّررُ يتطاير من أعينهما، جذبتُ نورا من يدها وأوقفتها خلف ظهري ونحن نتراجع للخلف حتى وقفنا في ركن الغرفة، والرجلان يتقدمان نحونا و نورا لا زالت خلفي.

- إنت بتعمل إيه!

قالها أحد الرجلين، أظنه زوجها، قاتلها وقاتلي يقف أمامي، حاولت الهجوم عليه لكن جسدي تيبس وأنا أحمي نورا خلفي فاردًا ذراعاي كي لا يقترب منها أحدٌ، ثم سمعت صوتًا أنثويًا يصرخ ويقترب صراخه أكثر، ظهرت سيدة من خلفهما ودفعتهما ومرت من بينهما وهي لا زالت تصرخ، اقتربت منِّي أكثر، صرختُ بقوة في وجهها:

- محدش هياخدها مني، سامعين؟

بكت السيدة بصوتٍ مسموعٍ، واختلط بكاؤها بصوتها وهي تقول:

- حرام عليك اللي بتعمله في نفسك ده يا ابني!

- ماحدّش له دعوة، نورا، ماحدِّش هيلمسك طول ما أنا موجود.

لم تجبني نورا، التفتُّ خلفي فلم أجدها صرختُ:

- نوراااااا، أنتِ فين، نوراااااا

التفتُّ للواقفين أمامي أنظر في وجوههم التي بدأت تتضح ملامحها تدريجيًا، لا أفهم شيئًا، تلك السيدة تنظر إليَّ وتبكي بشدة، وبدأ الرجلان ينظران نحوي

بإشفاقٍ، اقتربا مني، حاولتُ المقاومة فلم أستطع، وقعت على الأرض خائر القوى، في ذلك الركن الذي كانت تقف فيه نورا منذ قليلٍ، لا زلت أنظر إليهم ببلاهة حتى وجدت تلك السيدة تقترب ثم تجلس أمامي وتحتضنني باكية:

- يا ابني ماتعملش في نفسَك كده، والله حرام عليك.

أنا غير واعٍ لما أراه، وضحت ملامح السيدة تمامًا، وصُدِمتُ عندما وجدتها أمي، رفعت رأسي نحو الرجلين، وقد بدأ يصيبني بعض الدوار، تفرستُ ملامحهما فكانا أبي وأخي ينظران غير مستوعبين لما يرياه، نظرت لأمي وبدأت أبكي:

- نورا كانت هنا معايا، قعدنا نتكلم مع بعض ونضحك ونرقص وقالتلي بتحبني أوي وأكتر من أي حاجة تانية في الدنيا، حتى بصي كانت سايبة طرحة الفرح أهيه، بصي يا ماما.

وضعت يدي خلف ظهري وأمسكت بالطرحة وقدمتها لأمي التي لا زالت تبكي، أمسكتها مني وازداد بكاؤها ونحيبها، ووجدت أبي وأخي أمسكاني ويرفعانني من الأرض، انهرت تمامًا من البكاء وكذلك أمي التي وضعت أمامي منشفة والتي ظننتها الطرحة التي كانت ترتديها نورا.

آخر ما تذكرته هو صراخ أمي عندما سَقطتُ على الأرض ولم أحرك ساكنًا بعدها".

❊ ❊ ❊

(16)

توقف المليجي عن القراءة فاغرًا فاه، وكذلك فعلت أنا، أرمق الأخوين في صمتٍ، وأولي اهتمامًا خاصًا لفريد الذي دمعت عيناه من الكلام الذي سمعه منذ قليل، كلامه الذي كتبه عن نفسه وحياته، يا له من شعور أن تسمع ما كتبته.

مع دقات جرس الباب تثاءب المليجي وأغمض عينيه، فانتبه عندما صفعه فريد على قفاه قائلًا:

- فوق يا ولا، الأكل جه!

انتبه المليجي ونظر لنا كمن لا يفهم شيئًا، فأكمل فريد:

- صحصح كده وقوم جهِّز السفرة لحد ما أحاسب الراجل.

خرجنا من الغرفة، أفرغ المليجي طاولة الطعام من الجرائد والكتب والأكواب الموضوعة عليها، ونظفها من أكوام التراب المتكدس عليها وهو يقول:

- هو مفيش ست دخلت البيت قبل كده من بعد أمك؟

أكمل تنظيف الطاولة ووضع عليها غطاءً بلاستيكيًّا من النوع ذي الاستخدام الواحد، ثم عدتُ أنا وفريد للداخل حاملين أكياسًا كثيرة، نادى فريد على المليجي لمساعدتنا في حمل الأكياس، فقلت:

- لزمته إيه الأكل ده كله، كتير أوي!

نظرَ فريد لي شزرًا، ثم قال مُتأففًا:

- كُل اللي تقدر عليه والباقي سيبهولي!

سأل المليجي متعجبًا:

- بس انت ماكنتش كده!

ازداد فريد تأففًا وهو يقول:

- خليكوا في حالكوا، ومرة تانية بقولكوا كُلُوا اللي تقدروا عليه والباقي سيبهولي، آمين يا أبا؟

- آمين يا عم الحاج.. خلاص.

قالها المليجي، وبدآ يفرغان الطعام على الطاولة في صمتٍ حتى قطعه فريد عندما قال:

- خُش هات المعالق يا زفر، وافتح التلاجة هات المخلل والحاجة الساقعة!

دخل المليجي المطبخ وأحضر المطلوب، ثم جلسنا، وبدأ فريد في عزف سيمفونيته الخاصة بالطعام، شره بصورة عظيمة، جعلت المليجي يمعن النظر لأخيه وهو يأكل بطريقة غير طبيعية، ثم قال:

- من إمتى كنت كده!

أجابه فريد:

- اطفح ولو عايز تتكلم اتكلم.

المليجي يخطف نظراتٍ ليراه وهو يأكل، فقال:

- يعني انت لما كنت في الركن كانت فاكر إن نورا واقفة وراك؟

أومأ فريد برأسه إيجابًا ثم أطلق صوتًا مكتومًا من فمه الممتلئ بالطعام:

- إمممممم.

فأكمل المليجي:

- وانت عرفت الكلام ده إزاي؟

ابتلع ما في فمه من طعام، ثم قال:

- عرفته من أمك، تقريبًا كده كنت بحلم، أمك كانت بتقولي إني كنت ماسك الفوطة على إنها طرحة الفرح بتاعة نورا.

- إنت كنت ضايع جدًّا الفترة دي، وحالتك كانت زفت.

- فعلًا.

- وإيه اللي حصل بعد كده؟

نظرَ فريد لأخيه وأشار ناحية الطعام، لم يفهم المليجي ما المقصد من الإشارة، فكرَّرَ سؤاله، فما كان من فريد إلا أن ألقى الملعقة بعصبية على الطعام:

- هكمِّل لما أخلَّص أُمّ الأكل ده!

- ماشي بالراحة طيب.

سألني فريد:

- خلَّصت أكل؟

- خلصت تقريبًا.

- حلو، نشرب شاي بقى، قوم يا مليجي اعمل الشاي.

قام المليجي صامتًا واتجه للمطبخ، واتجهت خلفه نحو الحمام، تلصصت عليه وهو يُعد الشاي، رأيته واجمًا يُتمتم بكلمات غير مسموعة، وبدا لي أن الأفكار تقفز كفُقاعات الصابون داخل رأس المليجي، وبدأ يُحدِّث نفسه بصوت مسموع هذه المرة، سمعتهُ يقول:

- أعلمُ جيدًا مدى ارتباطه بنورا بل كنت شاهدًا عليه، لقد تحطَّم مرتين، عند زواجها وعند وفاتها، لقد تبدَّلَ حالُه كثيرًا بعدها، أصبح يثور فجأةً ويهدأ فجأةً، مُتأرجحًا، مُذبذبًا، خائفًا من الدخول في علاقة جديدة حتى لا يتحطم مرة أخرى، هل صحيح أن الدخول في علاقة جديدة ممكن أن يُنسيك علاقة سابقة؟، لكن بعض التفاصيل الصغيرة تجعلك تتذكر محبوبتك القديمة لمجرد سماع كلمة اعتادت أن تقولها، أو موقف يُذكرك بها أو حتى لونٌ محبب لكليهما، كل التفاصيل تجعلك تتذكر وتقارن بينهما، وللأسف تظل هذه المقارنة مستمرة للأبد حتى تستطيع أن تنسى واحدة منهما أو كليهما، لكن في داخلك ستظل الاثنتان بداخل عقلك وقلبك وروحك. اللعنة لقد غبت عنه لفترة طويلة، لقد بدأ يصيبني الاكتئاب والإحساس بالذنب تجاهه من المآسي التي عاشها ويعيشها حاليًا.

عمومًا، ماذا سيحكي لي بعد فاصل الطعام الدسم جدًا، هل سيحكي عن زوجته وفترة عمله وابنته أم ماذا سيقول هذه المرة؟

- خلَّصت الشاي يا حيوان؟

ارتفع صوت فريد عاليًا:

- خلَّص الشاي وتعالى على الأوضة يا زفر.

- زفر!!! ربنا يسامحك يا بابا على اللي انت عملته فينا.

نادى المليجي بصوتٍ عالٍ:

- أنا زفر!

جاءه الرد سريعًا:

- أيوه.. عباس الزفر؟

ظني كان صحيحًا، يقصد محمود المليجي في فيلم إسماعيل ياسين في الأسطول، فعلًا، سامحك الله يا أبي!

حمل المليجي أكواب الشاي وأحضر معه البرّاد حتى إذا رغب أحدنا في كمية إضافية تكون موجودةً فلا يُتعِب نفسَه بالذهاب والمجيء مِن وإلى المطبخ.

دخل المليجي غرفة الذكريات ووضع الشاي ووجد فريد مستلقيًا على السرير فقال:

- طبعًا لازم تريح بعد الدبة الجامدة دي!

- شيء أساسي! قالها فريد مُربتًا على بطنه الكبير!

- طب صحصح كده وتعالى نكمل.

قام فريد بصعوبة وجلس على كرسيه، وجلست أنا والمليجي بجوار المكتب، أشعل فريد ثلاث سيجارات دفعة واحدة، ناولني واحدة وناول الثانية للمليجي واحتفظ لنفسه بواحدة، وبدأ يشرب الشاي بتلذُّذٍ، منع المليجي تلذذه بالشاي قائلًا:

- أكمِّل قراية!

فريد بهدوءٍ شديدٍ:

- كمِّل!

قلب المليجي الصفحة التي توقفت عندها، الصفحة كانت فارغة، قلب صفحات أخرى، باقي الدفتر صفحات بيضاء فارغة، طلت علامات الاستفهام والتعجب من عينيه، فقال:

- إنت كاتبها بحبر سري!

- لا يا زفر، ماكانش ليَّا نفس أكمل!

ردَّ المليجي منفعلًا:

- مالكش نفس، أومال خلتني أقرا ليه من الأول!

- مش عارف..

- إنت عيل بيض.

انفعل فريد بشدة، ووقف مواجهًا أخاه، ابتسم وصفعه بقوة:

- إنت هتتخلَّق عليَّا، ماتخليش الوش التاني يطلع يا سفرجي.

- أبوس إيدك بلاش.

قام فريد مُتثاقلًا واتجه نحو الدولاب وأخرج منه دفترًا جديدًا مكتوب على الغلاف الرقم (2)، أعطاه للمليجي ثم جلس وقال:

- صحيح أنا مرت علياً فترة ما كانش ليا نِفس أكتب ولا كلمة.. بس قاومت وكتبت.

فتح المليجي الدفتر وقلَّب صفحاته فوجد أغلب صفحتاه مكتوبة، إذن.. سيُكشَف الَمزيدٌ من الأسرار.

صبَّ فريد لنفسه كوبًا آخر من الشاي، وصبَّ لأخيه ولي أيضًا، ثم أشعل سيجارة جديدة ومدَّ قدميه وقال:

- أكمِل يا بُني!

تنحنح المليجي وعاد للقراءة مرة أخرى.

❊ ❊ ❊

(17)

"عندما تتعامل مع أي أزمةٍ، يجب أن تتعامل معها بمبدأ لا تهوينَ ولا تهويلَ حتى تستطيع حلَّها، لا أتذكر قائلَها أو كاتبَها، لكنها مقولة أظنها قوية تُلخِّص أفضل طريقة لمواجهة الأزمات والمشاكل.

بعد التدهور الذي حدث لي بسبب نورا والمآسي التي خَلَّفتْها، سيطر خوفٌ طبيعيٌّ على أبي وأمي، خوفٌ من أن تتدهور حالتي أكثر، زياراتٌ كثيرة للأطباء لمتابعة حالتي، تحسنتْ حالتي النفسية والجسدية بالتدريج، تفرَّغَت أمي تمامًا لرعايتي، فقد أصبحتُ وحيدًا بعد سفر المليجي للخارج وانشغال أبي الدائم بعمله.

بدأتُ أبحث عن عملٍ نزولًا على رغبة أمي التي قالت لي عدة مرات أن انشغالي بعمل سيُساعدني على تجاوُزِ جميع الأزمات التي مررتُ بها. وبعد البحث لفترة طويلة لا بأس بها، تم طلبي لإجراء مقابلة في إحدى الشركات الشهيرة، وتم قبولي بها، كشاب حديث التخرج ليس لديه أي سابقة خبرة عملية، لكني كنت شِبه متفوقٍ، على الرغم من رسوبي في إحدى السنوات، هل أنا محظوظٌ أم لعلها إرادة الله التي تُسيِّر الكون.

عندما ذهبت للكلية لاستخراج بعض الأوراق، ذهبت على مضض لأني أعرف أن ذهابي هناك سيذكِّرني بنورا، لم أنسَها أبدًا، ولن أنساها ما دام فيَّ نَفَس يتردَّد، لن تتكرر هذه الفتاة، أقسم بهذا.

أنهيت أوراقي سريعًا متجنبًا الأماكن التي كنا نجلس فيها أو نمشي فيها داخل الكلية حتى كافيتريا الجامعة التي أعشق القهوة التي تقدمها تجنبتها.

بعدها بأيام، كان أول يوم عمل لي، تم إلحاقي بقسم الأبحاث والتطوير في الشركة، لقد كانت أمي على حق، العمل سيخرجني مما فيه، انخرطت في العمل وفي تكوين علاقاتٍ مع زملاء العمل، البعض كان ودودًا والبعض الآخر لم يكن كذلك.

مرت الأيام كعادتها.. مملة وسريعة، لكن عندما جاءت شيرين للعمل معنا في القسم كمُنسِّقَة عمل، انتفض شيءٌ ما بداخلي، لا أعرف ما الذي جذبني نحوها، فتاة جميلة أنيقة، مجتهدة في عملها، تركت بصمتَها في المكان بسرعة، بما فيهم أنا.

بدلتُ مواعيد ذهابي للعمل كي أراها أولًا، أدمنت رؤياها، والتحدُّث إليها، اختلقت أسبابًا واهية لكي أتحدث معها، ويبدو أنها تعلم ذلك لضعف الأسباب التي أسوقها، بدأت أميل ناحيتها، لكن.. ماذا عنها؟ هل تميلُ هي لي؟

لا أستطيع أن أجُزم بذلك، لم أنجذب لها لكي أنسى نورا، لم ولن أنساك يا حبيبتي، الصدفة وحدها أكدت لي أن شيرين كانت تميل ناحيتي.

يومها، كنت محتاجًا بشدة لأن أكون وحيدًا، تجولت في الشوارع بعد العمل وقادتني قدماي للوقوف على كوبري قصر النيل، وقفت أستمتع بالهواء المنعش، ويبدو أنني قد غبتُ عن العالم من حولي لفترة حتى وجدت يدًا تربت على كتفي، التفت للخلف ووجدت شيرين واقفة أمامي تبتسم وتقول:

- سرحان في إيه!

لا أدري كيف أجبتها:

- سرحان فيكي!

زالت الابتسامة من وجهها، وحل محلها علامة تعجب كبيرة، صمتنا، واكتفينا

بنظرات أعين متسائلة قطعتها علينا بائعة ورود لحوح، أخرجتنا من صمتنا فقلنا في نفس الوقت للبائعة:

- شكرًا.

للمرة الثانية لم أصدق نفسي عندما أمسكت يدها وجذبتها وأنا أقول لها:

- تعالي نقعد نتكلم شوية.

هزت رأسها موافقة، وسرنا نتحدث في كلام عام وغير متناسق وكأننا نهرب من أن يقول أحدنا للآخر كلمة واحدة مُبينة للمشاعر، أو أننا نختزنها حتى نجلس في أحد الأماكن للمزيد من الخصوصية.

سرنا متشابكين الأيدي وأنا غير مُصدق، وهي كذلك إذا كان ظني صحيحًا، حتى حل بنا التعب ووصلنا إلى محل جروبي بوسط المدينة، دخلنا وجلسنا، طلبت القهوة كالمعتاد، وطلبت هي مثلها مثل أي فتاة.. شوكولاتة ساخنة.

لا أعلم لماذا تحب الفتيات الشوكولاتة لهذا الحد؟، وصلت المشروبات، غلفنا الصمت ثانية، لكن هذه المرة كانت عيوننا تهرب من اللقاء.

لو نظر أحدٌ إلينا الآن سيظن أننا حبيبان يقتربان من الانفصال بسبب الصمت المطبق علينا، حالتنا كانت مختلفة عن الحال الذي دخلنا به المكان، زاد الصمت عن الحد المسموح به دوليًا، فقررت أن أكسره بالمخالفة للأعراف الدولية للعشاق، إذا كان هناك أعرافٌ دولية للعشَّاق، هممت بأن أتكلم لكني وجدتها تنظر نحوي وتلك الابتسامة التي رأيتها أول مرة عندما تقابلنا قبل قليل، رشفت من كوبها وقالت في توتر:

- أنا معجبة و...

- وإيه!

- بحبك يا فريد!

من فرط السعادة أحسست أني تحوَّلت لشخصية كارتونية، ضربت رأسي في المنضدة عدة مرات، وهي تضحك وتقول:

- بتعمل إيه يا مجنون!

- إيه اللي بعمل إيه! عايزاني أعمل إيه! على رأي محمد منير (عايزاني ليه لما تقوليلي بعشقك ما أصرخش وأملا الكون آهات)

شيرين!

- نعم!

- بحبك!"

❊ ❊ ❊

(18)

علاقة جديدة إذًا قد بدأها مع زوجته السابقة، تقليدية هي هذه العلاقة عندما ترتبط بزميلة في العمل، عندما تتغير من أجل أن تكون هي أول شخص تراه عيناك في مكان عملك.

لاحظت أثناء استماعي تعبيرات وجه فريد المُتأرجحة بين السعادة والحزن، يُخيَّلُ لي أنها تركت فيه أثرًا كبيًرا يستحقُ المقارنة بالأثر الذي تركته فيه نورا أثناء حياتها وبعد مماتها، لست أنا من يستطيع أن يقارن بينهما، فأنا لم أرَ شيرين سوى مرة واحدة، هو الوحيد الذي يستطيع أن يفصل ويقارن بينهما، مَن الأفضل له نورا أم شيرين، وهو أيضًا من يستطيع أن يحدد أثر كل منهما فيه. تساءل المليجي:

- تاني؟

- إيه اللي تاني؟

أجاب فريد السؤال بسؤال مشيراً بيديه لأخيه أي ماذا تقصد، فأكمل المليجي:

- قصدي علاقة جديدة عشان تنسى نورا بعد اللي حصل.

اعتدل فريد في جلسته وقال بجدية:

- نورا مش ممكن أنساها أبدًا، وبدليل إني سميت بنتي على اسمها، وعلى

فكرة أنا حكيت لشيرين عنها وكانت مبسوطة إني صارحتها ومازعلتش، وعلى فكرة شيرين هي اللي صممت تختار اسم نورا.

تعجبت أنا هذه المرة وأنا أقول:

- حكيت لها ومبسوطة إزاي!

- بص، أنا كنت صريح جدًا مع شيرين، وهي كانت كمان صريحة معايا، لما حكت عن ابن خالتها اللي كانت مرتبطة بيه جدًا وطلقها بعد ما سافر عشان يتجوز واحدة أمريكانية عشان الإقامة والجنسية.

- ارتبطت بواحدة مُطلَّقة؟!

- أيوه هي مُطلَّقة بس مادخلش عليها.

- آه، فهمت، وقعدتوا تحبوا في بعض قدّ إيه؟

- شهور وبعد كده اتجوزنا..

سألته مجددًا:

- وانفصلتوا ليه؟

- بصراحة.. خلعتني، قالت في المحكمة إن العيشة ما بينا بقت مستحيلة وإنها خايفة على البنت مني لأني بقيت مختل عقليًا، وأهملتهم وأهملت شغلي وكلام تاني كتير خلاصته إني بقت خطر عليها وعلى البنت.

- خُلع!!

صمتنا لفترة ننظر لبعضنا وكأننا لا نفهم أو كأننا نسمع هذا الكلام لأول مرة، فبالنسبة لي هذه أول مرة، أما هو فغارق فيه حتى أذنيه، فكيف إذًا أصابه العجب مما يقوله.

قطع فريد حبل الصمت وقال:

- كمِّل قراية وانت هتفهم إيه اللي حصل.

لا زال استيعابي للأمر غير مكتمل، أمسك المليجي بالدفتر وعاود القراءة:

"عندما صارحتني شيرين بحبها لي تغيرت حياتي تمامًا، حتمًا لم أرتبط بشيرين لأنسى نورا، لقد صارحتها بعلاقتي مع نورا، لم تغضب وتقبَّلت الأمر وقالت "من حقنا نحب مرة واتنين ومليون، ومش من حقنا ننسى اللي حبيناه في لحظة أو في يوم"، راقت لي حكمتها وفلسفتها.

وصارحتني هي كذلك عندما حكت عن ابن خالتها الذي تزوَّجَته عن حُبٍّ وتركها وسافر وتزوج من سيدة أمريكية طمعًا في الحصول على الإقامة والجنسية وطلَّقَها دون الدخول بها، لم أغضب، وظلت كلماتها باقية في عقلي، وأظنها لن تمحى أبدًا.

ظللنا نلتقي يوميًا بعد العمل، نقتلُ الوقت سويًا، نتبادل فيه الحديث حول حياتنا الآن وفي المستقبل، ويومًا بعد يومٍ ازداد ارتباطنا، حتى قررنا اتخاذ خطوات رسمية، تقدمت لخطبتها، وبعد المفاوضات العقيمة والسقيمة المرتبطة بالزواج تمت خطبتنا في حفل عائلي بسيط.

اتصلتُ قبل حفل الخطوبة بفترة كبيرة بأخي الأصغر لإبلاغه لكي يحضر حفل خطبتي، لكن لم يجب مطلقًا سواء على الهاتف أو الرسائل التي أرسلتها له، يبدو أنه قد مات أو اختفى أو استبدل رقم هاتفه.

أعلنا خطبتنا لزملائنا في العمل، منهم من بارك من قلبه ومنهم من بارك من وراء قلبه مجاملًا، وأظن أن بينهم من كان حاقدًا أو حاسدًا لي أو لها على ارتباطنا.

بعد إنهاء ترتيبات الزواج المعقدة والخلافات الطفيفة التي حدثت بيننا، تزوجنا في حفل بإحدى القاعات جمع العائلتين والأصدقاء والزملاء. وعلى الرغم من عدم اقتناعي بحفلات الزفاف لظني أن بها كمية لا بأس بها من المشاعر المزيفة -

باستثناء الأهل - بالإضافة لتكاليف كبيرة من الممكن استغلالها بصورة أفضل لكني وافقت نزولًا على رغبة شيرين.

سافرنا بعدها إلى لقضاء أسبوعين عسل وليس شهرًا، لأنها كانت المدة الممنوحة لنا من العمل، كانا أسبوعين رائعين، ازددنا فيهما ترابطًا وعشقًا.

مرت الإجازة سريعًا، كعادة الأيام الحلوة، عُدنا مُفلسين بالطبع، لولا أبي وأمي لكدنا نتسول أنا وهي حتى موعد صرف الراتب، عُدنا للعمل نذهب ونعود سويًّا، لكن رئيسنا في العمل منح شيرين إذنًا بالانصراف مبكرًا لأنها أصبحت الآن متزوجة وعليها مسئوليات أخرى غير العمل، شكرناه وتقبَّل هو شُكرَنا بتواضع قلَّما يتواجد.

وفي أحد الأيام كانت شيرين في إجازة من العمل ومقيمة مع والدتها لبعض الوقت "عشان وحشوا بعض"، طلبت منِّي شيرين المجيء لها عند والدتها، ذهبت إليها وبمجرد دخولي أعطتني ورقة مطوية فتحتها وقرأت ما بها.

"أنا حامل" مع صورة مرسومة بيد شيرين لطفل يتوسط الورقة، بمجرد ما قرأتها بكيت ونزلت على الأرض عند قدميها أقبِّل بطنها التي تحمل طفلنا أو طفلتنا المنتظرة، ومثلما الضحك مُعدٍ فالبكاء أيضًا كذلك، بكَت هي الأخرى لبكائي حتى دخلت علينا حماتي لتخرجنا من بكائنا عندما أطلقت زغرودة حوَّلتنا في لحظة إلى ضحك هستيري بعدما كنا نبكي.

لم تقوَ شيرين على العمل، تركت العمل بسبب الحمل، تأثرنَا ماديًا بالطبع، لكن بمساعدة أخرى من رئيسنا في العمل تمَّت زيادة راتبي، أنا عاجزٌ عن شكر هذا الرجل، قدَّمت له هدية فرفضها في أدبٍ، فقررت أن أسمي المولود إذا كان ذَكَرًا على اسمه، فهذا في رأيي أفضل شكر له.

وضعت شيرين طفلتنا، فاجأتني وقتها شيرين عندما قالت لي "سميها نورا"، اختلطت مشاعري بين الحزن والسعادة، قبَّلت رأس شيرين المجهدة وهمست في

أذنها "حمد الله ع السلامة يا أم نورا"، ضحكت بصعوبة وقالت "تتربى في عزك يا أبو نورا".

يصيبني الجنون كلما حملتها بين يدي، أنظر في عينيها فأتذكر نورا، فيمتزج بداخلي البكاء والضحك، هل مشاعري هذه تعتبر خيانة لشيرين؟ أم تخليدًا لذكرى محبوبتي الراحلة؟

أمرٌ مُمتعٌ عندما تجد طفلك أو طفلتك تكبر أمام عينيك، تفرغت أنا للعمل وتفرغت شيرين للمنزل وتنشئة طفلتنا.

ضغوط العمل تتزايد، ومع الرحيل المفاجئ لرئيسي الذي توفى في حادث سيارة، تأثرتُ بشدة لرحيله، ولاحظ الجميع ذلك، وأثناء حصر ما في مكتبه من أوراق وجدت مجموعة من الأوراق موضوعة في ملفٍّ مكتوب عليه اسمي، خبأته في ملابسي، وبعدما خرجت من العمل ذهبت لمقهاي المُفضَّل، وفتحت الملف وقرأت أول ورقة فيه وكانت رسالة موجَّهة لي يُقول فيها:

"ابني العزيز فريد شوقي، عندما التقيتك لأول مرة أحسستُ أنَّك ابني الذي لم يُقدرُ لي أن يوجد، ووجدت فيك رغبة للتعلم والتطور على الرغم من عدم وجود سابق خبرة عملية لديك، ولكني أظنك مُثابرًا، وهذا ما شجعني لأترك لك هذه الأوراق التي تحوي أفكاري وأبحاثي. منذ فترة ليست بالقصيرة وأنا أعمل على تطوير عقارٍ يجعل من يحقن به لا يقول غير الحق، الفكرة قديمة، لكني نجحت في تكوينه وتتبقى بعض خطوات بسيطة، لقد قمت بتصنيع كمية لا بأس بها تكفي لإجراء تجارب للتأكد من فاعليته. عليك فقط أن تكمل الخطوات الأخيرة المتبقية في هذه الأوراق لجعله أكثر فاعلية، ثقتي بك كبيرة جدًّا ولا حدود لها على نجاحك في استكمال فكرتي".

قلَّبت في الصفحات مذهولًا، هذا الرجل عبقري، كيف لم ألاحظ ذلك، وجدت ورقةً في آخر الملف توكيلاً منه لي بالتعامل على كافة ممتلكاته وكان تاريخ التوكيل حديثًا قبل وفاته بيومين، يبدو أنه أحسَّ باقتراب أجله.

ووجدت كذلك عنوانًا لبنك ومفتاحًا صغيرًا اتضح لي أنه لخزينة خاصة، من الممكن أن أجد فيها بعض الأوراق والكميات التي صنعها.

عدتُ للمنزل واستقبلتني شيرين لائمة لعدم ردي على اتصالاتها المتعددة، فسألتني عن السبب فأجبتُها أن وفاة رئيسنا في العمل هي السبب، أصابها الحزن مثلي، ولم أخبرها بما وجدته، ظللت طوال الليل مستيقظًا، جسد نائم ورأس مشغول، ميراث مفاجئ.. لماذا اختارني أنا ليتركه لي؟، لقد أشعل فضولي لما هو قادم."

❊ ❊ ❊

(19)

لا أعلم لماذا يبدو لي أن المليجي يكرهني، منذ أن قابلته وهو يُحدِّق فيّ مُتوجسًا على العكس من أخيه الودود، هل لأني عرفت ما فعله فريد وهو لا يريدني أن أعرف شيئًا؟

ما سمعته من كلام فريد ونتيجة حديثي القصير معه، فأنا أمام عبقري سيء الحظ لا غير، لا يمكن أن يكون غبيًا أو أحمقَ بأي حال من الأحوال، فضولي وحده هو الدافع لبحثي المستمر عنه لأكتشف المزيد من خباياه، رغبت في مساعدته لاجتياز أزمته، لكن عندما استمعت للمليجي وهو يقرأ تيقنتُ تمامًا أن فريد هذا هو دليل عملي للمثل القائل (سبع صنايع والبخت ضايع)، فاستمعت باهتمامٍ بالغٍ لما قرأه ويقرأه المليجي على لسان فريد في الصفحات التالية.

"لم أنَم مطلقًا تلك الليلة منذ أن قرأت تلك الرسالة التي تركها الدكتور سعيد لي بين أوراقه، ظللت أنظر لمفتاح الخزينة والتوكيل العام الذي تركه لي، ما الذي يوجد بتلك الخزانة، الفضول والانتظار يقتلاني ببطء وأنا في انتظار الصباح.

يبدو أني غفوت قليلًا إلا أن بكاء نورا أيقظني من غفوتي، ارتديت ملابسي على عجل، وذهبت للبنك الذي ذكره في خطابه حاملاً حقيبة أهداها لي الدكتور سعيد في عيد ميلادي، دخلت البنك متوجسًا، وصلت دون صعوبة تُذكَر، بعد أن اطلع

مسئولو البنك على الأوراق وتأكدوا من صحتها، صحبَني أحد موظفي البنك إلى مكان الخزينة، خزينة بمفتاحين، أحدهما معي والآخر مع البنك.

فتح الموظف الخزانة بعد أن وضعت مفتاحي ثم أخرج منها خزانة حديدية صغيرة، حملها ودلف بها لغرفة صغيرة تركني فيها بمفردي وخرج منها.

ضربات قلبي تتزايد، ويشغلني تساؤل حول محتويات الخزينة، فتحتها متوترًا، فاحصًا محتوياتها بدقة وشغف، رزم أوراق مالية، وكتيب متوسط الحجم، وزجاجتين بلاستيكيتين صغيرتين تحويان سائلًا شفافًا، ومظروف صغير مكتوب عليه اسمي، رسالة جديدة تركها، فتحت المظروف بشغف مختلط برهبة.

تقول الرسالة: (ولدي العزيز فريد، ها أنت قد وصلت لملخص حياتي العملية، ستجد في الكتيب كل المعلومات التي تحتاجها، الزجاجتان هما كل ما استطعت تخليقه، وهما كمية مناسبة للاختبارات التي ستجريها، ومبلغ بسيط كمكافأة مني لك على مجهودك الذي ستبذله، شكرًا لك مقدمًا وأرجو أن تُحسن استخدام ما في حوزتك الآن).

ران عليَّ صمت مطبق، واحتل الذهول عقلي، أفقت سريعًا، جمعت محتويات الخزينة في حقيبتي وخاصة هاتين الزجاجتين، وخرجت من الغرفة لأجد الموظف في انتظاري، تناولَ الخزينة منيّ وأغلقناها سويًا، ثم خرجت سريعًا من البنك، متجولًا في الشوارع بلا هدف، تتصادم الأفكار والأسئلة في رأسي عما سأفعله مستقبلا بتَرِكة الدكتور سعيد.

أتعبتني قدماي من المشي، فاسترحت على أحد المقاهي وأخرجت الكتيب وبدأت أقرأ صفحاته بهدوء، ولا أعلم كم مرَّ من الوقت وأنا جالسٌ شارد في كل كلمة من كلمات الكتيب، نبهني عامل المقهى عندما طلب سداد ثمن المشروبات التي شربتها لانتهاء الوردية التي يعمل بها.

عدتُ ثانيةً للمشي، حتى أنْهكَت قواي تمامًا، فعدت للمنزل بسرعة فلم أجد شيرين، اتصلت بها فعلمت أن والدتها مريضة وسترافقها لفترة، جلست مُنهكًا على الأريكة وبجواري الحقيبة، أخرجت الزجاجتين ووضعتهما أمامي، وأخرجت الكتيب لأقلب صفحاته سريعًا حتى توقفت عند صفحة مكتوب فيها أن أثر العقار يبدأ خلال دقيقتين ويزول أثره بعد ساعة.

هبَّت في رأسي فكرة، سأكون أنا أوَّل تجربة، قمت سريعًا نحو مكتبي وأخرجت كاميرا فيديو أهداها لي أيضًا الدكتور سعيد الذي يبدو أنه كان يُعدُّني لهذه التجربة، أعددتها ثم وضعتها على المنضدة الموضوعة أمام الأريكة، ثم أحضرت محقنًا وسحبت الجرعة المذكورة بالكتيب وحقنت بها نفسي، وأخرجت ورقة مطوية من الكتيب بها سؤالٌ واحدٌ (قُل ما يخطر ببالك دون كذب).

أرحت جسدي على الأريكة وشعرت بجسدي يسترخي أكثر، وسألت نفسي السؤال المكتوب، ثم أغمضت عيني.

وعندما أعدت مشاهدة التسجيل رأيتُ نفسي جالسًا على الأريكة أحقن نفسي بذلك العقار ووجدتني وقد أغمضت عيني وأرجعت رأسي للخلف، ظللت على هذه الوضعية ربما لدقيقة ثم اعتدلت فجأة وابتسمت، رأيت نفسي وقد أمسكت تلك الورقة المكتوب فيها قُل ما يخطر ببالك ولا تكذب، قلبتها فوجدت مجموعة من الأسئلة، سألت نفسي أول الأسئلة المكتوبة وكان السؤال الأول يقول: "هل تحب أسرتك حقًّا؟"

الأمر معقد جدًا، أعشق أمي حتى النخاع فهي طيبة جدًا، بشوشة دائمًا على الرغم من لمسة الحزن التي أراها في عينيها بين الحين والحين، النموذج المثالي لربَّة المنزل التي تتلخص حياتها في بيتها وزوجها وأبنائها، كانت لي خير سند في أزماتي الكثيرة، تأثرت كثيراً لرحيلها بعد رحيل أبي.

أبي، أعشقه وخصوصًا عندما كان يحتضنني وأنا صغير وهو عائد من العمل، أفتقد أحضانه تلك بشدة، هو الأب المكافح الذي لا يتوانى عن فعل أي شيءٍ لإسعاد أسرته، هو مثل أمي؛ نموذج مثالي لما يجب أن يكون عليه رب المنزل، زوجٌ رحيمٌ وودودٌ مع زوجته وأبنائه، لكنه مُحِبٌّ للسينما وكانت أمي كذلك، عشقه لفريد شوقي جعله يسميني على اسمه، وكذلك أسمى أخي اسمًا سينمائيًا هو الآخر، أسماه محمود المليجي، بالمخالفة لرغبة والدتي التي أرادت أن تسميه أحمد رمزي.

محمود المليجي، أخي الصغير، فارق السن بيننا ليس بالكبير، ثلاث سنوات تقريبًا، تصادقنا، صغارًا وكبارًا، لكنه اختار طريق السفر والهجرة حتى انقطعت أخباره، وحاولت التواصل معه لأخبره بميعاد خطوبتي وزواجي ووفاة والدينا فلم أستطع التواصل معه، هو شخصية طيبة جدًا على الرغم من الهالة التي يصنعها لنفسه بأنه قوي وشجاع وذكي، لكنه ضعيف جدًّا وهَشْ جدًّا من الداخل.

وكان السؤال الثاني معذِّبًا لي بشدة، فالسؤال يقول: "هل أحببت من قبل؟".

دون تردد وجدتني أقول نعم بكل ما أوتيت من قوة، وقد كست علامات السعادة قسمات وجهي، والدموع تساقطت من عيني.

نظرت للسؤال الثالث، طُلِبَ منِّي أن أحدد مَن أحب، في الحقيقة.. السؤال صعب جدًّا، فهل أتحدث عن نورا أم شيرين، الاثنتان تملأن قلبي وعقلي، والاختيار بينهما صعبٌ، فلكل منهما شخصيتها المستقلة وأسلوبها، جذبتني نورا برِقّتها وعفويتها، وأسرَتْني شيرين بشخصيتها القوية من الخارج والرقيقة من الداخل، لا، لا أستطيع الاختيار بينهما، أحبهما معًا.

أما السؤال الأخير، أحسستُ أنه موجه لي شخصيا من الدكتور سعيد، الذي يُصِرُّ أن يُبهرني حتى بعد وفاته، هل ستكمل مسيرتي؟، أجبت بنعم على الفور، ووجدت على وجهي علامات الارتياح والهدوء والراحة النفسية.

أحسست باستفاقة غريبة، ولما نظرت في الأوراق والساعة اللذين أمامي أدركت أن مفعول العقار قد زال، وقررت فعلاً أن أكمل مسيرة أبي الروحي الدكتور سعيد، وقررت كذلك أن أجري تجربة عملية أخرى على ذلك الأحمق الغائب منذ سنوات بمجرد أن تتاح لي الفرصة.

***

هبَّ المليجي غاضبًا بعد أن قرأ السطر الأخير مما كتبه أخوه وهو يقول إنه سيقوم بتجربة العقار عليه وواصفًا إياه بالأحمق، ثم قال:

- عايز تجربه عليَّا يا بغل!

لم يتمالك فريد نفسه من الضحك من الطريقة العصبية التي يتحدث بها أخوه، قابل ثورة أخوه ببرودٍ، ظلَّ جالسًا ينظر لأخيه المنفعل والذي أطلق العنان لقاموس السباب والشتائم ليُخرج ما في محتوياته، لاعنًا فريد في كل جملة ينطقها.

نَقْلتُ بصري بين الاثنين، كانا في صورة مضحكة بالفعل، ولولا التوتر الواضح بينهما لضحكت لكني تمالكت أعصابي خشية ازدياد التوتر بينهما.

ظلَّ فريد يضحك، لكنه هبَّ واقفًا هو الآخر، ثمَّ لكمَ المليجي في وجهه فأسقطه على الأرض، ثم ألقى بجسده السمين عليه ولا يزال يضحك، تأوَّه المليجي من الثِّقَل الذي ألقى عليه، تعاطفت مع المليجي في هذه اللحظة.

أظن أنَّ الاثنين مختلان عقليًا، الأول يبكي ويتألم ويكيل الشتائم، والثاني يضحك بهيسترية ويزيد من الضغط بجسده الثقيل على الأول.

تدخلت رأفة بحال المليجي، أمسكت فريد وحاولت إزاحته فلم أستطع، لكن ذراعي المليجي كانتا حرتين فجذبته بصعوبة منهما من أسفل أخيه، ونجحت في الفصل بينهما.

بلغ الإنهاك بفريد منتهاه، ساعدتُه على النهوض، فقام بصعوبة يتنفس بصعوبة ولا زال يضحك، أما المليجي فجلس على مقعد بعيد عنا متألمًا وقد احمرَّ وجهه ودمعت عيناه ويتنفس هو الآخر بصعوبة.

وقفت بينهما تحسُّبًا لأي شجارٍ جديدٍ من الممكن أن يحدث، بدأ الهدوء يُعم المكان، ثم جلست بينهما متوسطًا المسافة بينهما، أنظر للاثنين وأضحك بداخلي، لا أريد مزيدًا من العراك، أريد فقط أن أحقِّق هدفي، فقلت محاولاً تلطيف الأجواء:

- إيه رأيكم ناكل حاجة حلوة، أنا عازمكم؟

يبدو أنني ضغطت على الزر الصحيح، فقال المليجي:

- آيس كريم.

ردَّ عليه فريد بصوتٍ عالٍ:

- عيِّل تعبان، آيس كريم إيه!، روح هات شوية شرقي وتعالي!

وقفت وأنا أقول:

- أنا هنزل أجيب، بس اوصفلي حد كويس يكون قريب من هنا.

أشار فريد لي بالجلوس فجلست، ثم نظرت له محاولاً فهمه، فقال:

- الزِّفر هينزل يجيب، هو عارف هيجيب من منين.

نظرت للمليجي متسائلًا، هزَّ رأسه بالإيجاب فقام والألم ما زال مؤثرًا فيه، وتقدم نحوي وقال:

- وانت مالكش نِفس في حاجة معينة؟

ضحكت، ثم أخرجت النقود من جيبي، أعطيتُها له ثم قلت:

- روقنا بقي!

لم يستسغ الدعابة، ثم مرَّ من أمام أخيه ينظران لبعضهما ويتمتم كل منهما بكلمات لم أتبينها.

خرج المليجي من الشقة، فقمت على الفور للجلوس بجانب فريد وربت على فخذه السمين عدة مرات ثم قلت:

- بقولك إيه، أنا عاوز التركيبة اللي انت عملتها.

مال برأسه ناحيتي، ثم قال:

- هتجرَّب على مين!

- على عيلتي كلها!

- إنت شاكك فيهم؟

- أيوه ولا..

- إزاي دي؟!

تنهدت، وأشعلت سيجارة وناولته واحدة وأشعلتها له، ثم وقفت وتجولت في المكان الذي نجلس فيه:

- بص، أنا حاسس إنهم مخبيين حاجات خصوصًا والدي، الباقي عادي ممكن يكونوا كويسين وممكن لا!

- مش هتزعل لو عرفت عنهم حاجة مش كويسة!

- مش عارف..

إنت هتجرب على كام واحد؟!

- ستة..

تعجَّب فريد وقال:

- ستة كتير، مين دول؟

- عِدّ معايا، والدي ووالدتي وأختي وخطيبها ومراتي وصاحبي عصام، وممكن يزيدوا.

- مرة ثانية بقولك مش هتزعل لما تعرف الحقيقة؟! سيبك من الأسئلة اللي كانت في ورقة التجربة، الكلام هيختلف المرة دي..

هززت رأسي نافيًا، فقام فريد مستندًا عليَّ وتوجه نحو الدولاب، أخرج منه علبة خشبية متوسطة الحجم تشبه الشكمجية، جلس ووقفت أتابعه، وجدته يسحب سائلاً شفافًا من زجاجة كبيرة ويوزعها في عبوات بلاستيكية صغيرة شبيه بتلك التي تُستخدَم في معامل التحاليل.

وضعها في علبة وقدَّمها لي، أمسكتها منه وهو يقول لي:

- مش لازم يتحقن، ممكن تحطها في عصير أو قهوة، المهم حاجة بتتشرب عشان تبقى سهلة الهضم والامتصاص، المفعول هيبدأ بعد نُص ساعة، طبعًا الحَقن هيبقى أسرع، بس ما أظنش إن حد هيوافق تتحقن بعقار الحقيقة، وخلي بالك من حاجة؛ المفعول ساعة واحدة بس، أول ما تلاقيه ابتدا يرجع لوعيه توقف أسئلة على طول ولو حابب تجرب حاجة زيادة بعد كده ممكن بس مش على طول.

- كام واحدة دول؟

- عشر جرعات..

- مش كتير؟!

ضحك وقال:

- يمكن يطلع حد زيادة تحب تجرب عليه، ودي نسخة أنا طورتها بعد شغل دكتور سعيد.. عبقري بقى.. نعمل إيه؟

ضحكنا وخرجنا من الغرفة، وبمجرد جلسونا في الصالة، سمعنا الباب يُفتَح وكان المليجي، دخل محمَّلاً بأكياس وعلبًا قمت فحملت عنه بعضًا منها، ووضعتها على السفرة.

نظر لي شزرًا، ودلف ناحية المطبخ، غاب لبرهة، ثم عاد حاملاً أطباقًا وملاعق ووضعها أمامنا وبدأ يوزع محتويات العلب، جلسنا جميعًا نأكل في صمتٍ، وأختلس النظرات نحوهما، وأكاد أن أجزم أنهما سيتشبكان مُجددًا.

أنهيت طبقي سريعًا، وقمت وألقيت التحية على الاثنين، واتجهت نحو الباب وجاء خلفي فريد مودعًا، ثم همس قائلًا:

- خلي بالك من الحاجة اللي معاك، وبلاش تجرب عشان...

- طبعًا، سلام.

قلتها ولم أمهلهُ الفرصة ليكمل النصيحة، أغلقت الباب خلفي، فعدت نحو الباب متلصصًا وسمعتهما يتعاركان.

❊ ❊ ❊

(20)

- الزفت ده دايمًا يجي متأخر كل مرة.

قالها حامد متأففًا من طول الانتظار، ظلَّ منتظرًا قُرابة الساعة، اتصالات تليفونية عديدة لكن دون جدوى. فالهاتف المطلوب مغلق أو خارج نطاق الخدمة.

ربتت يدٌ على كتف حامد من خلفه فالتفَّ على الفور ليجده واقفًا أمامه يبتسم ابتسامته الرائعة تلك وممسكًا بكوب آيس كريم، ظهر الضيق في رد فعل حامد عندما قال:

- جرى إيه يا عصام، هو انت هتفضل طول عمرك كده؟

لم يرد عصام واكتفي بالإبقاء على ابتسامته ونظراته الضاحكة، ثم أمسك حامد من ياقة قميصه وجذبه نحوه ثم قبَّل وجنتيه، وقال:

- معلش يا حبيبي، كنت مشغول شوية عنك.

نظر له حامد نظرة لوم وعتاب، ثم قال:

- نسوان برضو؟

- طبعًا هو أنا ورايا غيرهم.

لم يرد حامد وظل محدقًا في وجه عصام الذي قال هامسًا بنبرة ساخرة:

- ماوحَشِتَكْش أيام زمان.

ضحك حامد مرجعًا رأسه للخلف وهو يقول:

- إنت لسه فاكر.

- هممممم.

- ماشي يا أخويا.

تجول الاثنان في المركز التجاري، لم يفهم عصام لماذا طلب حامد لقاءه، صحيح أنهما لم يلتقيا منذ فترة، وأثناء سيرهما يتوقف حامد باستمرار في المحلات التي تبيع الأجهزة الإلكترونية، زاد من تساؤل عصام لمعرفة السبب وراء هذا اللقاء.

- بقولك إيه حامد، في حتة جديدة إنما إيه صاروخ عابر للقارات، ما تبقى تيجي في مرة، هتعجبك أوي؟

- لا.

قالها حامد بصرامة، ثم أكمل:

- ما تسيبك من الحوار اللي مالوش لازمة ده؟

ضحك عصام وهو يقول:

- شوف مين اللي بيتكلم، بذمتك مش نفسك نرجع زي زمان.

وكأن حامد لم يسمعه، أكمل طريقه وتوقف أمام محل لبيع معدات التصوير، وأشار لعصام ليتبعه، جاء عصام على مضض وهو يقول:

- إبقى فكِّر..

دخل حامد المحل ووراءه عصام، توجَّه حامد على البائع، حيَّاه ثم قال:

- كنت عاوز كاميرا بروفيشنال وكاميرا فيديو قوية وحامل وجميع المستلزمات المطلوبة للتصوير.

رحَّب البائع بحامد وتجوَّل معه في المحل شارحًا له الإمكانيات والأسعار،

حامد مُهتمٌّ ومنصتٌ لكلام البائع، بينما عصام يتابعه متعجبًا من اهتمامه بموضوع التصوير.

- عصام.. عصام.

صاح حامد في صديقه الذي شرد، التفت له عصام وقال:

- أيوه يا برنجي.

- تعالى شيل معايا.

هرول عصام ناحية حامد الذي اشترى ما يلزمه، ساعده في حمل مشترياته وخرجوا من المحل.

- إنت من إمتى مهتم بموضوع التصوير؟

- أنا قُلت حاجة جديدة، أشغل بيها وقتي.

ردَّ عصام متهكمًا:

- تشغِل بيها وقتك؟ ماتخلينيش أقولك كلمة وحشة، ما أنا عارف اللي فيها وانت عارف اللي فيها، إحنا هنشتغل بعض!

- جرى إيه يا عمرو، إنت سانن سنانك عليَّ ليه!

- عمرو، بقى أنا مارضِتش أقولهالك تقوم تقولهالي انت، يا عمرو.

ضرب الملل حامد من سفاهة صديقه، وقال:

- تعالى وصَّلني لحد العربية وغور بعد كده.

ضحكَ عصام وقال:

- إنتي قفشتي يا كتكوتة، بهزر معاك يا قفل.

- عيّل تنح.

خرجا من المول، يضحكان، تذكَّرا الأيام الخوالي عندما كانا لا يفترقان أبدًا إلا ليذهب كُلٌّ منهما لبيته، وتذكَّرا كم من النسوة والفتيات اللواتي عرفوهن.

- إنت اللي تُبت واتجوزت بسرعة.

ضحك حامد وقال:

- تُبت، حلوة تُبت دي!

وصلا سيارة حامد، فقال عصام:

- أوباااا، حتة رانج روفر، جبتها إمتى يا عمرو.

صك حامد عصام على قفاه، وهو يقول:

- عمرو تاني، يا عمرو.

- خلاص يا مادا خِف إيدك، أنا قفايا ده مربيه على الغالي.

- طبعًا متربي على الغالي، من كُتر ما اتسكيت عليه.

وضع عصام ما يحمله في حقيبة السيارة ثم وضع حامد ما يحمله وأغلق حقيبة السيارة، وقال:

- إنت راكن فين؟

أشار عصام بعيدًا، فقال حامد:

- مع نفسك، سلام.

ركب حامد سيارته وأدار محركها، ثم فتح النافذة وقال:

- لو في حاجة جت قدامك، إبقى لاغيني.

أشار عصام بيديه بعلامة الجودة وقال:

- هو ده حامد العمرو اللي أنا عارفه.

بصقَ حامد على صديقه، وتحرك بسيارته خارج ساحة الانتظار، وانطلق بأقصى

سرعة ممكنة كي لا يعرف عصام وجهته، وعندما تأكد من الابتعاد، غيَّر طريقه حتى وصل إلى طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوي، توقف للتزود بالوقود ولشراء ما يستلزمه الطريق من أغراض.

تحرك عبر البوابات وظلَّ يسير بسيارته، ثم انحرف في الطريق المؤدي للساحل الشمالي. توقَّفَ قليلاً، وأدارَ المسجل فانبعثت منه موسيقى كلاسيكية هادئة وناعمة، ثم أخرج هاتفه المحمول وثبَّتَه على الحامل الملتصق بالزجاج الأمامي بصورة مائلة، عبث بالهاتف ليبدأ تشغيل مسجل الفيديو، اعتدل في جلسته وعدلَ من هندامه، وصوت الموسيقى يرتفع تدريجيًا، نظر ناحية الهاتف وقال:

- الآن نبدأ الرحلة.

جذب حامد الدرج المخفي تحت كرسيه وأخرج منه عبوة تحتوي على عبوات صغيرة بها سائل شفاف، حصر عددهم فكان العدد مطابقًا للذي استلمه من فريد شوقي.

انطلق بالسيارة مستكملًا رحلته، اشتعل ذهنه من التفكير بالقادم، تحدث بصوت عالٍ:

"أبتدي بمين، الليستة طويلة، عصام.. لا، عصام ده مِسْك الختام بالنسبة لي، تبتدي بمين يا حامد؟"

أكمل طريقه وفِكرُه مشغول، أصدر هاتفه رنينًا قصيراً معلِنًا عن رسالة من رحمة، فتح الرسالة وقرأ الكلمة الوحيدة المكتوبة فيها:

- وحشتني..

قال حامد بحزمٍ وهو ينظر للهاتف:

- التجربة الأولى: رحمة.. زوجتي.

❊ ❊ ❊

(21)

صرخ محمود المليجي في ألمٍ بعدما أسقطه فريد أرضًا ثم ألقى بجسده البدين عليه، نشب شجارٌ عنيفٌ بينهما بعد رحيل حامد، انسحق جسد المليجي مع الوزن الكبير المُلقَى عليه، صرخ عدة مرات بسبب اللكمات التي كالها فريد له، تحدَّث المليجي بصعوبة وقال:

- إنت ليه حكيتله على كل حاجة، إنت مش خايف يبلِّغ عنك؟

لكمة جديدة من فريد جعلت أنف المليجي ينزف، ثم قال وهو يعاني من صعوبة في التنفس:

- مالكش دعوة، هو مش عارف إيه اللي هيحصلُّه من الحاجة اللي هيجربها، أنا خدت مبلغ حلو يا طور هيعوضني عن اللي شُفته.

- فلوس إيه يا عجل، يا طفس، إنت فعلاً اتجننت.

ظهرت علامات الغضب على وجه فريد فوجَّه لكمة جديدة زادت من النزيف المستمر من أنف المليجي، صرخ بشدة فكال له فريد لكمة أخرى أخرسته وجعلته يبكي في ألمٍ مكتومٍ.

- الفلوس أهم حاجة يا غبي أنا محتاجها، أنا مش لاقي شغل، وبعدين ما انت ليك نصيب فيها يا زفر.

لم يقوَ المليجي على الرد، ونظر لفريد بعينين زائغتين لا يكاد يفتحهما، فأضاف فريد:

- وبعدين هو اللي هيحتاجلنا وهيدفع فلوس من غير ما نطلب منه، وهيجي يحكي لنا على اللي حصل من غير ما نطلب، وبكرة تشوف.

فصلَ فريد جسده عن جسد أخيه الذي كاد أن يتهشم منذ لحظات. حرَّك المليجي جسده بصعوبة وقد أغرقت الدماء وجهه وقميصه ولا زال هناك خط من الدم يسيل من أنفه، بصق المليجي على الأرض ليخرج من فمه الدم المختلط بلعابه، اعتدل بصعوبة والألم طافح من عينيه، أحس بعظامه قد تهشمت، أسند ظهره إلى جانب الأريكة وقال بأنفاس متقطعة:

- ليه جربته عليك؟

أجاب فريد في هدوءٍ:

- كنت عاوز أجرَّب تأثيره، والنتيجة كانت مذهلة، أنا عبقري فعلًا بس مفيش حظ.

- عبقري مجنون ومتخلف وطفس.

خرجت الكلمات من فم المليجي ليجد نفسه ملقى على الأرض مُجدَّدًا بفعل ركلة قوية سددها فريد في بطنه، لتتدفق الدماء مجددًا ويزداد صراخه، لم يلقِ فريد بجسده عليه، لكنه ركله في بطنه ووجهه ثم داس على وجه أخيه بقدمه السمينة القذرة، وقال بصوت هادر:

- عبقري مجنون ممكن، لكن متخلف وطفس لا يا روح أمك.

ثم عاود فريد تسديد الركلات في جسده أخيه الواهن وفي مختلف أنحاء

جسده، والأخير يصرخ طالبًا الرحمة أو النجدة، لا يهمه أيهما يأتي أولًا، سيكون حينها شاكرًا للنعمة ومقبِّلًا ليد وقدم من ينقذه من عته أخيه الأكبر.

***

وصل حامد للفيلا التي اشتراها أيضا خلسة في نفس توقيت شراءه لشقة الزمالك، ولنفس الغرض، للترفيه والنزوات والعلاقات العابرة، كان من الممكن أن يختار أحد الأماكن التي يمتلكها هو أو أسرته، لكن تقديره لحساسية وخطورة ما ينوي فعله حسم قرار اختياره لهذه المكان.

الفيلا أشبه بقصر أسطوري، غرف متعددة وتجهيزات فاخرة تدل على ثراء فاحش وذوق رفيع، الاهتمام بالتكنولوجيا المنتشرة في أرجاء المكان واضح، بداية من البوابة الرئيسية الإلكترونية إلى الباب الداخلي الذي يعمل ببصمة اليد وكاميرات المراقبة المنتشرة وكاميرات مخصصة للرؤية الليلية وأجهزة استشعار الحرارة، أشبه بقصر منيع أو مقر لجهة أمنية، لا يوجد حارس واحد هناك فالمكان مؤمَّن بشكل كامل.

هبط حامد من السيارة بعد أن قادها إلى مرآب يقود مباشرة لداخل القصر، ثم قام ببعض التمارين الرياضية لتنشيط جسده بعد فترة طويلة من القيادة، فتح حقيبة السيارة وأفرغ محتوياتها بعناية وحملها إلى البهو الرئيسي الفخم، الذي يمتلئ بالعديد من اللوحات والمجسمات والزخارف، يستقر بمنتصف البهو تمثالٌ من البازلت الأسود يقترب طوله من المترين، لسيدة تُمسِك في يدها اليمنى سيفًا كبيرًا، وفي اليسرى درعًا سُداسيَّ الشكل منقوشٌ عليه ثعبان ضخم رأسه تستقبل الناظر إليه بأنياب مُخيفة، دلف غرفة المكتب الكبيرة وتوجه للخزانة الكبيرة المستقرة في الحائط خلف المكتب الضخم، وضع يده اليمنى بالكامل على ماسح ضوئي مثبت بباب الخزانة، فُتحت الخزانة، وكانت فارغة، وضع فيها علبته الثمينة التي تحوي

العقار ثم أغلقها، ثم وضع معدات التصوير في الدولاب الملتصق بالحائط بجوار المكتب، ثم جلس إلى المكتب ليستريح.

أشعل حامد سيجارًا من علبة ذهبية على المكتب، ثم سحب قلمًا فخمًا وورقة وبدأ يخُط فيها كلمات وهو يقول ما يكتبه بصوت عالٍ:

"لكُلٍّ منَّا أسرارٌ يُبقيها في ركن مظلم سحيق بداخله، لا يعلمها أحدٌ إلا الله، يُبقيها مدفونة، له هو وحده، يَتذكَّرُها الواحدُ منا عندما تقرر هي الظهور أمامه أو يقرر هو تذكُّرَها ليُذكِّر نفسه بما حدثَ، أشكُّ في الجميع بلا استثناء، حتى أنا.

لطالما تخيلتُ ماذا يُمكن أن يحدُثَ عندما تعرفُ أدقّ الأسرار عمَّن حولك، أسرتك.. أصدقائك.. زملائك، كان الأمر مجرد خيال أتمنى حُدوثَه، لكن عندما قادتني الصدفة للتعرف عن قُرب إلى فريد شوقي وتفحصت أوراقه التي وجدتها في ملابسه الرثة بعدما رقد في المستشفى لفترة، اكتشفت أنني أمام ما كنتُ أظنه مختلًا، لكن ما سمعته وشاهدته، تأكدَ لي أنه ليس مختلًا بالتأكيد، أنا أمام عبقري غير محظوظ. وعلى الرغم من الخيال الذي تبادر لذهني عندما سمعت وقرأت أنه استطاع اكتشاف عقار الحقيقة الذي كنت أراه في أفلام الحركة، حين يتم حقن أحد الأشخاص بهذا العقار فيستخرج منه المحققون ما يريدون معرفته دون عناء منهم أو إنكار أو كذب من المُحقق معه.

وعندما قال لي فريد إنه قد جرَّب العقار على نفسه، أحسست بصدقه واقتناعه بما ابتكره، وبعدما حصلت على كمية تكفي لتجربة هذا الاختراع أو الابتكار - لا أدري أهو اختراع أم ابتكار - قررت أن أتأكد من شكوكي فيمن أعرفهم، فتركت الأمر يسير وِفقًا للأقدار، واختارت الأقدار زوجتي رحمة لتكون أوَّل من سأكتشف ما تخبئه في قلبها.

لكل اسم في قائمة شكوكي، مكان مميز سيتم تسجيل اعترافاته فيها، فاخترت غرفة المكتب التي أجلس فيها الآن لتسجيل اعترافات أبي. أما والدتي وأختي فاخترت لهما غرفة المعيشة، أما زوجتي ففي غرفة النوم ستقول كل الحقائق، عصام سيدلو بدلوه في غرفة المكتب مثله مثل زياد خطيب ريهام، لا، سأضع عصام في ذيل القائمة، وبما أن الأقدار قد اختارت رحمة لتكون أول التجارب، فلتكن إذًا أولى التجارب على رحمة. وفي الحقيقة أنا لا أشعر بأي ذنبٍ تجاه ما سأفعله".

توقف حامد عن الكتابة ثم سحب نفسًا من السيجار ونفث دخانه في سماء الغرفة فكوَّنَ الدخان سحابة بيضاء كثيفة وداكنة، نظر لها حامد باستغراب، نحَّى السيجار جانبًا، وقلبَ الورقة التي يكتب فيها، وبدأ يرسم خطوطًا تجمَّعَت في شكل جدول، عنوَنَهُ باسمِ (قائمة الشكوك)، وبدأ يخُطُّ رسوماتٍ غَيرِ مفهومة وخطوط متداخلة أعلى الجدول، ثم توقف عما يفعله عندما اهتز هاتفه الصامت معلِنًا عن تلقيه اتصالًا من والدته، ألقى القلم، وأجاب:

- أيوه يا ماما.

- كويس إنك عارف إن ليك واحدة اسمها ماما.

قالتها أمه بنبرة لائمة ساخرة، فقال حامد:

- أنا آسف يا ست الكل، الشغل مبهدلني.

- أنا مخلِّفة عيل جاحد.

- أنا آسف يا ماما.

استمرت أمه في الرد بنفس الأسلوب:

- إنت آسف يا ماما، ده اللي إنت فالح فيه، إنت فين؟

- موجود.

- موجود فين يا هباب البرك، ما تيجي تشوف مراتك اللي نِفسها تشوفك بقالها كتير وأختك اللي اتفسخت خطوبتها، وعيالك، ولَّا ناسي إن عندك عيال.

- لا مش ناسي، وريهام اتفسخت خطوبتها ليه؟ ده الاثنين كانوا لايقين على بعض.

- أهو اللي حصل، اتخانقت هي وزياد ومش عارفة السبب، سيبك من أختك دلوقت، المهم مراتك وعيالك.

- مالهم؟

صرخت فايزة وهي تقول:

- مالهم إيه يا ابن الكلب، البت متشحتفة عليك، وعيالك عاوزين يشوفوك.

ردَّ حامد متصنعًا الملل:

- ماشي، طيب، ده حتى رحمة لسه بعتالي رسالة من كام ساعة.

- أهو يا زفت البت مشتاقة لك، كتبتلك إيه؟

- وحشتِني.

- طيب يا نيلة، تقفل وتكلم البت على طول، سلام.

أنهت المكالمة دون أن تنتظر ردًا من ابنها، الذي ألقي الهاتف على المكتب ودخل في نوبة ضحك هستيرية حتى دمعت عيناه وسعل من كثرة الضحك:

- رحمة مصممة تبقى الأولى.

أكمل ضحكه، ثم عاد وأمسك بالهاتف مرة أخرى، وطلب رقم زوجته التي يبدو أنها كانت مستعدةً لمكالمة محتملة من زوجها فقالت بصوت مملؤة بالأنوثة والدلال واللوم:

- وحشتني أوي يا حبيبي.

أكمل حامد مسلسل التصنع وهو يجيبها:

- وانت كمان وحشتيني.

- وحشتك، طب اسأل عليَّا لو وحشاك بجد.

- خلاص بقى يا رحمة، أنا عارف إني مقصَّر معاكي، بس انتي عارفة الشغل وظروفه.

تنهدت رحمة ثم قالت:

- ماتتحججش بالشغل، أنا بقيت مش مهمة بالنسبة لك.

- أرجوكي يا رحمة ماتقوليش كده.

- أومال أقول إيه؟

- ماتقوليش حاجة، أنا اللي هقول، أنا آسف لو ضايقتك أو أهملتك في يوم، أنا اتغيرت خلاص وهتتأكدي بنفسك.

- إزاي يا حامد؟

- جهزي نفسك عشان هنسافر نغيَّر جو، ونجدد اللي فات.

ظهرت اللهفة في صوت رحمة وهي تقول:

- بجد!!، إمتى؟

- جهزي نفسك بعد بكرة ومش هنرجع غير لما نزهق من بعض.

ضحكت رحمة بصفاء، وقالت:

- أنا مش ممكن أزهق منك أبدًا.

- ولا أنا.

توقفا عن الكلام، وكأن كُلًّا منهما ينتظر الثاني ليبدأ، أخذت رحمة بزمام المبادرة وقالت:

- أنا مستنية، هتيجي إمتى؟

ردَّ حامد بحماس:

- النهارده الثلاثاء هكون عندك الخميس الصبح وهنسافر بالليل.

- ماقُلتليش هنسافر فين؟

- الساحل الشمالي.

- ماشي يا حبيبي، أي مكان تختاره هيكون معاك جنة.

- أحلام مولاتي أوامر، تصبحي على خير يا حبيبتي.

- وانت من أهله.

أنهى حامد المكالمة بقبلات عبر الأثير، اخترقت أذُن وقلب وعقل رحمة المذهولة من ذلك التغيير المفاجئ لزوجها، نحى حامد الهاتف جانبًا ودخل في نوبة ضحك جديدة هستيرية مجنونة، ثم قام وخرج من غرفة المكتب حاملاً حقيبة رياضية وصعد السلم متجهًا للدور العلوي الذي لا يقل فخامة عن نظيره السفلي، دخل غرفة ذات بابين، فتحهما عن مصراعيهما فظهرت غرفة نوم ملكية الطراز. توقف وجال ببصره في أنحاء الغرفة، ثم قال ساخرًا:

"صاحب الفيلا دي دماغه متكلفة أوي".

خلع ملابسه ثم ارتدى ملابس خفيفة للنوم، ألقى بجسده على السرير وحدق في السقف، وبدأ يضحك بسخرية مجددًا وهو يعيد كلام رحمة:

"أي مكان تختاره هيكون معاك جنة، طيبة انتي أوي يا رحمة، بس يا ترى مخبية عني إيه".

***

ظهر أثرُ الغياب الطويل على الأطفال لدى رؤيتهم لأبيهم وهو يدخل عليهم وهم يلعبون في الحديقة في يومٍ مُشمسٍ معتدلٍ، حاملًا لُعبًا وحقائب مليئة بهدايا تليق بغيابٍ طويلٍ، صرخة الفرح التي خرجت منهما عبَّرت عن الاشتياق الكبير لرؤية أبيهم، تركوا ما بأيديهم من لُعب وهرولوا نحوه تكسوهم تلك الابتسامة الطفولية التي يصعب تفسيرها، وضع حامد ما يحمله وانطلق نحوهم بكل قوة، وعندما وصل إليهم احتضنهم واحتضنوه بقوة والتأثر واضح عليه مثلهم وأكثر منهم، نعم هو يشتاق لهم، يعلم ذلك في قرارة نفسه، يعلم أنه مقصر في حقهم وحق الجميع، دومًا يتحجج بالعمل وضغوطه، لكنه يعلم أيضًا أنها حججًا واهية.

جذبت أصوات الصراخ والضحك مَن بداخل الفيلا فخرجوا متسائلين عن سبب تلك الجلبة، خرجت رحمة وفايزة وريهام وسمية بعدما كُنَّ جالسات يتناولنَ طعام الإفطار، وما إن رأت رحمة ما يحدث أمامها لم تتمالك نفسها ولم تبالِ بأحد، تخلصت من خجلها، قطعت المسافة الطويلة بين مدخل الفيلا والحديقة، ركضت بطفولية أكثر من أطفالها، كانت مثل أطفالها تشتاق لزوجها بل وأكثر، شوق ممزوج بخوف، خليط عجيب جعلها لا تدرك شيئًا، أهي تحبه أم هي نادمة على أنها السبب في إهمال زوجها لها، أتفعل ذلك حرصًا على بقاء أسرتها وأطفالها، أم خائفة من حصولها على لقب مطلقة؟؟ لا تدري.

ألقت بنفسها في أحضانه باكية، ظهر التأثر على وجه حامد وهو يحتضنها ويقبِّلها في جبهتها وبدأ يبكي، وأثناء ذلك وقفت فايزة وريهام وسمية ينظرن لما يحدث بإشفاق.

تأبطت رحمة ذراع حامد الأيمن وهي لا زالت تحتضنه، وحمل ياسر الصغير على ذراعه الأخرى، أما منار فعادت بسرعة حيث تنتظر عمتها وجدتها قائلة في فرحٍ وهي تقفز في أحضان جدتها الباكية وعمتها الباسمة من الفرح:

- بابا جيه يا تيتة.

ومثلما ظهر تأثير الغياب على زوجته وأطفاله، ظهر كذلك على أمه وأخته، احتضن حامد أمه وأخته وهو يبكي بشدة احمرت مقلتاه بفعل البكاء، شعور حقيقي غير زائفٍ هذه المرة، لمح في عينيّ ريهام مسحة حزن، هذه ليست ريهام التي يعرفها، ريهام التي كانت تملأ الدنيا صخبًا ومرحًا صامتة، جامدة، شاردة، لعل السبب انتهاء علاقتها بزياد، قبَّل يد ورأس والدته قائلًا:

- أنا آسف.

ربتت فايزة على كتفه ورأسه، ثم أمسكت أذنه اليسرى وشدتها بقوة وهي تقول:

- ماتعملش كده تاني.

تأوه حامد وهو يقول ضاحكًا:

- حاضر يا ماما.

نظر حامد للجميع، ثم قال بصوت متهدج:

- سامحوني كلكم.

دخل جميعهم الفيلا يمزحون، الفرح واضح على منار وياسر، أما رحمة فعاودها ذلك الشعور المختلط بين الفرح والخوف.

- بقولكم إيه يا جماعة، إيه رأيكم يا جماعة نسافر كلنا الساحل الشمالي نغير جو، ونصفي كل اللي بينا، ونرجع حياتنا زي ما كانت.

قالها حامد بصوتٍ مَرِحٍ بعدما وقف موجِّهًا نظراته للجميع منتظرًا الرد، لم ينتظر كثيراً حتى جاءه الرد على الفور من رحمة:

- طبعًا يا حبيب...

بترت كلمتها لما رأت أعين حماتها وأخت زوجها تنظر إليها، ضرب الخجل دماءه في وجهها، فازدهر وتورد، ثم وضعت يديها على وجهها وضحكت، انتقلت عدوى الضحك بين الجميع، فقال حامد:

- هنسافر بكرة الصبح، بس فين بابا؟

ردَّ فايزة:

- مسافر المغرب.

- المغرب؟!

ردَّد حامد إجابة والدته متعجبًا من السفر إلى المغرب، ربما هناك عمل جديد يبدأه، عندما يعود والده سيعرف منه كل التفاصيل سواء أراد والده ذلك أو لا.

- طيب يا جماعة، نجهز حاجاتنا عشان السفر.

قالها حامد محمِّسًا أسرته، فقالت رحمة:

- الحاجة جاهزة من بدري من ساعة...

اللهفة ضاربة بجذورها في رحمة، شعرت بالخجل، زاد حامد من خجلها هذه المرة، بضحكة صافية، فقالت فايزة:

- سافروا انتوا ونعنشوا كده، واحنا بعدين.

نظر حامد ورحمة لبعضهما ثم انفجرا ضاحكين، توجَّه حامد لزوجته وأمسك بيدها وجذبها وصعدا لغرفتهما يتهامسان ويضحكان، تأبطت رحمة ذراعه وهمست في أذنه قائلة:

- بحبك!

لم يجبها حامد واكتفى بالنظر لوجهها وقسماته الجميلة وقبَّل رأسها وهمس هو الآخر قائلاً:

- أنا آسف على كل حاجة عملتها وضايقتك يا رحمة.

- مسامحاك يا حبيبي.

- بقولكم إيه، أنا هوضب الشنط بتاعتكم، العبوا انتوا مع منار وياسر عشان يشبعوا منكم قبل ما تسافروا.

توقف العاشقان للكلام الذي قالته ريهام، ونظرا نحوها باسمين، فأردفت ريهام:

- والله هعيط.

نزل حامد بضع درجات ووصل لأخته واحتضنها وربت على رأسها وقال:

- لما أرجع هنتكلم مع بعض عشان أفهم إيه اللي حصل مع زياد.

احتضنت ريهام أخاها بقوة كأنما تريد أن تشعر بالأمان والسَّكينة، شعر حامد أن الأمر بين أخته وخطيبها السابق ليس على ما يرام، فقال:

- ريهام، لو في حاجة عاوزة تقوليها، قوليها وأنا أخلصها ومش مهم أسافر.

- لا مفيش، سافر انت وانبسط وبعدين نتكلم.

قالتها ريهام، ثم قبَّلت أخاها، وتركته وهبطت مرة أخرى حيث تجلس والدتها التي تشعر أن هناك حدثًا كبيرًا بين ابنتها الوحيدة وخطيبها السابق الذي تركها فجأة ودون أي مقدمات، لم تنطق ريهام بكلمة واحدة تفسِّر بها مع حدث، كل ما قالته عندما سئلت عن سبب انفصالهما:

- اختلفنا ومفيش نصيب.

❊ ❊ ❊

(23)

كأحسن ما يكون اللقاء بعد غياب، كان اللقاء بين الزوجين، قضيا يومهما في استرجاع علاقتهما التي بدأت تنهار، تغيَّرَت رحمة تمامًا بعد اللقاء، تفتحت كما تتفتح الوردة بعد سُقيَاها، تحررت روحُها المسلوبة من أسر التوتر والخوف، أمطر حامد أذنها وقلبها بكلمات العشق والأسف، استقبلت أمطاره بصدرٍ رَحبٍ وقلب مفتوحة أبوابه على مصراعيها، ولا يبدو أنه سيغلق أبوابه أبدًا.

على الرغم من الإنهاك الذي أصابهما من نوبة العشق، إلا أن النتيجة كانت مرضية لكليهما، لم تتفتح رحمة وحدها بل تفتح حامد أيضًا هدأت روحه المضطربة هو الآخر، فكر في التراجع عما ينوي فعله، لكنه تماسك، يدفعه الفضول دفعًا لمعرفة ما تُخبئه رحمة وما يُخبئه الجميع عنه.

دخلا في نوبة عشق ثانية زادت من توهجهما وإنهاكهما، ظلا مستلقيين يمسك كُلٌّ منهما بذراع الآخر كأنما لا يردان الانفصال أبدًا، الصمت الذي غلَّفهما له حلاوة مسَّت قلبيهما، نظرات الأعين بين العاشقين أبلغ من أي كلمة تُقال، قبَّل يدها وبكى كما لم يبكِ من قبل، المشاعر المتضاربة بداخله تكوي عقله وقلبه بسوطٍ مميتٍ، أيُكمل في طريقه أم يتجاهل فكرته تمامًا؟

نظر حامد لملاكِهِ المستلقي بجواره وقال:

- مش هنسافر ولا إيه؟

ردت رحمة بصوتٍ حالمٍ:

- طبعا هنسافر، الصبح مش كده.

نظر حامد للساعة المعلَّقة على الحائط المواجه للسرير فوجدها التاسعة مساء، تنهَّدَ وقال:

- هنسافر دلوقت عشان نلحق اليوم من أوله، عشان نشوف شروق الشمس على البحر.

تنفست رحمة بعمق، وحلت عليها راحة نفسية عندما سمعت اقتراح مشاهدة شروق الشمس على البحر، وقالت بخفوت:

- والغروب كمان.

ضحكَ حامد وقال:

- والغروب كمان، إحنا نقوم نلبس ونتعشى في أي مكان وبعدين نسافر.

قبَّلته وقامت واتجهت للحمَّام، اغتسلت وتوردت أكثر وخرجت متألقة، احتضنها وتنفس رحيقها المنعش ومرر أصابعه في شعرها الهائش بفعل الماء وربَّت على وجهها المتورد من الماء الساخن ورائحة العطر التي تفوح منها.

- اجهزي لحد ما آخد دش.

هزت رأسها بدلالٍ وقالت بصوتها الحالم:

- ماشي.

دخل حامد الحمَّام، وسلَّم نفسه لدفقات الماء الساخن، تغسل جسده وعقله المشغول، تذكَّر كلمات فريد شوقي التي قالها له عندما أعطاه العلبة التي تحوي العقار "ماتزعلش من اللي ممكن تعرفه".

ما زال مترددًا.. أنهى حمامه بسرعة وعاد للغرفة مرة أخرى، فلم يجدها، نادى عليها فلم تجبه، بحث عنها في أرجاء الغرفة لعلها تمزح معه، فلم يجدها.

- هي راحت فين؟

جلس على السرير، وأمسك بهاتفه ليطلب رقمها، لكن تلك الطرقات الخفيفة على الباب لفتت انتباهه، توجَّه نحو الباب وفتح ليجد رحمة واقفة أمامه في أبهى صورة، يسبق صورتها ريحُ عطرها الخلاب، صورتها التي أمامه بشعرها المسدل خلفها وذلك الفستان العاجي ذو الأكمام السوداء والذي تغطي صدره ورود صغيرة، جعلها أشبه بأميرة من أميرات ديزني، تبتسم فتظهر أسنانُها بيضاء لامعة كاللؤلؤ، وعينان واسعتان تذوبُ فيهما قلوب أعتى الرجال صرامة، ظلَّ صامتًا يتأمل تلك الواقفة أمامه بهدوء، فقالت:

- مالك؟!

- الصمت في حرم الجمال جمال.

ضحكت فازدادت بهاًء وجمالًا وقالت:

- إنت لسه مالبستش

- حالًا.

ارتدى حامد ملابسه على عجل وأتم استعداده للسفر، خرجا من الغرفة وتوجها لغرف أطفالهما، قَبَّلَا ملائكتهما النائمين، ثم هبطا والهدوء يخيم على المكان، وخرجا باتجاه السيارة الواقفة، أوفت ريهام بوعدها ووضعت حقائبهما وكل ما يلزم للسفر بالسيارة، فتح حامد الحقيبة الخلفية ليراجع محتوياتها، عاد حامد إليها وفتح لها باب السيارة منحنيًا وهو يقول:

- مولاتي.

تقمصت رحمة دور الأميرة فانحنت وهي ممسكة بالفستان وقالت:

- مولاي.

ركبت بخفة كأميرة بالفعل، أغلق الباب برفق، وركب بجوارها، فقالت:

- جبتها إمتى العربية دي؟

- من فترة بس كنت راكنها في الشغل.

- شغل تاني يا حامد.

ردَّ حامد ضاحكًا:

- معلش بس انتي اللي سألتي.

أدار المحرك وبدأت الموسيقى الهادئة في الانتشار، انطلق بالسيارة بأقصى قوة، كأن أحدًا يطارده، خافت رحمة من قيادته وظهر ذلك واضحًا عندما صرخت قائلة:

- إهدا يا حامد.

ضحك حامد ضحكة بدت لرحمة أنها شريرة، وتوقف فجأة وقال وهو لا زال يضحك:

- ماتخافيش.

قالها وانطلق مرة أخرى بسرعة كبيرة.

***

ومثلما يُطفئ الماء النار، ومثلما تُذيب الشمس الجليد، أذابت الموسيقى المُنبعثة من المذياع الجليد المتراكم بينهما، فطوال الطريق لم تتوقف الأنغام الموسيقية قَطُّ، كلُ كلمة وكلُ نغمة كان لها تأثير واضح عليهما، الصمت هنا جميلٌ ويكفي، الأعيُن تكشف وتفضح ما في القلوب رغم اختلاف القلبين وما بهما، فلكُلٍّ غايةٌ من تلك الرحلة، ولكُلٍّ وسيلة لتحقيق هدفه.

تنهدت رحمة وقالت:

- أنا مش مصدقة نفسي! بعد كل اللي كان بينا رجعنا زي الأول، زي ما نكون

لسه مخطوبين أو لسه في شهر العسل، فاكر شهر عسلنا يا حامد؟ كان شهرين مش شهر؟

ضحكت رحمة في رقةٍ ودلالٍ، جعلت حامد يضحك من قلبه، فأمسك يدها اليسرى وجذبها ناحيته وقبَّل يدها:

- فاكر طبعًا يا حبيبتي، كانوا أجمل شهرين في حياتنا، فاكر كل لحظة كنا فيها مع بعض.

- وأنا كمان فاكرة، ومش ممكن أنسى أبدًا.

تنفست رحمة بعمق كأنما تغسل رئتيها وأكملت:

- أنا عاوزة أقولك على حاجة بس ماتزعلش مني.

ظهر الاهتمام على وجه حامد فقال بجدية:

- طبعًا يا رحمة.

تنحنحت رحمة وقالت:

- إنت كنت زعلان مني ليه الفترة اللي فاتت دي كلها؟

- أنا عمري ما زعلت منك أبدًا يا رحمة، أنا اللي على طول مزعلك وهاجرك، أنا حاسس إن معايا كنز وبغبائي بضيعه.

لم ترد رحمة، نظر لها حامد فوجد نفسه يذوب في عينيها الواسعتين، انتبه فجأة مع ذلك النفير القوي الذي أعاده لتركيزه على الفور متحكمًا في السيارة بكل ما أوتي من قوة ليمنع تصادمًا كان وشيكًا، توقف على جانب الطريق الذي بدأ نور الفجر يكسوه يلتقط أنفاسه. نظر لرحمة فوجدها شاحبة تمامًا وآثار الصدمة واضحة عليها، تتنفس بقوةٍ وبصوتٍ مسموع وقد وضعت يديها على صدرها، تحاول أن تُهدِّئ من روعها. أرجع حامد رأسه للخلف محاولًا التماسك، أشعل

سيجارة وفتح الزجاج المجاور له ليهب عليه نسيم الفجر المنعش، استفاق قليلًا، ثم التقط زجاجة المياه بجواره وشرب منها بنهمٍ وأعطى الزجاجة لرحمة التي بدأت تستفيق هي الأخرى، شربت من الزجاجة على مهلٍ، وهي لا زالت تتنفس بصوتٍ عالٍ، ثم انفجرت ضاحكة بدون مبرر، فالتفت لها حامد متعجبًا من ضحكها فقال لها:

- إنتي بتضحكي على إيه؟

تمالكت أعصابها بصعوبة وإن كانت النبرة الضاحكة لا زالت موجودة:

- شُفت الحب عمل فينا إيه.

قالتها وعاودت الضحك مُجدَّدًا، فانتقلت عدوى الضحك لحامد الذي سعل بقوة من شدة الضحك، شرب بعضًا من الماء ثم قال:

- كفاية كده، عشان نلحق شروق الشمس.

أدار محرك السيارة وانطلق مجدَّدًا وظهر في الأفق مزيج رحيل الليل وطلوع النهار ذلك اللون الذي يدخل في النفس السرور والبهجة.

سار حامد بالسيارة بأقصى سرعة ليلحق بشروق الشمس في القصر الكبير المُعَد سلفًا، وصله بعد دقائق فوجد آثار الانبهار على رحمة بعدما نزلت من السيارة، تنظر للقصر مبهورة كطفلة صغيرة لا كسيدة له، فقال لها:

- هل تسمح رحمتي بأن نسرع قليلاً لنلحق شروق الشمس؟

لم تُجبه، فصورة القصر والحديقة والسماء خلبوا ذهنها، فجذبها من يدها كالطفلة ذاهبًا إلى نهاية القصر حيث الشاطئ وجلسا على الأرجوحة متعانقين صامتين، يغرقان بعضهما بالقبلات، والاعتذارات الهامسة.

***

لم ينتبها كم مرَّ من الوقت يحتضن كل منهما الآخر، لكن مع أشعة الشمس ونسمات الهواء البارد التي هبت عليهما، أيقظتهما من الغفوة اللذيذة التي سقطا فيها، قاما منتعشين قليلًا ودخلا القصر، سيطر الانبهار مجددًا على رحمة عندما دخلت القصر، وتأبطت ذراع زوجها وتشكره هامسة:

- كل ده ليَّا يا حبيبي، متشكرة أوي.

قبَّل حامد جبهتها:

- حياتي وعمري كلهم ليكي.

صعدًا للطابق العلوي، وسارا في الممر الطويل وتوقف حامد وقال لرحمة:

- غمضي عينيك.

أغمضت رحمة عينيها دون تردد. فتح حامد الغرفة ودفع رحمة للداخل وقد وضع يديه على كتفيها، توقف في منتصف الغرفة وطلب منها أن تفتح عينيها. فتحت رحمة عينيها عن آخرهما لِما رأته، غرفة نوم ملكية بمعنى الكلمة، الزهور منتشرة في كل مكان، وأشعة الشمس تنسل من فتحات الستائر المُبجهة، تناسق الألوان وتلك المرآة الكبيرة في نهاية الغرفة، اقتربت منها مبتسمة وبجوار المرآة وجدت مساحيق التجميل التي تفضلها، فنظرت لحامد في المرآة فوجدته ينظر لها مبتسمًا فاتحًا ذراعيه عن آخرهما، على الفور ركضت رحمة نحوه وألقت بنفسها في أحضانه وقالت:

- إنت مجهز كل حاجة علشاني.

- علشان بحبك وهفضل أحبك على طول.

قالها حامد ثم أمسك بذراعيها ونظر لعينيها وقبَّلها ثم قال:

- أنا آسف لو في يوم زعَّلتك.

ألقت رحمة بنفسها مجدَّدًا في أحضان زوجها وقالت:

- مسامحاك.

تركها حامد وذهب للشُرفَة الكبيرة وأزاح الستائر الذهبية وفتح الشُّرفَة وظهر من خلفها البحر وصوت أمواجه المتلاطمة، خرج ووقف في الشرفة وجاءت خلفه رحمة وصوت وصورة البحر يجذبانها مثل النداهة، وقفت بجواره رافعة رأسها وتنظر لقسمات وجهه. التفت لها وابتسم وابتسمت له كذلك، ثم جلسا على الأريكة الوثيرة وقد مدَّ كُلٌّ منهما قدميه في استرخاء تام واستسلام مُطلَق للجمال من حولهما أن يداعب خيالهما وجسديهما، تاركين له فِعل ما يريد أن يفعله بهما، لقد عادت حياتهما طبيعية مرة أخرى، تعانقا وأسبل كل منهما جفنيه واستسلما للنوم.

***

فتح حامد عينيه فجأة فوجد نفسه مستلقيًا على السرير الوثير، تقلب عدة مرات قبل أن يثب ويقف ويُخرِج هاتفه من جيب سترته الملقاة بجانبه على السرير، وجد الساعة وقد تجاوزت الثامنة مساءً، نظر في أرجاء الغرفة فلم يجد رحمة، توجَّه للحمَّام الملحق بالغرفة وطرقَ بابه عدة مرات فلم يجبه أحد، فتح باب الحمَّام فلم يجد زوجته.

- هي راحت فين؟

سأل حامد نفسه وهو يتجول في الغرفة متسائلًا أين اختفت رحمة، حتى لمح على المنضدة التي تتوسط الغرفة ورقة كبيرة مطوية لنصفين، توجه للمنضدة وفتح الورقة، وقرأ المكتوب بها:

- مساء الخير يا حبيبي، العشاء جاهز، مستنياك تحت.

مع قُبلةٍ على الورقة من شفتي رحمة. تنفَّس حامد الصعداء ثم دخل الحمَّام.

اغتسل ثم بدَّل ملابسه وارتدى بدلة سوداء وقميصًا أبيض، ووضع عطره المفضل، ثم تسلل بخفة هابطًا الدَّرَج متجهًا نحو غرفة المكتب، دلفها وتأكد من إغلاقه بإحكام، ثم اتجه نحو الخزينة خلف المكتب، وضع كفه الأيمن على الشاشة الصغيرة فانفتحت الخزينة، فأزاح الباب الثقيل حتى انفتح وأخرج علبة خشبية صغيرة فتحها بعناية وأخرج قنينة صغيرة ووضعها في جيب سترته، ثم أعاد العلبة للخزينة بعناية، وأغلقها، وأعد الكاميرا ووضعها بجوار كرسي المكتب الكبير بحيث تُصبح مواجهة للجالس أمام المكتب، ثم عاد للمرآة الكبيرة وعدَّلَ هندامه وتنفَّسَ بعُمقٍ وهو مغمض العينين وقال في هدوءٍ مُتوترٍ:

- سامحيني يا رحمة!

خرج حامد من الغرفة إلى الممر الطويل وهو يعزف لحنًا راقصًا بفمه وتسبقه رائحة العطر الفخم، ظلَّ يسير حتى وصل إلى البهو الكبير فوجد رحمة تقف عند نهاية السلم في قمة تألقها، بفستانها الأبيض الكاشف عن ذراعيها ورقبتها، وشعرها المصفف بعناية ينسدلُ بنعومة على كتفيها، وبسمتها المميزة، وعيناها الواسعتان تنظران لزوجها بسعادة وهو قادم نحوها مبادلها نفس النظرات، وعندما اقترب منها أمسك يديها وقبَّلهما وتنفس عطرها الأخَّاذ ثم قالت وهي تحتضنه وتنظر لعينيه بهيام وتقول:

- العشاء جاهز يا حبيبي.

توجها لغرفة الطعام التي لا تختلف عن باقي القصر في فخامة محتوياتها، جلسا على طاولة الطعام يطعم كل منهما الآخر كما يُطعم الطفل الصغير، يضحكون، يمزحون، النظرات المتبادلة بينهما تكفي لملء جنبات العالم عشقًا، ازدهرت رحمة وتوهجت، وحامد كذلك الذي قام من جلسته وقال:

- تحبي تشربي إيه؟ أنا عن نفسي هشرب قهوة وانتي؟

- أي حاجة من إيديك حلوة.

على الفور توجَّه حامد لنهاية غرفة الطعام حيث البار المجهَّز بشكل جيد وفتح المُبرِّد وأخرج زجاجة من عصير البرتقال وقال:

- برتقال كويس يا رحمة؟

أرسلت رحمة قُبلةً طائرةً التقطتها حامد ووضعها ناحية قلبه، ابتسم، وبدأ يصب العصير في كأسٍ زُجاجيٍّ كبيرٍ، ثم أخرج القنينة وكسر عنقها وأفرغ محتواها في الكأس وقلَّبَه جيدًا، ثم صب لنفسه كوبًا كبيرًا من القهوة وتوجَّه لرحمة وهو يقول:

- تعالي نقعد في الهواء تاني.

قامت رحمة وأمسكت عنه كوبها، وخرجا للشُرفَة الواسعة، جلسا ملتصقين وبدأ حامد يشرب من كوبه وقد بدا متوترًا يحاول جاهدًا إخفاء توتره فقام وتوجه لسور الشرفة وأشعل سيجارة والتفت لرحمة فوجدها وقد شربت نصفَ كوب العصير، ينظر لها مبتسمًا وهي كذلك، أفرغت باقي الكوب في معدتها، ظلَّا صامتين لفترة حتى لمح حامد في وجه رحمة بوادر للارتخاء:

- تعالى ندخل جوه عشان أنا تعبانة.

قالتها رحمة وهي متأبطة لذراع حامد، عادا للداخل مجددًا وتوجها لغرفة المكتب أجلسها على كرسي كبير أمام المكتب الضخم وقد بدأ مفعول العقار في الظهور عليها.. استرخاء تام.

على الفور ضغط حامد زر تشغيل الكاميرا المستقرة بجوار كرسي المكتب والمجهزة سلفا ثم جلس وتنفس بعمقٍ وقال:

- رحمة.. رحمة، سمعاني.

هزت رحمة رأسها ببطءٍ وردت بصوتٍ مُنخفضٍ:

- همم، سامعاك يا حبيبي.

- أنا مين يا رحمة؟

- إنت حامد جوزي وحبيبي وعمري كله.

- إنتي عارفة إحنا فين؟

- إحنا في الساحل الشمالي عشان نرجَّع حياتنا زي ما كانت.

ابتسم حامد ساخرًا من الإجابة فأكمل:

- إيه رأيك نتكلم بصراحة؟

ردَّت رحمة بلا تردد:

- طبعًا.

- هتجاوبيني بصراحة؟

- طبعًا يا حبيبي.

- إيه رأيك فيَّا؟

- أنا أُعجبت بيك لما شُفتك مع مامتك وانت جاي عشان تقابلني أول مرة، أنا ماكنتش مستريالك في الأول عشان كنت حاسة إن كان ليك علاقات كتيرة زي معظم الرجالة، لكن لما عاشرتك لقيتك شخص كويس.

- أنا كان فعلاً ليَّا علاقات كتيرة بس الحاجة زهقت من الوضع ده، وانتي ماكانش ليكي علاقات قبل ما نرتبط ببعض؟

- مرتين؟

- ضربت الصدمة عقل حامد، فأكمل متوترًا:

- طب ماتحكيلي عنهم.

أسهبت رحمة المُغيبة عن الواقع في الحديث:

- طبعًا هحكي مادام اتفقنا على الصراحة، الأول كان زميلي في الجامعة ارتبطنا عاطفيًا من سنة أولى، فضِلنا مع بعض لحد التخرج لدرجة إنه لم سقِط في سنة تانية وأنا نجحت ورُحت سنة اللي بعديها، سقَّطت نفسي عشان نبقى مع بعض السنة الجاية وحصل فعلاً لحد ما اتخرجنا من الكلية بس طبعًا عشان ظروف المادية ماقدِرش حتى يفاتحني في الموضوع.

- ماحصلش بينكم أي تجاوزات؟

- بوسنا بعض كذا مرة وماحصلش حاجة أكتر من كده.

تفحصها حامد بنظرات ساخطة، وهو يقول:

- وبعدين؟

- افترقنا لحد ما عرفت إنه مات في حادثة عربية بعد سنة تقريبًا، وزعلت عليه أوي واكتأبت وحسيت إني أنا السبب في اللي حصل.

- وزعلتي ليه مش هو اللي سابك عشان مش هيقدر يتقدملك عشان ظروفه.

- أنا كانت واعده إني هساعده وأقنع بابا وماما إنه الشخص المناسب.

- وطبعًا ده ماحصلش؟

- لأ طبعًا..

- ليه؟

- عشان بابا وماما رفضوا مجرد الفكرة عشان كانوا عاوزين حد مستريح يعيِّش بنتهم في مستوى عالي.

- عشان كده وافقوا عليًا؟

- أيوه.

صدمة جديدة تلقاها حامد، فأكمل والغضب بدأ يشعل عقله:

- والتاني يا رحمة؟

- أنا لسه ماخلصتش عشان أحكي عن التاني.

- كملي يا رحمة أنا سامعك كويس.

- بُص يا حامد أنا مش هنكر إني وافقت اتجوزك عشان أنت غني وفعلًا هتعيِّشني في مستوى عالي بس أنا فعلاً بعد الخطوبة والجواز حبيتك واتعلقت بيك لحد ما ابتديت تبعد عني من غير سبب وانت عارف إنه ماحصلش بينا أي حاجة واحنا مخطوبين.

- صحيح..

- بس مش عارفة إنت ليه بعدت عني ومش لاقية سبب لكده وعشان كده ظهرت العلاقة التانية.

- بعد ما اتجوزنا؟!

قالها حامد بحدة وعصبية قبل أن تجيبه رحمة بهدوء:

- انا عارفة أنك مصدوم بس هي دي الحقيقة.

- ومين التاني؟

- عصام صاحبك؟

غامت الدنيا في وجه حامد، وبدأ يتنفس بقوة واحمرَّ وجهه، وبدأ ضغط ما يسمعه في ازدياد، فقال بصعوبة وبصوت مكتوم يخرج بالكاد من بين شفتيه:

- من إمتى؟

- أربع سنين؟

- وإيه اللي حصل بينكم؟

- كل حاجة..

قالتها رحمة وهي لا تدرك الأثر الذي تتركه كلماتها على زوجها، فازدادت الضغوط على حامد أكثر وأكثر، وهو يقول:

- كل حاجة إزاي يا رحمة؟

- بص يا حبيبي، بس ماتزهقش مني عشان هقول كلام كتير!

❊ ❊ ❊

(24)

بداخل أحد المراكز التجارية، وأمام أحد محال لُعب الأطفال تتراقص الطفلة الصغيرة فرحًا أمام واجهة المحل الذي يعرض لعب مختلفة الأشكال والألوان، ظلت الطفلة ذات الست سنوات تسيرُ ذهابًا وإيابًا، تصرخ بطفولية ومرح أمام الزجاج الذي يحجبها عن لمس الألعاب، فيما وقفت على مقربة منها سيدة وقور، تنظر لها بحنانٍ وابتسامة رضا تعلو وجهها الذي ترك الزمن عليه بصمته المميزة من تجاعيد لم تخف سابق جمالها، امتزاج الأسود والأبيض في شعرها زادها وقارًا، ملابسها تتداخل ألوانها بين الأسود والأبيض اللذين يمتزجان في شكلٍ جميلٍ مناسبٍ لسنها ولكونها أُمًا وجدة، ظلت الطفلة تمارس مرحها أمام محل اللعب وصاحت بفرح:

- بصي يا تيتة، على البيت اللي فيه العروسة شكله حلو أوي!

ردَّت الجدة مبادلة الطفلة بنفس المرح:

- حلو أوي يا منار، استني ماما لما تيجي هي وياسر عشان ندخل المحل.

- بجد يا تيته، هندخل المحل؟ قالتها منار غير مصدقة وهي تنظر لجدتها، فيما نظرت لها الجدة مبتسمة وأكملت:

- طبعًا يا حبيبتي.

قالتها واحتضنت حفيدتها التي ضحكت من الفرحة، ثم تركت حضن جدتها

وتابعت النظر داخل المحل بلهفة في انتظار والدتها وأخيها بفارغ الصبر، فيما تتابعها جدتها وقد فرغ صبرها من تأخُّر زوجة ابنها كل هذا الوقت، رشحتها لابنها بعدما رأتها في زفاف ابنة إحدى صديقاتها، أعجبها الهدوء والحياء المحيطين بهذه الفتاة وكذلك ملابسها التي على الرغم من مسايرتها لخطوط الموضة إلا أنها غير مبهرجة، أجرت تحرياتها كأيِّ أمٍ ترغب في اختيار زوجة لابنها الوحيد، وبعدما اطمأنَّت لها فاتحت ابنها حامد في موضوع زواجه بها، لأنها سئمت من كونه لم يتزوج حتى الآن على الرغم من إمكانياته المادية المريحة والمغرية لأي فتاة طامحة في حياة راغدة مُريحة دون مشقة، وسئمت كذلك من علاقاته النسائية المتعددة.. قطع سيل أفكارها يد تربت على كتفها، لتلتف خلفها لتجد فتاة شابة تنظر لها تبتسم بخجل:

- أنا آسفة يا ماما، الدنيا زحمة جدًا بره.

بادلتها الجدة بابتسامة لائمة وقالت:

- إنتي فين يا رحمة، كل ده تأخير.

- اعذريني يا ماما والله الطريق وحش أوي، قالتها وناولتها ياسر الصغير الذي فتح ذراعيه محتضنًا جدته، فيما احتضنت رحمة ابنتها منار وتلاعبها وتمزح معها حتى قاطعتها حماتها قائلة:

- يلا، ندخل المحل عشان منار مش قادرة تستنى.

نظرت رحمة لحماتها بابتسامة خجول قائلة:

- أنا هروح التواليت، دقائق وراجعة، معلش.

- هندخل أنا والولاد لحد ما تيجي.

- ماشي يا ماما، هرجع على طول.

تركت حماتها وأولادها يدخلون المحل بعدما ودعتهم، ووقفت تتابعهم حتى غابوا عن نظرها، وسارت ناحية السلم المتحرك الصاعد للأدوار العليا وأخرجت هاتفها وطلبت رقمًا أجاب بسرعة وما إن سمعت صوته قالت بشغف:

- إنت فين يا عصام؟

- أنا موجود في المول من بدري، إنتي اللي فين؟

- أنا رايحة عند محل الأيس كريم اللي انت عارفه.

- خلاص أقابلك عنده، سلام.

- سلام.

وقفت لتشتري الآيس كريم المفضَّل لها وجلست تنتظره وتنظر في ساعة يدها بتوترٍ بسبب خوفها من التأخر على حماتها وتفاديًا لطوفانٍ من الأسئلة واللوم، قطع مجال بصرها عصام، شاب في العقد الثالث من العمر أنيق الملبس، متوسط الطول، نحيل، بشرته الخمرية وشعره المصفف بعناية جعلاه يبدو أصغر سنًا، بدا كما لو أنَّه ما زال مُراهِقًا، يحمل باقة ورود أشار بها في وجهها ليتشتت مجال رؤيتها، ويشتت تركيزها، فترفع رحمة رأسها لتجد ابتسامته التي أوقعتها في غرامه مرسومة على قسمات وجهه كما رأتها أوَّل مرةٍ، جلس عصام بجوارها يتحدَّثُ لها همسًا، وينظر كُلٌّ منهما للآخر بعشقٍ قرابة ربع الساعة، لم ينغِّص عليهما الأمر سوى رنين هاتفها الذي أخرجها من عشقها لتجد حماتها تتصل بها، لقد تأخرت، ولم تعد مستعدة لمواجهة اللوم الذي ينتظرها، سحبت يدها من بين يديه على مضض وودَّعَته بنظرة حنون، وبادلها هو بنظرةٍ مليئةٍ بالاشتياق، تاركًا باقة الورود بين يديها، وانصرف سريعًا، تركها حزينة لفراقه، عادت بسرعة لمحل اللعب للحاق بأبنائها وحماتها وهي تُعِدُّ نفسها للعتاب، لتجد حماتها وأطفالها واقفين أمام المحل، وترى حماتها تنظر لها وترمقها من بعيدٍ، وصلت حيثُ يقفون، وضعت

وجهها في الأرض متصنعة الخجل، همَّت حماتها بتوجيه اللوم، لكن باقة الورد لفتت نظرها فقالت:

- ولمين الورد ده إن شاء الله؟!

- لحامد طبعًا.

نظرت لها حماتها مبتسمة وقد ارتفع حاجبها الأيمن عن الأيسر في تعجُّب من كل هذا الحب والحمرة التي كست وجه رحمة والتي فاجأتها حماتها قائلة وهي تبتسم:

- حمد الله على السلامة يا حنينة!

أجابت رحمة بخجل:

- الله يسلمك يا ماما.

التقطت إحدى الحقائب من يد حماتها لتحملها فيما أصرت منار على حمل لعبتها بنفسها، وحملت الجدة ياسر الذي بدأ يغلبه النعاس، وسارت منار بجوار والدتها ورأت باقة الورود وسألتها:

- ماما، الورد ده لمين؟

- لبابا طبعًا يا حبيبتي.

ابتسمت الطفلة وغمزت لوالدتها التي بادلتها بابتسامة أظهرت أسنانها البيضاء المتناسقة وغمزت لها واحتضنتها وساروا سويًّا خارج المركز التجاري.

***

وقفت رحمة أمام المرآة تكمل ارتداء ملابسها وتضع مساحيق التجميل وعطرها الجميل، أنيقة هي، تجيد اختيار ملابسها بعناية ودقة، لولا انشغالها ببيتها لكانت عارضة أزياء مثالية، دائمًا ما تفكر في مثل هذا الأمر، ثم صففت شعرها على شكل

ذيل حصان زاد من اتساع جبهتها وحسن وجهها، وارتدت نظارة طبية ذات إطار أسود سميك ليس عن عيبٍ في الإبصار، لكن متابعة لخطوط الموضة.

نظرت مرة أخيرة في المرآة وابتسمت من روعة اختيارها، بنطال كحلي من الجينز، وجاكيت أسود يعلو قميصًا أبيض بخطوط سوداء رفيعة، وحذاء أسود منحها بعضًا من الطول الإضافي.

نزلت السلم المفضي إلى البهو الكبير لتجد حماتها وريهام جالستين تتسامران، رأتها حماتها وهي قادمة نحوهما، قالت حماتها:

- إيه الحلاوة دي يا رحمة!

ابتسمت رحمة لمعاكسة حماتها، ثم جلست بجوارها وقالت:

- صباح الفل يا ماما!

- صباح النور يا حبيبتي، على فين كده؟

- أبدا، خارجة مع صاحباتي من أيام الكلية.

- عرَّفتي حامد إنك خارجة؟

- اتصلت بيه مردش عليا، فبعتّله رسالة.

نظرت لها حماتها بتعجب ومثلها فعلت ريهام أي ماذا تقولين، أمسكت رحمة بطرف خيط العتاب القادم:

- والله يا ماما بكلمه من امبارح وفعلاً ما بيردش، عشان خاطري يا ماما إنتي وريهام لو اتصل أو اتصلتوا بيه عرفوه عشان مايزعلش.

ابتسمت حماتها وقالت لها:

- ماتخافيش، روحي انتي مع صاحباتك وأنا هبقى أقوله إنك عرفتيني.

قبَّلت رحمة حماتها وهي تقول:

- ربنا يخليكي ليَّا يا ماما.

- ويخليكي ليَّا يا حبيبتي.

ودعتهما وخرجت من باب الفيلا، واستقلت سيارتها، وسارت بها بضع دقائق ثم تركتها في ساحة الانتظار الملحقة بالمركز التجاري القريب من الفيلا، ثم أمسكت بهاتفها واستأجرت سيارة من خلال تطبيق Uber، وصلت السيارة المطلوبة بعد دقائق، استقلتها وطلبت من السائق التوجه إلى وسط المدينة، ظلت طوال الرحلة منشغلة بمعالم الطريق، جاءها صوت رنين قصير من هاتفها ووجدت رسالة قادمة من علياء مكتوب فيها "أنا في الطريق"، أرجعت الهاتف لحقيبتها وابتسمت.

وصلت السيارة إلى وسط المدينة وتوقفت أمام محل جروبي في شارع عدلي، عبرت الطريق ودخلت الحديقة الملحقة ووجدته جالسًا يدخن ويرتشف من كوب العصير الموضوع أمامه، وعندما رآها قادمة وقف مبتسمًا، وتقدَّم نحوها وعندما وصلت إليه صافحها وقبَّل يديها، اضطربت من جرأته فتوردت وجنتاها خجلًا، جلست متوترة، نزعت نظارتها ووضعتها على الطاولة وأبدلتها بأخرى سوداء أخفت ملامح وجهها.

اقترب عصام بكرسيه ليصبح بجوارها، ظلَّ مبتسمًا محاوِلاً تهدئتها، أشعل سيجارة أخرى بدلاً من التي انطفأت، ثم مدَّ يده وأزاح نظارتها السوداء، تركته يزيحها في استسلام، ثم نظر في عينيها بقوة وأطال النظر فيهما، فقال هامسًا:

- مخبية عينيك ليه؟

أدارت وجهها ناحيته وقالت معاتبة:

- إيه اللي انت عملته ده؟

ردَّ عليها متصنعًا الجهل وشبح ابتسامة ساخرة تتكون على وجهه:

- عملت إيه؟

قالت مستنكرة:

- ماتستعبطش، لما بوست إيديا!

ظل ينظر في عينيها ثم قال:

- فيها لما أبوس إيد حبيبتي.

وضعت وجهها في كفيها وبدأت تتنفس في عمقٍ وبصوتٍ مسموعٍ، فيما أرجع عصام ظهره للخلف قليلًا، واضعًا يديه خلف رأسه ثم قال بخفوتٍ وهو يميل بجسده نحوها:

- مالك يا رحمة، في إيه؟

- مش كده، أنا مكسوفة جدًا من اللي انت عملته، إنت أحرجتني جدًّا.

استمر في النظر لها وهمَّ بالتحدث لكنها أكملت بعدما أمسكت بيده:

- ماتزعلش مني، ولازم تراعي الإحراج اللي أنا فيه، وانت عارف ليه.

أجابها سريعًا:

- عارف والله، أنا اللي خلاني أعمل كده إني بحبك.

ابتسمت وامسكت النظارة السوداء وسحبتها نحوها وهمت بأن تضعها على عينيها، لكنه امسك يديها وهو يشير برأسه أي لا ترتديها وناولها النظارة الطبية ووضعها على عينيها وهو يضحك:

- كده شكلك أحلى، لما لبستي التانية حسيت إني قاعد مع مُخبِر مش مع واحدة بحبها وبتحبني.

ضحكت لدعابته وارتفع صوت ضحكتها، جعلها تتلفت حولها باسمةً وهي تضع يدها على فمها، لكنه لم يتمالك نفسه من الضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- إنتي متأكدة إنك بتتكسفي؟!

ضربته على يده لائمة:

- بطَّل ضحك.

تمالك نفسه بصعوبة، ثم أشار للنادل الذي جاء سريعًا، وطلب منه فنجان قهوة وطلب لها عصير ليمون، التفت لها وتعبيرات وجهه تدل على رغبته في الضحك مُجدَّدًا لكن نظراتها اللائمة أوقفته.

توقف عن الضحك عندما شربَ من كوب الماء الذي أمامه وكأنما ساعده الماء على ابتلاع ضحكاته، أمال جسده ناحيتها وقال بصوتٍ خافتٍ:

- أنا عاوز أقولك على حاجة.

لم تسمع ما يقول فاقتربت منه:

- بتقول إيه.

- بقول أنا عاوز أقولك على حاجة.

أطل السؤال من عينيها، فأكمل قائلاً:

- ماتزعليش من اللي هعمله!

هزت رأسها في عدم فهم:

- هتعمل إيه؟

تنفَّس بعمق واقترب أكثر وأمسك يديها وقبَّلهما ثم قال بصوتٍ رومانسي:

- بحبك.

تخضب وجهها باللون الأحمر وحاولت سحب يديها لكنه لا زال يمسكهما بقوة وقال:

- مش هسيبهم غير لما تقوليها.

ردَّت عليه بصوت خفيض لائم مُحرج:

- سيب إيدي يا عصام، ارجوك.

هز رأسه رافضًا وقال في تصميم:

- قوليها!

ابتلعت ريقها بصعوبة وقد تعرقت يديها، فقالت متلعثمة:

- بحبك.

تنهد لسماع الكلمة المنتظرة، وأصابه الذهول عندما وجدها تقبِّل يديه وتقولها عدة مرات بصوت رقيق:

- بحبك.

***

خرجت رحمة وعصام من جروبي متشابكي الأيدي في هيامٍ، تنظر له مبهورة كفتاة مراهقة تصادق شابًا جامعيًا، وهو يتعمد أن يجعلها مرتبطة به طوال الوقت، يحاول جعلها في حاجة دائمة إليه، وقد نجح في ذلك، أصبحت لا ترى الدنيا إلا فيه، تستشيره في كل شيء يتعلق بحياتها. عندما يخططان للقاء تسأله ماذا ترتدي والألوان المحبَّبة له وتصفيفة الشعر التي يُفضِّل أن يراها بها، تملَّكَ منها وسيطر على مشاعرها تمامًا، تتنفس هواءه، تُسبِّح سرًا باسمه ليل نهار، تحدث نفسها لماذا لم يكن هذا زوجي بدلاً من زوجي الحالي؟، تقف أمام المرآة وتتخيله يحتضنها ويرقص معها في غرفتها ويغرقها بحنانه وحبه.

لم تتحمل رحمة كل هذا الإبهار الذي يصبُّه في عقلها وقلبها، تأبطت ذراعه في غرام أثناء وقوفهما خارج المحل، جعلته يبتسم لها ابتسامة قضت على مشاعرها،

وجعلته يتساءل في داخله أهذه هي الفتاة التي انهارت خجلًا من تقبيله ليديها منذ قليل أمام رواد المكان.

ألحَّ عصام أن يرافقها حتى سيارتها، لكنها رفضت في إصرار بنظرات مترجية من عينيها، قابلها بابتسامة حنون جعلتها تبتسم وكادت أن تبكي لكن أوقفها عندما مسح بيده أسفل عينيها وهز رأسه أي لا تبكي.

استأجر لها سيارة جاءت بعد فترة ولم يدعا هذا الوقت أن يمر هباء، قضيا هذا الوقت في الهمس والضحك ولا زالت يداهما متشابكتين، جاءت السيارة فتح لها الباب ركبت وأغلق باب السيارة وودعها بنظراته إلى أن غابت عن ناظره.

وفي نافذة مُطِلة على جروبي وقف شاب اتسعت عيناه عجبًا لما يراه والحالة التي كانا فيها، جاءت من خلفة فتاة أخرجته من تعجبه:

- مالك يا زوز؟

انتفض من مفاجأتها له:

لا مفيش حاجة.

فحدَّث نفسه قائلًا:

- اتنين المفروض مفيش بينهم علاقة، ولو في علاقة المفروض تبقى عادية، يا دوب صباح الخير وصباح النور وشرَّفتنا ومع السلامة بس كده، أكتر من كده تبقى مصيبة.

ارتفع صوت رنين هاتفه، أخرجه من جيبه، وأجاب بسرعة قائلاً بسعادة:

- وحشاني من آخر مرة اتكلمنا فيها من ساعة.

قالها وضحك وسمع محدثته تضحك بصوت عالٍ قائلة:

- وحشتني يا زيزو.

***

في أحد المراكز التجارية تتجول رحمة وريهام قتلًا للوقت الذي يمر ببطء في انتظار زياد الذي تأخَّر عن موعده كالمعتاد، تمران بالمحلات تُشاهدن المعروضات بلا هدف محدَّدٍ.

طلبت ريهام من رحمة أن ترافقها هي وزياد أثناء شراء ريهام ما يلزمها من احتياجات استعدادًا للزواج، نظرت رحمة لريهام لترى كمّ الاشتياق والعشق الواضح من عينيها وكلامها عنه، دومًا تتحدث عن طيبته وروحه المرحة وحبِّها له وحبه له، وأنها لطالما رغبت في أن تعيش قصة حب رومانسية كما في الأفلام والروايات.. وها هي تعيشها معه منذ سنوات الدراسة وحتى تمت خطبتهما، والآن هي تنتظره يقتلها حبه لها وتشتاق لرؤياه. محاولات عديدة من ريهام للاتصال به لكنها محاولات فاشلة، فهاتفه خارج نطاق الخدمة لفترة، بدأت تشعر بالقلق الشديد عليه ولربما هو في مشكلة أو حدثت له حادثة، كل هذا ورحمة لا تستطيع أن تساعدها، حاولت أن تصل إليه هي الأخرى ولم تصل لنتيجة.

بدأ الشك يشعل نيرانه، لكن عندما وقعت عليهما باقة ورود من أعلى انتفضتا ونظرتا للأعلى ووجدتا أن زياد هو من ألقى بها وهو ينظر لهما ويضحك، أما رحمة فابتسمت بسبب الموقف، أما ريهام فابتسمت وصرخت ضاحكة كطفلة، بكت من المفاجأة، وعندما رآها زياد تبكي، ركض نحوها هابطًا الدَّرَج بسرعةٍ، وعندما وصل إليها زالَ ما بها من حزنٍ وحلَّت مَحلَّه ابتسامة عريضة وعينٌ بها بعض من آثار البكاء.

تأثرت رحمة من الموقف، ولمَ لا، فهي تعيشه هي الأخرى مع عصام، نبهتهما أنها موجودة بقولها:

- يا جماعة أنا والله هعيط من المنظر ده، أنا مش عاوزة أكون عزول في وسطيكم، هسيبكم شوية.

التقطت رحمة باقة الورد الملقاة على الأرض وناولتها لريهام التي لا تشعر بوجودها، استشعرت ريهام الحرج الواقع عليها من رحمة:

- أنا آسفة يا رحمة!

ضحكت رحمة قائلة:

- ولا يهمك يا حبيبتي، لمَّا تخلصي كلميني.

قالتها وقبَّلتا بعضهما وتواعدتا على اللقاء مرة أخرى، وأكملت ريهام طريقها مع زياد، يتجولان في المكان لشراء بعض المستلزمات.

***

اتصالات عديدة أجرتها رحمة بريهام، لما طال انتظارها لفترة طويلة، أجابت ريهام في النهاية، قائلة:

- أيوه يا رورو، إنتي فين؟

جاءها صوت رحمة مُعاتبًا بمرحٍ:

- إنتي اللي فين يا بنتي!

- إحنا خلصنا وماشيين من الكافيه أهو، أنا لسه كنت هكلمك لقيتك بتتصلي.

- أنا خلصت أنا كمان، يلّا عشان نروَّح سوا، أنا لسه في المول، نتقابل في الباركينج.

- خلاص تمام، باي يا رحمة.

نظرت ريهام لزياد قائلة:

- معلش، هنعدّي على رحمة هتروح معانا.

- ولا يهمك.

وصلا حيث تقف رحمة، ركبت في الخلف، وبدأت في وصلة من الحسد الضاحك على الانسجام الواضح بين الثنائي.

ضحكا لدعابتها وحسدها المُصطنَع، وأثناء العودة، توقَّفَ زياد في محطة بنزين لتموين سيارته، وذهبت ريهام لشراء مشروبات من المحطة فيما انتظر زياد ورحمة في السيارة.

- كنت عاوز أسأل سؤال؟

سأل زياد رحمة التي أجابت بترحابٍ:

- طبعًا، اتفضل.

أدار زياد رأسه للخلف، وقال:

- كنتي مع عصام في جروبي اللي في وسط البلد بتعملوا إيه؟

شحبَ وجه رحمة تمامًا، واتسعت عيناها فزعًا حتى كادتا تخرجان من محجريهما، ظلت واجمةً حتى رأت ريهام قادمة نحوهما تبتسم وتشير بالمشروبات التي أحضرتها، تناول منها زياد ما تحمله، ثم ركبت وأعطت لرحمة مشروبها ورأت أنها تغيرت قليلاً فسألتها:

- مالك يا رحمة؟

- تعبت شوية، ماتقلقيش عليَّا لما أشرب اللي انتي جايباه هفوق.

تصنعت رحمة الضحك وسألت ريهام:

- إنتي جايبة إيه بقى!

- ده سؤال برضو يا رحمة، إحنا بنات يا بنتي، هوت شوكليت طبعًا، وجبت لزيزو قهوة.

ضحك ثلاثتهم، ما عدا رحمة التي تضحك مجاملة، وفي داخلها خوف مشتعل

ويزداد اشتعالًا كلما نظر لها زياد عبر مرآة السيارة ويبتسم ابتسامة بدأت لها مخيفة ومرعبة إلى أقصى حد.

***

أحكم التوتر سيطرته بقوة على رحمة وهي جالسة على أحد المقاعد في مقهى مُطلٍّ على نيل القاهرة وهي تنتظر مجيء عصام بفروغ صبر، بعدما أخبرته بما حدثَ بينها وبين زياد.

انهارت أثناء حديثها معه عبر الهاتف، حاول تهدئتها ولم يفلح في ذلك، طلبت لقاءه للوصول لحل لهذه الأزمة الطارئة التي تهدد علاقتهما بالتحطم والسقوط بالإضافة إلى أنَّ معرفة حامد بهذه العلاقة سيحيل حياتها إلى جحيمٍ مستعر، فيكفيها علاقتها السطحية بزوجها.

جاءها عصام متأخرًا عن الموعد، استقبلته بوجه عابس ذهبت منه النضَارَة، وتلك الابتسامة التي تظهر تلقائيًا فورَ أن تراه، جلس وأمسك يديها مربِّتًا عليها في محاولة بائسة لتخفيف البؤس المسيطر عليها.

سحبت يديها بحدة، لم يلمها عصام، فهو يعلم جيدًا أنها في وضعية سيئة للغاية، حاول إمساك يديها مجددًا، لكنها رفضت بعصبية واضحة في حركات جسدها ونظرات عينيها.

ظلا صامتين لفترة القلق يأكل عقلها بنهمٍ، أما عصام فقد وضع أعصابه وعقله في غرفة تجميد ذات حرارة متدنية جدًا وهو يقول:

- إنتي خايفة من إيه!

انفعلت رحمة لبرودة وسخافة سؤاله وأشاحت بيدها فسقطت زجاجة المياه على الأرض فجذبت انتباه الجالسين، مال عصام بجسده والتقط الزجاجة من على الأرض ثم وضعها أمامه، ووجَّه نظرات حادة لرحمة التي قابلت نظراته بمزيد من

الخوف وبدأت الدموع في السقوط من عينيها، فقال ببرودٍ:

- إنتِ حكيتِ لزياد على حاجة؟

أجابته بصوتٍ مبحوحٍ:

- لا.

- أومال خايفة ليه، لو اتكلم اتقابلنا صدفة وكان في ناس مضايقينك وانتي ماشية وصممت أكون معاكي لحد ما تروَّحي.

نظرت له بخيبة أمل كخيبة حجته والسبب الذي ستتعلل به إذا تحدث زياد، ثم قالت:

- وهو حامد هيصدق حاجة تافهة زي كده!

- إنتي متأكدة أن زياد هيتكلم.

- مش عارفة، أنا خايفة يا عصام وانت مش حاسس باللي أنا فيه.

تصنَّع عصام الغضب وقال بلهجة لائمة:

- أنا مش حاسس ببكي يا رحمة، إزاي تقولي كده.

تنفَّس بعمق ثم أكمل حديثه:

- ماتخافيش من حاجة وسيبلي زياد وحامد أنا هتصرف معاهم لو حد فيهم اتكلم، وبعدين لو حاجة حصلت أنا عمري ما هسيبك أبدًا، وهنفضل مع بعض على طول.

لا زال العبوس كاسيًا وجه رحمة، عيناها زائغتان مملوءتان بالدموع كسحاب مُثقل بالأمطار تكفيهما كلمة واحدة لتفرغا ما بهما من دموع، وعندما أراد عصام حلّ الموقف بإمساك يدها مجدَّدا فوجئ بها تصفعه على وجهه وهي تصرخ:

- حرام عليك اللي عملته فيَّا.

قالتها وخرجت مُسرعة من المقهى وركبت سيارة أجرة كانت متوقفة أمام المقهى وانطلقت بها وهي منهارة وحالتها سيئة للغاية، أما عصام فتقبل الأمر ببرود أعصاب يُحسَد عليه على الرغم من كون الموقف محرجًا له لكونه في مكان عام، قام بهدوء بعد أن سدَّد فاتورة الحساب وخرج من المكان، أشعل سيجارة ودخنها في هدوء كأنما يصفي ذهنه مما حدث منذ قليل ويحاول توقع ما سيحدث إذا أخبر زياد حامد بما رآه.

***

شتان الفارق بين رحمة التي تجلس الآن أمام المرآة وقد شَحُبتْ، وظهرت تحت عينيها تلك الهالات السوداء المميَّزة الناجمة عن الإجهاد والقلق والتوتر، أهملَت نفسها وظلت حبيسة في غرفتها طوال اليوم، لا تخرج منها إلا قليلًا للاطمئنان على أطفالها، فمنذ أن واجهها زياد بعلاقتها مع عصام صديق زوجها الحميم، ثم لقائها بعصام الذي صدمها ببرودٍ ولا مبالاة فاقت تحمُّلَها.

وبين رحمة تلك الفتاة الرقيقة الحالمة، التي تذكَّرت أيام الدراسة وكيف كانت تخاف من الارتباط بأي زميلٍ؛ لأنها مقتنعة أن قلبها وعقلها وجسدها هم ملكٌ خالصٌ لزوجها ولا أحدَ غيره، والآن هي خائنة لزوجها وأطفالها ومع مَن؟ صديق زوجها الحميم، الذي شغل حياتها بعد ابتعاد زوجها عنها، تظن أنه لا يكرهها ولا يحبها وتظن كذلك أنه يريد أن يتخلص منها، لكن وجود منار وياسر يمنعان حامد من تطليقها.

لاحظ جميع مَن بالبيت الحالة التي أصبحت فيها، وحاولوا إخراجها من حالتها تلك، ففشلوا، تحدثت فايزة إلى حامد فتحجج بالعمل، ولم تجد فايزة أيًّا من أقارب رحمة يصلح لإصلاح الفتاة المدمَّرة، فوالديها توفيا منذ فترة، ولم تعرف لها صديقة مقربة من قبل، فعلى الرغم من أنها حماتها فهي تعاملها جيدًا، وعلاقة رحمة

بريهام جيدة، لكن ريهام لا تصلح لتلك المهمة، وحماها لا يصلح أيضًا لأنه مهتم بالعمل مثله مثل زوجها.

لمعت الفكرة في عقل فايزة، عندما رأت سمية وهي عائدة من الخارج، استقبلتها بترحاب، ودخلتا غرفة سمية وأغلقت الباب خلفها.

توجست سمية خوفًا من فايزة التي جلست وقالت:

- سمية، أنا عاوزاكي في موضوع مهم!

ازداد خوف سمية مما هو آتٍ، تشعر بمصيبة قادمة، فقالت مُتوجسة:

- خير يا ماما؟!

تنهَّدت فايزة بصعوبة ثم قالت:

- رحمة مش عجباني!

- إزاي!

- حالتها زي الزفت، اتغيرت، إنتي شُفتيها!

- فعلاً، هي اتغيرت، ومش عارفة ليه؟

- أنا عاوزاكي تعرفي ليه وتبلغيني!

- أنا!

تعجبت سمية من اختيار فايزة لها لهذه المهمة، قامت فايزة ودارت في الغرفة وهي تقول:

- أنا ماعرفتش أوصل لحاجة، ولا ريهام، ولا حامد، ولا أبوه حتى عيالها مش عارفين.

- وحامد كمان؟

- أيوه..

- وانتي متوقعة إنها تتكلم معايا؟!

- حاولي بس.

خرجت سمية من غرفتها لا تعرف ماذا تفعل، وتوجهت لغرفة رحمة، وطرقت الباب فجاءها صوت رحمة صارخًا ومخنوقًا:

- ماحدِّش ليه دعوة، سيبوني في حالي!

- أنا سمية يا رحمة، افتحي بعد إذنك.

لم ترد رحمة، فطرقت سمية الباب عدة مرات فلم تسمع ردًا، همت بالانصراف، لكن صوت انفتاح قفل الباب أوقفها، فالتفت نحو الباب لتجد رحمة واقفة على الباب في صورة مزرية أدخلت الشفقة في قلب سمية.

ألقت رحمة نفسها في حضن سمية منهارة باكية، سحبتها سمية داخل الغرفة مرة أخرى، فتوقفت رحمة وقالت:

- مش عايزة أدخل جوة.

- خلاص تعالي نقعد في أوضتي.

قالتها سمية، ثم دخلت الاثنتان غرفة سمية، جلست سمية على الأرض وقد أولت ظهرها إلى الحائط ومدَّت قدميها، فيما جلست رحمة القرفصاء على السرير.

قامت سمية فأحكمت إغلاق الباب، وعادت لجلستها مرة أخرى، ظلت رحمة ترمق سمية بنظرات حزينة خائفة، قطعت سمية الصمت قائلة:

- لو مش عايزة تتكلمي معايا، براحتك ومش هضغط عليكي.

انفجرت رحمة باكية بقوة، رقَّ قلب سمية لحالها فقامت وجلست بجوارها على السرير ثم احتضنتها وربتت على كتفيها ورأسها وهي تقول:

- براحتك يا حبيبتي، خليكي على راحتك..

- لا أنا محتاجة أتكلم.

- لو مش قادرة بلاش.

- أنا تعبت ولازم أتكلم.

ناولت سمية رحمة زجاجة مياه بجوار السرير، فشربت منها قليلاً ثم تنفست بصعوبة وقالت وهي ترتجف:

- أنا خنت حامد..

يبدو أن سمية لم تستوعب ما سمعته، فقالت:

- خنتي جوزك، مع مين؟

- مع عصام..

- عصام مين، صاحب جوزك!، وحامد عرِف؟

- لا..

- أومال إيه اللي مبهدلك كده؟

- زياد خطيب ريهام شافنا مع بعض؟

- شافكوا ماشيين ولّا حاجة تانية؟

- لا شافنا ماشيين عادي بس كنا منسجمين أوي..

بلعت سمية ريقها بصعوبة، وفركت جبهتها وقالت:

- ممكن لو زياد اتكلم، تقولي أي حجة..

هزت رحمة رأسها في أسى ويبدو أنها تستعد لنوبة بكاء جديدة وهي تقول:

- اللي بيني وبين عصام كان أكتر من كده!

- أكتر من كده إزاي يا رحمة!

انفجرت رحمة باكية وتحدَّثت بانهيار، أما سمية فاحترمت حالة رحمة السيئة وتحملت في صبر حتى هدأت رحمة قليلًا، وبدأت تتحدث وهي ترتجف والكلمات تتدحرج من شفتيها ببطء.

****

"تعلقتُ به كما يتعلق الطفل الصغير بأمه، أصبحتُ لا أستطيع أن أعيش دونَ رؤيته أو حتى سماع صوته يوميًا على أقل تقدير.

أما هو فاستطاع بسهولة أن يحكُم سيطرتهُ عليَّ، بحكم خبرته في التعامل مع النساء والتي اكتشفتها بعد ذلك، يراني ويعاملُني دومًا كفتاة مراهقة تسعى لتنال إعجاب جارها أو زميلها الوسيم، وهذا أعجبهُ طبعًا وأرضى غروره.

أما أنا على الرغم من تعلُّقي الشديد به، دائمًا قلقة وخائفة من معرفة حامد بحقيقة علاقتي مع صديق عمره الوفي، لا أستطيع مواجهة زوجي وهو لا يستطيع أن يواجه صديقه؛ لذلك كانت فرص اللقاء بيننا قليلة، نقضي وقتنا سويًا في العشق ويتغزَّل كُلٌّ منا في الآخر، حتى مُحادثُتنا الهاتفية مليئة بعبارات الحب والهيام.

أغرقني بكلامه الجميل - بحكم خبرته - وتلقفته بلهفة وشوق - بحكم طيبتي وسذاجتي - تركته يُداعب مشاعري وخيالي، كلامي معه على قلته يدور في فلك كلمة واحدة لا أغيرها "أُحبك"، وعصام على العكس منِّي تمامًا، كان يستمتع كثيرًا بسماع صوتي عندما أتحدث، الوله والرغبة في صوتي واضحان يصرخان بقوة ليُعيدا للأصمّ قدرته على السمع، يتعمد ذلك دائمًا إحكامًا لسيطرتهُ عليَّ.

يعرف صديقه جيدًا، منذ الصغر، لهما من المغامرات ما يكفي لملء مُجلدات مليئة بالإثارة، لذلك كانت المفاجأة عندما علم بزواج صديقه بطريقة تقليدية، فتاة جميلة رأتها والدته فأعجبَتْهُ وقررت تزوجيه لأنها على علمٍ بمغامرات ونزوات ابنها.

عندما رآني لأول مرة في حفل خطبتي على حامد ثارت مشاعره تجاهي، رأيت ذلك في عينيه وحركاته، صحيح ربما أكون ساذجة لكنني أنثى في النهاية أشعر بالرجل عندما يهتم بأنثى ويرغب فيها، رآني جميلة وجذابة ومثيرة واشتعلت نفسه بالحقد على صديقه قائلًا "أنت محظوظ جدًا لوقوعك مع هذه الفتاة الرائعة"، أشعلت هذه الجملة تفكير عصام طوال الوقت، حتى جاءته الفرصة عندما قابلته مصادفة، استخدم أسلوبه الجذاب وأوقعني أنا الفتاة الساذجة في شباكه، تركني أبحث عنه، وتحقق مراده وتعلقت به حتى بعد أن تزوجت وأصبحت أمًا، عشقته من رأسي إلى أُخمص قدمي، أنا لا أكذب، حتى جاءت الفترة التي هجرني فيها حامد، ماذا أفعل، قابلت عصام في إحدى المرات فعرض أن يُقدِّم مساعدته في إصلاح علاقتي مع حامد، لقد اشتقت لزوجي، ولم أجده، وحدث بيننا ما يحدث بين الرجل والمرأة حين يلتقيان.. وحدهما.. وكان اللقاء الأول، والذي تكرَّر كثيرًا مع ازدياد هجر حامد لي وفي نفس الوقت الذي كان فيه عصام يُحاول إعادة علاقتي مع زوجي لنسقها الطبيعي، حتى حملت منه ابني الأصغر.. ياسر.. نعم ياسر ليس ابن حامد، بل هو ثمرة عشقي لعصام الذي استقبل خبر الحمل وخبر الولادة بفرحة لا تُوصَف، عكس حامد الذي استقبل خبر حملي بطفل جديد بفرحة باهتة بكلمة واحدة.. "مبروك يا حبيبتي"، قالها لي حامد كأنه يُمن عليَّ بأن جعلني حاملاً، بل ولم يحضر ولادة طفله.. أقصد طفل عصام.. الذي رأيت فيه ملامحه، وخصوصًا لون بشرته، والأدهى أن عصام حضر ولادة طفله كصديقٍ للعائلة لا كأب، تمنيت أن يكون عصام هو زوجي لا حامد، عصام يعشقني وأنا أعشقه، كنت أتمنى أن يطلِّقني حامد، لأتزوج عصام، سأرتاح وقتها من إهمال حامد، وأكتسب مزيدًا من حب وحنان وعشق عصام لي.

الأمر لم يتوقف عند ذلك فحسب، لقد غُصت أكثر في مُستنقع الخيانة، مع زياد خطيب ريهام، انتهز فرصة معرفته بعلاقتي مع عصام، فابتزني وطلب لقائي

مقابل صمته، غوصٌ أكثر في المستنقع، ولقاءات كثيرة بيننا، وفي إحدى مرات لقائي بزياد وكان مخمورًا ومُخدَّرًا قال لي لماذا فسخَ خطبته من ريهام، لقد أخذ منها مبتغاه، تحت شعار الحب، استسلمت له كما استسلمتُ أنا لعصام، تحت شعار الحب، وما أروعه من شعار!

لن أنكر حبي الشديد لعصام، ولن يُنكره هو إلا إذا كان جبانًا، تملَّكه الخوف عندما أخبرته بمعرفة زياد بعلاقتنا، واجه خوفي ببرودٍ، وهرب، فتيقنت أنه بلا شك.. جبان!!"

اتسعت عينا سمية عن آخرهما، وهي تسمع كل كلمة من كلمات رحمة، التي انفجرت عيناها من الدموع، واستحال بياض عينيها دمًا، تبكي بُحرقة وتنهنه وقد دفنت وجهها في كفيها، وسمية تتجول في الغرفة غير مصدقة لما سمعت، ثم جلست على الأرض وظلت تنظر لرحمة بإشفاق.

****

- وإيه كمان يا رحمة؟

سألها حامد وكأنه لم يكفِه ما سمعه، فأكملت رحمة:

- عاوز تعرف إيه تاني؟

- في حاجة تانية حصلت؟

- لا مفيش حاجة خالص.

- طب وإيه رأيك في بقية العيلة؟

- هقولك، باباك أنا حسَّاه غامض ومخبي حاجات كتيرة، ومامتك طيبة أوي وحنينة، اللي صعبانة عليَّا فعلاً ريهام، نفسيتها بقت وحشة أوي ولازم تشوف حل.

- طب وسمية؟

- سمية طيبة وغلبانة، أنا حكيتلها على كل حاجة بعد ما زياد عرف وبعد ما عصام عرف إن زياد عرف.

- حكيتيلها على كل حاجة؟

- أيوه.

أطلق حامد صرخة قبل أن يكمل:

- وانتي مش خايفة إنها تقول لحد أو حتى تقولي أنا.

- لا.

- والثقة دي سببها إيه؟

- مش عارفة، بس حاساها شخصية أمينة وممكن الواحد يعتمد عليها.

- رحمة إنتي مش خايفة مني بعد كل اللي قولتيه؟

حركت رحمة رأسها بصعوبة نافية للسؤال وقالت:

- لا، عشان مش هتعمل حاجة، إنت الدنيا عندك كلها عادية، آخرك ممكن تطلقني.

- ولو طلقتك؟

- هتجوز عصام ونعيش مع بعض أنا وهو وياسر ابننا.

نظر حامد لساعته، فوجد أنه هناك أقل من دقيقة على انتهاء المفعول، نظر لرحمة نظرات استحقار، وعندما لمح عليها بوادر الاستفاقة، أوقف تسجيل الكاميرا وركض ناحيتها وحملها وسار وهو يحملها نحو الشرفة التي كانوا يجلسون فيها، أجلسها وجلس بجوارها وأراح رأسها ثم أمال جسدها ناحيته ثم أحاط رقبتها بذراعه وأغلق عينيه.

تململت رحمة في جلستها وفتحت عينيها فوجدت نفسها في أحضان زوجها

الذي غلبه النوم، أزاحت جسدها عن جسده برفقٍ قبل أن تربت على وجهه بحنانٍ بالغٍ:

- حامد، إصحى يا حبيبي.

كررت كلماتها وهي تمسح وجه زوجها بِرِقَّةٍ لإيقاظه، فتح حامد عينيه مُتصنعًا النعاس، فأردفت رحمة قائلة:

- هو إيه اللي حصل يا حبيبي؟

مسح حامد كفيه في وجهه ليستفيق، ثم قال:

- إنتي نمتي على كتفي ونمت بعدك على طول.

ابتسمت رحمة برقة وقالت هامسة وهي تربت على وجهه:

- أنا آسفة يا حبيبي، بوظت الليلة.

- ماتعتذريش يا حبيبتي، إنتي كنتي عاملة زي البيبي الصغير اللي نام من التعب.

ضحكت رحمة لدعابة زوجها، وقامت تنظر له حالمة وباسمة، ثم قالت:

- هنعوَّض كل الل فاتنا، أنا هطلع أجهز الدنيا فوق دقايق وتعالى.

هز حامد رأسه باسمًا، نظر لها وهي تبتعد عنه وتخرج من الشرفة، خرج وراءها بثوانٍ فوجدها تصعد الدرج للطابق العلوي، التفتت له وابتسمت وألقت له قبلةً ثم انعطفت للداخل. ظل حامد واقفًا ينظر بامتعاضٍ للمكان الذي اختفت فيه، بصق بدلاً من أن يستقبل القبلة المرسلة له، وقال:

- زانية.

زفر حامد بقوة قبل أن يقول:

- حسابك تقيل معايا يا عصام إنت وزياد.

أخرج حامد هاتفه وبحث في الأسماء المسجَّلة، ضغط اسم زياد ثم ضغط زر الاتصال، ظلَّ الرنين يدب في أذنه إلى أن انفتح الخط وسمع صوت زياد وهو يقول:

- حامد باشا، أخبارك ايه؟

- سِبت ريهام ليه يا زياد؟

- النصيب يا ريس.

- أنا عاوز أقابلك.

- يا ريس مفيش داعي، أصل...

قاطعه حامد بهدوءٍ:

- ريهام مش عايزة تتكلم، سِبني أعرف السبب منك على الأقل.

- حاضر يا ريس.

- يومين وهكلمك، سلام.

أنهى حامد المكالمة دون انتظار ردٍّ من زياد ثم زفر بغضب قائلاً:

- كشف الحساب بيتقل شوية بشوية.. واضح إن فريد كان عنده حق في اللي قاله.

- يلا يا حامد كل حاجة جاهزة.

جاء صوت رحمة ساحرًا وهي تناديه، نظر حامد ناحية مصدر الصوت وهو يصعد الدرج وعلى وجهه علامات الامتعاض والإحباط والكراهية، ويُتمتم:

- زانية يا رحمة، إنتي زانية يا رحمة.

***

على النقيض من الحالة التي سافرا عليها، كانت رحلة العودة، ازداد تراكم الجليد من طرف حامد الذي يسترق نظرات ظاهرها العشق والوله برحمة وباطنها اللعنة والاحتقار لما عرفه منها وهي غائبة جزئيًّا عن الوعي، أما رحمة فظلت طوال الرحلة تُشاكس زوجها في لطفٍ لتؤكد لنفسها أن الأمور بينهما قد عادت لنصابها الطبيعي. تظاهَر حامد بمجاراتها فيما تفعله وبداخله بركان غضب ثائر لحظات وينفجر لكنه يتحكم فيه ببراعة، ولم تفلح الموسيقى المنسابة في تهدئة بركان الغضب بداخل حامد، لكنها أفلحت مع رحمة التي غابت مع الموسيقى، نظراتها وحركات جسدها تدل على ذلك، سعيدة بعودة العلاقة الجيدة مع زوجها، وفي أوج انسجامها أمسكت يد زوجها وقبَّلتها قائلة:

- أنا آسفة لو زعَّلتك في يوم.

نظر لها حامد مبتسمًا بنفس النظرات السابقة، ثم قال:

- وأنا كمان.

وصلا القاهرة ليلًا، دخلا متشابكي الأيدي ليجدا فايزة وريهام وسمية جالسات على طاولة الطعام، فقالت رحمة مازحة:

- حماتي بتحبني!

التفت لها فايزة وقالت ضاحكة وهي تقوم متجهة إليهما:

- طبعًا بتحبك!

قبَّلا بعضهما البعض كأن رحمة كانت مسافرة لمدة طويلة، ثم قامت ريهام وسمية واتجهتا حيث يقف الباقون، استقبلوهما بوّدٍّ، فاستأذنت سمية في الانصراف وهي تنظر لرحمة وترى حالها وقد اختلف عن ذي قبل. التقطت رحمة إشارة سمية بابتسامة وهزة خفيفة من رأسها، قبل أن تقول:

- رايحة فين يا سمية؟ خليكي قاعدة معانا.

- أنا هعيط من الفرحة اللي أنا شايفاها والله يا جماعة، هستأذن أنا عشان عندي شغل بكرة بدري، حمد الله ع السلامة. تصبحوا على خير.

قالتها سمية وانصرفت في هدوء صاعدة الدرج متجهة لغرفتها، جلس الباقون على طاولة الطعام، ريهام وفايزة ورحمة يتحدثن ويمزحن ويضحكن، أما حامد فجلس يأكل في صمت، وهو ينظر لهم باسمًا، وعندما فرغ من طعامه نهض وقال:

- براحتك انتي يا رحمة، أنا هطلع آخد دش.

- ماشي يا حبيبي!

صعد حامد لغرفته، دخلها وألقى بجسده على السرير مُحدقًا في السقف، ظلَّ على هذا الوضع لفترة قبل أن ينتبه لرحمة الواقفة أمامه.

- مالك يا حامد؟

- تعبان من السفر والسواقة.

أجابها حامد دون أن ينظر إليها أو يقوم من مكانه، جلست رحمة بجواره وقبَّلت رأسه وقالت:

- عارف أهم حاجة إيه؟

نظر لها مستفسرًا قبل أن تكمل هامسةً وهي تقترب من وجهه:

- إننا رجعنا لبعض.

***

تقلبت رحمة في السرير فلم تجد حامد بجوارها قامت مفزوعة تبحث عنه في الحمَّام والشرفة فلم تجده، أمسكت هاتفها وطلبت رقمه، رنين متصل بلا إجابة، حاولت عدة مرات والنتيجة مُكرَّرة، لا إجابة، خرجت للشرفة مرةً أخرى ونظرت

ولم تجد سيارته في مكانها، ظلّتَ واقفة في الشرفة صامتة وظهرت عليها علامات الحزن، فقالت بأسى:

- كده حامد رجع لحالته القديمة.

وأثناء ما هي في الشرفة كان حامد ينهب الطريق نهبا غير مبالٍ بأية عواقب من الممكن أن تحدث نتيجة السرعة الجنونية التي يقود بها، بدأ الزحام يزداد مع ساعات الذروة، وصل إلى المكان المقصود، أوقف سيارته وأغلقها بسرعة ودخل المبنى وصعد درجات السُلم عدوًا، حتى توقف لما رأى شخصًا يقف أمام باب إحدى الشقق والذي ما إن لمح حامد واقفًا خلفه حتى صاح غاضبًا:

- عاوز إيه تاني؟!

ردَّ حامد بغضب هو الآخر:

- هكون عاوز إيه يعني؟ عاوز أخوك.

فتح محمود المليجي الباب ثم دخل وأغلق الباب خلفه دون أن يعير حامد أدنى اهتمام، استشاط حامد غضبًا من الموقف، فطرق بقوة على الباب السميك عدة مرات حتى انفتح الباب وظهر خلفه محمود المليجي الذي استقبل لكمة قوية من حامد طرحته أرضًا، دخل حامد الشقة وأغلق الباب ونظر للمليجي الملقى على الأرض وقال بعصبية:

- فريد فين؟

- أنا هنا، مين عايزني؟

قالها فريد وهو قادم من الداخل ممسكًا بكوب من الشاي وسيجارة وما إن رأى حامد واقفًا والمليجي راقدًا على الأرض، قال ضاحكًا:

- طول عمرك هفية يا مليجي.

ثم نظر لحامد وقال مبتسمًا بأسى:

- حمد الله على السلامة، شكلك عندك كلام كتير، صح.

أومأ حامد برأسه موافقًا على ما قاله فريد، ثم جلس وأشعل سيجارة من علبة أمامه، ونظر لفريد وقال بنبرة حزينة:

- كان عندك حق في كل اللي قُلته يا فريد.

شرب فريد ما تبقى من شاي دفعة واحدة وقال:

- صلي على النبي كده، نفطر وبعدين نتكلم، وانت يا كروديا قوم حضِّر الفطار.

عاد فريد للداخل مجددًا، فقام حامد وساعد المليجي على النهوض وهو يقول:

- قوم حضر الفطار، يا هفأ.

***

(25)

- فعلاً كان عندك حق في كل اللي قُلته!

قالها حامد مُحبَطًا وهم جالسون يتناولون الإفطار، المليجي يأكل ببطءٍ ولا يلتفت لأحد، أما فريد فيأكل بنهم كعادته، ابتلع ما في فمه من طعام بصعوبة وبمساعدة من بعض الماء ثم قال بهدوءٍ:

- أكيد عرفت بلاوي..

لم يجب حامد وأشار بيده خفية نحو المليجي الذي لا زال يأكل، لمحه المليجي يشير نحو فقال متأففًا:

- ماتتعبش نفسك، أنا خلصت أكل.

قالها وقام مُبتعدًا عنهما ثم التفت فجأة وقال لحامد:

- قهوة ولا شاي؟

- قهوة سادة.

انصرف المليجي ودلف المطبخ تاركًا أخاه وحامد جالسين وحدهما. قام فريد ثم خرج للشرفة وتبعه حامد، جلس الاثنان صامتين لفترة يدخنان حتى دخل عليهما المليجي حاملًا كوبين من القهوة وضعها وانصرف دون كلمة واحدة.

- إيه اللي حصل؟

سأل فريد، فأجاب حامد بصوت حزين قائلاً:

- مراتي طلعت خاينة، وبتخونِّي مع عصام صاحبي، وخلّفت منه ابني ياسر وقولتلها لو طلقتك هتعملي إيه؟ قالتلي هتجوز عصام عشان بحبه وبيحبني.

- يا نهار مهبب..

- هو إيه اللي نهار مهبب؟، أنا جايلك عشان آخد رأيك أعمل إيه؟

- إنت جربته على حد تاني؟

- لا.

- يبقى ماتعملش حاجة وكفاية اللي عرفته.

- إزاي ما أعملش حاجة؟

قالها حامد بحدة، استقبلها فريد بهدوء قائلًا:

- أنا مش المفروض أقولك الكلام ده، بس ممكن تعتبرها نصيحة، خلَّص تجاربك كلها وبعدين عامل كل واحد بطريقة مختلفة حسب السر اللي مخبيه، وأرجوك ماتعملش حاجة غلط، لو هُمَّا غِلطوا بلاش تغلط غلطة أكبر منهم.

- قصدك ما أتهورش.

- تمام كده..

شرب حامد قهوته دفعة واحدة ليجعل مرارة القهوة تُنعِش تفكيره، تبعها بإشعال سيجارة جديدة، ثم قال:

- عندك حق يا فريد، عندك حق، فعلاً لازم أعامل كل واحدة حسب اللي مخبيه.

قالها وأطفأ سيجارته في كوب القهوة وهبَّ واقفًا واتجه لباب الشقة يتبعه فريد الذي قال:

- رايح فين؟

أجاب حامد الذي فتح الباب وخرج منه والتفت لفريد:

- هعمل بنصيحتك.

أومأ فريد برأسه مؤيدًا القرار ثم قال:

- طب مفيش حاجة كده؟

دون أن يجيب حامد أو يلتفت فتح الحقيبة الصغيرة التي لا تفارقه أبدًا وأخرج منها رزمة مالية كبيرة ألقاها مبتسمًا لفريد الذي التقطها مبتسمًا هو الآخر.

أغلق حامد الباب خلفه ونزل درجات السلم بهدوءٍ يفكر فيما هو آتٍ، بينما فريد جالس في الصالة يعد النقود التي تركها له حامد وعلى وجهه ابتسامة بلهاء.

- إيه الفلوس دي؟

قالها المليجي وهو يجلس بجوار أخيه المنهمك في عَدِّ النقود، أمسكها المليجي من يديّ فريد وقال:

- دول ليك لوحدك؟

- لا يا زفر.

أمسك فريد الأوراق المالية مجددًا وسحب جزءًا منها وأعطاه للمليجي وقال:

- روح هات لنا الغداء وشوية حلويات.

- وأنا فين؟

- لما تيجي.

- لما آجي يبقى هتضرب عواف عليهم.

قالها المليجي وقام وخطا خطوات مبتعدًا عن أخيه الذي مدَّ قدميه، فتعرقل المليجي وسقط أرضًا على وجهه، فقفز فريد فوقه ضاحكًا وهو يقول:

- ضحكت عليك يا هفأ.

ثم دخلا في شجارٍ جديدٍ.

***

عندما رأت ريهام وجه ذلك القادم نحوها برفقة أخيها تبدَّلت ملامحها للغضب العارم، وكأنما رأت شيطانًا، احمرَّ وجهها غضبًا، وتعرقت يديها وظهرت أمارات التوتر عليها حتى كادت أن تكسر أصابعها من فرط الغضب، فصاحت قائلة في غضبٍ:

- إيه اللي جاب الحيوان ده هنا يا حامد؟

وصل حامد وزياد حيث تقف ريهام، فقال زياد متهكمًا:

- هي دي وعليكم السلام بتاعتك؟

لم يملك زياد من الوقت الكافي لتفادي الصفعة القوية التي صفعتها له ريهام، وكذلك حامد لم يملك ذلك الوقت، وفوجئ بردِّ فعل أخته تجاه خطيبها السابق، جعلت تلك الصفعة حامد الفضول والأسئلة يغليان في رأسه عن سبب تحوُّل العلاقة بينهما من الحب الجارف إلى كراهية واضحة تظهر أمامه جلية.

قبلها بساعات، دخل زياد على حامد في مكتبه بمقر عمله، استقبله حامد بوجهٍ خالٍ من أي تعبير، توجَّسَ زياد خوفًا من تلك المقابلة منذ أن تحدَّد موعدها، فماذا يريد منه؟ من الواضح أن ريهام لم تتحدث عمَّا حدثَ بينهما، وإلا وقد وجد نفسه مقتولًا منذ فترة، نعم هم أرستقراطيون وأغنياء لكن لمح فيهم بعضًا من العصبية القِبَلية التي من الممكن أن تفتك به فور علمهم، إذًا ريهام خائفة، لكن على كل حال سينكشف أمرها قريبًا إما أن تكون حاملًا في طفله أو عند زواجها بمغفل.

- سرحان في إيه يا زياد؟

قالها حامد ليعيد زياد إلى أرض الواقع، اعتدل زياد في مقعده وهو يقول:

- أبدًا، مش فاهم سبب المقابلة دي بصراحة، الموضوع انتهى.

رد حامد بهدوءٍ:

- الموضوع لسه شغال، ريهام مش عايزة تتكلم، وكل اللي بتقوله مفيش نصيب..

قال زياد مقاطعًا:

- فعلًا مفيش نصيب، بعد إذنك..

قام زياد من مقعده وهمَّ بالرحيل، فصاح حامد في غضب:

- اقعد.

قالها واندفع نحو زياد وأمسكه من رقبته وأجلسه عنوةً ثم جلس في الكرسي المقابل له، وفتح علبة فخمة أخرج منها سيجارتين، أعطى واحدة لزياد وأشعل واحدة لنفسه. نظر حامد لزياد متفحصًا وجهه ثم وضع سبابته اليمنى في منتصف جبهة زياد وضغط بقوة، ثم قال بصرامة:

- لو عملت حاجة في ريهام، إنت عارف.

ابتلع زياد ريقه بصعوبة، وفكَّر في الهرب لكنه تراجع سريعًا، فهو لا يجلس في مكان عام، ظنَّ زياد أن حامد يتلاعب به، يعرف ما حدثَ بينهما ويتصنع الجهل، تنفَّس في هدوء ليتمالك أعصابه ثم قال:

- اتخانقنا لما عرفت إن ليا علاقات.

تراجع حامد في كرسيه متصنعًا عدم معرفته بحقيقة ما حدث، ثم قال والاهتمام يملأ كلماته:

- علاقات إيه؟

- عرفِت إني بتاع نسوان..

- وإيه يعني، ما كلنا بتوع نسوان.

- أيوه، بس مش مع صاحبتها.

قالها زياد ضاحكًا، فضحك معه حامد، فقال حامد وهو لا يزال يضحك:

- مع مين؟ صاحبتها؟

- نرمين.

- هوباااااااااااااااا، يا ابن اللعيبة دي البت جامدة، وقّعتها إزاي؟

ضحك زياد، ثم قال:

- نرمين أصلاً شمال، وهي كانت عاوز تتعرف عليَّا من زمان.

ردَّ حامد سريعًا:

- وانت ما صدقت؟

- وش طبعًا..

قام حامد وعاد للجلوس على مقعد مكتبه:

- أنا عاوزك إنت وريهام ترجعوا لبعض؟

- ليه؟

- حالة ريهام مش عجباني، نفسي أفهم ليه، لو كنت عرفت من بدري كان زمان كل حاجة محلولة، المهم جهز نفسك عشان هنسافر النهارده الساحل الشمالي.

- النهارده؟ طب والشغل؟

قال حامد وينظر لزياد نظرة ذات مغزى:

- شغل إيه، هنقرَّع على بعض، ما أنا عارف اللي فيها، وانت عارف اللي فيها.

ابتسم زياد ثم قام وعدل ملابسه وقال:

- أوكي، هروح أجيب حاجتي وأرجع.

قال حامد آمرًا:

- ماتجبش حاجة، هتيجي كده، أنا مجهز كل حاجة، اسبقني ع الجراج، هخلَّص حاجة سريعة وأجيلك.

- ماشي.

قالها زياد وانصرف وأغلق الباب خلفه. ظل حامد ساكنًا لفترة يعيد ترتيب أفكاره، رتب بعض الأوراق المتراصة على المكتب وهو يقول:

"هنشوف إيه اللي هيحصل يا زياد، هنشوف.."

تلك الحالة التي يقف أمامها الآن على النقيض تمامًا من السبب الذي ساقه زياد لحامد.

لذا على الفور أمر حامد ريهام وزياد بركوب السيارة، ومن خلفهما جاءت رحمة واتجهت نحو السيارة ثم قالت:

- اركب جنب حامد؟

هبط زياد دون تردد أو نقاش تاركًا لرحمة مكانه بجوار ريهام في المقعد الخلفي والتوتر يضرب أوصاله، وبعدها ركب حامد خلف عجلة القيادة وأدار المحرك وسار بالسيارة دون كلمة واحدة.

وطوال الطريق لم ينطق أحدٌ بكلمة واحدة، الوجوم يطغى على الجميع، إلا حامد الذي حاول كسر حاجز الصمت بإطلاق الدعابات التي اختلف تأثيرها على رفقاء الرحلة، زياد يضحك بتوتر مجاملًا، رحمة صامتة في الخلف بجوار ريهام

التي أخفت عينيها الزائغتين خلف نظارة سوداء، وقد ولَّت رأسها للطريق من حولها، تحدثها رحمة فلا تستجيب، تنظر لها وتبتسم بمرارة ثم تعود لمتابعة الشريط الأصفر الساخن على جانب الطريق، وبين اللحظة والأخرى ينظر حامد في المرآة الكبيرة في منتصف مقصورة القيادة ليخطف نظرات لرحمة، ثم ينظر لزياد فتشتعل النيران بداخله، ولما رآها تنظر له بحنانٍ أجبر عضلات وجهه على الابتسام ليشعرها بأن الأمور على خير.

بعد ساعات من السفر وصلوا للقصر الذي شهد أول تجربة منذ أيامٍ، عدل حامد من خطته السابقة بتحديد المكان الملائم لكل شخص في قائمة شكوكه.

هبطوا جميعًا من السيارة، أشعل زياد سيجارة بمجرد هبوطه من السيارة ثم دار في خطوات بسيطة ليريح عضلاته من عناء السفر، بعدما رفض حامد التوقف، ريهام توجهت على الفور للأرجوحة المطلّة على الشاطئ تبعتها رحمة على الفور بإشارة خفية من حامد الذي أشعل سيجارة هو الآخر ثم قال لزياد:

- تفتكر ممكن أصالحكم إزاي؟

أجاب زياد بلا مبالاة:

- مش عارف، مش فارق معايا حاجة.

استفز الرد حامد فاقترب من زياد وأمسكه من تلابيبه وهمَّ بأن يصفعه على وجهه، لكن صوت رحمة التي اقتربت منهما وهي تركض نحوهما وهي تقول: "مفيش داعي للي هتعمله يا حامد، نحاول نصلح الدنيا بالعقل".

تصنَّع حامد الاقتناع برأي رحمة، فترك زياد بعد أن دفعه بعيدًا، ثم قال:

- كله يطلع يستريح وبالليل نتكلم على العشاء.

ثم نادي على ريهام، فلم تسمعه، وجدها وقد وضعت السماعات في أذنيها

وبدأت تتمايل مع الموسيقى في انتشاءٍ تامٍ، تركها في حالها، وأمسك بيد رحمة، ثم أشار لزياد أن يسير أمامه للداخل.

تحرَّكَ زياد دون تردد، ونظر لحامد ورحمة بسخرية وهو يمر بجوارهما، استفزت تلك النظرة حامد وكاد أن يفتك به لولا أنه مضطرٌّ للصبر حتى يعرف ما يخبئه زياد بداخله، وكذلك أشعلت تلك النظرة بركانًا من الخوف بداخل رحمة، خوفًا من اندفاع زياد وزوجها لكيلا تنكشف علاقتها العابرة بزياد.

فغر زياد فاه لما رأى القصر من الداخل، ثم أطلق صفيرًا منغمًا، وأعلن انبهاره بالقصر ومحتوياته قائلًا:

- ولعانة يا عم حامد، فشيخ القصر ده.

لم ينطق حامد بكلمة لرد حسد الحاسد الذي جلبه بإرادته لهذا المكان، كل ما قاله وهو يشير بيديه:

- خُش الأوضة اللي هناك لحد العَشا وماتخرجش منها، وهبعتلك هدوم.

استفز زياد حامد بالصفير مجددًا، وسار ببطءٍ نحو الغرفة المشار إليها، دخلها وأضاء المصابيح ثم التفت وهو يغلق الباب ولا زال يصدر ذلك الصفير المستفز، تلك المرة لم يُعِره حامد اهتمامًا، لكن رحمة ازدادت توترًا وخوفًا من انكشاف أمرها.

صعدت رحمة وحامد لغرفتهما في الطابق العلوي دخلاها فنظرت رحمة لحامد بعينين مبتسمتين استقبل حامد نظراتها أحسن استقبال، ثم قال:

- ثواني هخلص من الطور اللي تحت وآجيلك.

ضحكت رحمة من قلبها، وهي ترى حامد يلتقط بعض الملابس ويخرج من الغرفة عدوًا هابطا السلم ومتجهًا نحو الغرفة التي أمر زياد بالجلوس فيها، وجدَ

الباب مفتوحًا ولا أثر له فيها، خطر بباله أنه خرج ليتطفل على ريهام، خرج حامد من الغرفة بسرعة متجهًا للشرفة الكبير، لكنه وجد باب غرفة المكتب مفتوحًا، وزياد واقفًا أمام المكتب يعبث بمحتوياته، اندفع نحو زياد كفهدٍ جائعٍ يندفع نحو فريسته، انقض عليه وصاح:

- بتعمل إيه هنا؟

التفت زياد وفي فمه سيجار فخمٌ وقال:

- في إيه يا عم حامد، إيه الدَّخْلَة دي؟

- بتعمل إيه هنا؟

- يا سيدنا بالراحة، لقيتك اتأخرت عليَّا، قولت أمشِّي رجلي، فيها حاجة دي.

ألقى حامد الملابس التي بحوزته نحو زياد بكل ما أوتي من قوة، جعلت زياد يتراجع للخلف قليلًا، ثم سحبه بعنف نحو الخارج، حتى وصلا لغرفة زياد أدخله فيها حامد عنوة، وأغلق بابها عليه ووضع المفتاح في جيبه، ثم اتجه للشُرفة ليتابع ريهام فوجدها وقد غلبها النعاس، أشفق عليها مما هي فيه، فتركها نائمة، وصعد لرحمة، فوجدها نائمة كالطفل الرضيع، خلع ملابسه وبدلها بأخرى، وألقى بجسده بجوارها وأسلم عينيه للنوم هو الآخر.

استيقظت رحمة مفزوعة من نومها، ثم جلست على السرير وغطت وجهها بكفيها، وانتفض حامد بدوره واعتدل على الفور وجلس بجوار زوجته محاولًا تهدئتها، ربَّت على كتفها عدة مرات ثم احتضنها وقال بصوتٍ نائمٍ:

- مالِك؟

لم تُجِب رحمة وبدأت تتنفس بعصوبة، قام حامد واتجه نحو الثلاجة الصغيرة المجاورة للسرير وأخرج زجاجة مياه فتحها وصب منها في كوب وناوله لرحمة التي ارتشفت منه قليلاً وهي ترتجف.

- مالك يا رحمة في إيه؟

أجابت رحمة بتوتر:

- حلم غريب.

- حلم إيه؟

- مش لاقية له تفسير.

قالتها وقامت ترتدي ملابسها على عجل، بينما ظلَّ حامد ينظر لها باستغراب، انتهت من ارتداء ملابسها ثم وضعت بعضًا من مساحيق التجميل وعادت حيث يجلس زوجها وقالت:

- أنا هحضَّر العَشَا..

خرجت من الغرفة تاركة حامد غارقًا في بحرٍ من الأسئلة عن ماهية الحُلم الذي رأته وجعلها مفزوعة ومرتبكة هكذا. قام حامد من مكانه بصعوبة ولا زال يغلبه النوم، اتجه للحمَّام وألقى بجسده في حوض الاستحمام ليستفيق، أنعشه الماء البارد، خرج وارتدى ملابسه، ونزل للطابق السفلي واتجه نحو المطبخ فوجد رحمة مشغولة في تحضير طعام العشاء.

- أساعدك في حاجة؟

- ميرسي يا حبيبي، أنا هعمل كل حاجة.

- ماشي، أنا في المكتب لحد ما تخلصي.

- أوكي.

خرج من المطبخ متجهًا للمكتب، فمرَّ بالشرفة دلفها ولم يجد ريهام، فعاد للمطبخ مجددًا:

- ريهام فين يا رحمة؟

- طلعِت فوق عشان تغَّير هدومها.

خرج حامد من المطبخ مجددًا، واتجه نحو غرفة المكتب مارًا بالغرفة التي يستقر فيها زياد فوجد مصباح الغرفة مضيئًا، دلف غرفة المكتب وأغلقها جيدًا خلفه، اتجه للخزينة وفتحها وأخرج تلك العلبة الصغيرة التي تحوي عقاره السحري، وأخرج ثلاثُ قنينات وضعهم في جيبه ثم أعاد العلبة للخزينة، وسار نحو الكاميرا المجاورة لكرسي المكتب، وتأكد من أن سعة التخزين تكفي لساعة أخرى من الحقيقة، أعدَّها سريعًا بعدما سمع صوت رحمة تنادي عليه ليساعدها في ترتيب العشاء.

خرج من المكتب دون أن يغلق بابه، ذهب لغرفة زياد وفتحها ليجده جالسًا القرفصاء على السرير بسرواله الداخلي فقط، فقال حامد:

- إنت قاعد كده ليه؟

- عادي مفيهاش حاجة؟

- عادي.. طب البس عشان العشاء جاهز.

قالها حامد وخرج وأغلق الباب خلفه، واتجه للمطبخ فوجد ريهام تساعد رحمة، وقد تزينت كما تتزين العروس يوم زفافها، باستثناء الفستان.

- إيه الجمال ده يا ريهام؟

ضحكت ريهام وقالت ساخرة:

- القرد في عين أمه غزال.

ضحك حامد ورحمة من قلبهما، ثم قالت رحمة مازحة:

- أحلى قرد طبعًا.

تدخَّل حامد وحمل بعض الأطباق وخرج ثم وضعها على طاولة الطعام التي

يجلس عليها زياد غير مبالٍ بالحركة من حوله، وضع حامد الأطباق دون أن ينظر له وعاد للمطبخ ليحمل أطباقًا أخرى، غاب للحظات ثم عاد ومن خلفه ريهام ورحمة، وضعوا ما يحملونه ثم جلسوا، زياد في مواجهة ريهام، ورحمة بجوار حامد.

ومثلما غلَّفَهم الصمت أثناء السفر، غلَّفَهم كذلك أثناء تناول الطعام، زياد يختطف نظرات سريعة لريهام، التي تأكل لقيمات وهي واجمة، تبادل خطيبها السابق نظرات ميتة وكأنها تريد أن تغرس السكين الذي في يدها في قلبه وعينيه وحنجرته وفي كل جزء من جسده، وهو ينظر لها ببرودٍ ولا مبالاة كأنما يقول لها "لقد أخذتُ رغبتي منك يا عاهرة"، لمح حامد بوادر التوتر ظاهرة على الحبيبين السابقين تنحنح قائلاً بصوت رخيم هادئ:

- بصوا يا جماعة، إحنا جايين هنا عشان نصفي أي خلافات بينا، فياريت نساعد بعض عشان ماتحصلش حاجة وحشة.

ساد الصمت على الجميع فأردف حامد قائلاً وهو ينظر لأخته:

- ريهام، مهما اللي حصل بينك وبين الزفت هجيبلك حقك، وانت يا هباب البرك هنفخ اللي جابوك لو كنت مديت إيدك عليها.

أجاب زياد باستفزازٍ وهو يرفع يديه عاليًا:

- بيس يا حامد باشا، أنا في السَّليم.

- هنشوف.

قالها حامد وهو يقوم ثم قال:

- هنقعد في التراس، تشربوا إيه؟

لم يجب أحد فأكمل حامد قائلاً:

- أنا هشرب قهوة وانت يا زيزو قهوة برضو، رحمة وريهام عصير.

قامت رحمة وقالت:

- أنا هقوم أحضر.

أجلسها حامد برفقٍ وقال:

- خليك انتي يا حبيبتي، ماتتعبيش نفسك.

توجه حامد للمطبخ الخارجي وصب كوبين من عصير البرتقال، ثم أفرغ في كل واحد منهما قنينة، ثم صب كوبًا صغيراً من القهوة، وأفرغ فيه القنينة الثالثة، ثم صبَّ لنفسه كوبًا كبيراً من القهوة، ووضع جميع المشروبات على صينية فضية وحملها وسار بها نحو الجالسين ووضع أمام كل منهم مشروبه، فقال زياد:

- إشمعنى أنا اسبريسو، أنا عاوز من التانية.

- عشان تصحصحلي ونعرف نتكلم.

احتسى زياد قهوته دفعة واحدة، فارتجف جسده من مرارة القهوة، وأصدر فحيحًا كأنما يلفظ أنفاسه وقال:

- إيه ده دي من غير سكر، بس قشطة خليها كده عشان تفوَّق الواحد.

وشربت ريهام ورحمة كوبيهما على دفعات.

وقف حامد ينظر لهم وعلى وجهه ابتسامة غامضة، ظل ينتظر حتى يبدأ المفعول، ولم يطل انتظاره كثيراً حتى لمح تأثير العقار عليهم، الأعين الزائغة والجسد الذي بدأت عضلاته في الارتخاء، وضع حامد كوبه وقال مخاطبًا الجميع بلهجة آمرة:

- تعالوا ورايا..

قام الثلاثة خلفه كالنيام نحو غرفة المكتب، وكان قد أعدَّ المكان مسبقًا قبل العشاء، بوضع ثلاثة كراسٍ ضخمة أمام المكتب، أجلَس رحمة على الكرسي في

المنتصف وجلست على يمينها ريهام وعلى يسارها زياد، ثم عاد حامد خلف المكتب وأدار الكاميرا وأشعل سيجارته وبدأ يتحدث.

- مساء الخير.

- مساء الخير.

ردَّ الجميع بهمهمات مقتضبة، فأكمل حامد بهدوءٍ:

- إنتم عارفين إحنا هنا ليه النهارده؟

أجاب الثلاثة في نفس التوقيت:

- عشان ريهام وزياد يتصالحوا.

- صح، بس أنا عاوز أعرف شوية حاجات الأول، مين حابب يتكلم الأول؟

صدر منهم أصوات، فهم منها حامد أن كُلاً منهم يريد أن يتحدث، ابتسم في سخرية وقال:

- أنا اللي هتكلم.

- أومأ الجميع برؤوسهم موافقين، فقال حامد:

- زياد، إنت بتحب ريهام ولا لا؟

- لا!

قالت ريهام غاضبة:

- مابتحبينش ليه يا زياد؟

- عشان أنا خدت اللي عايزه منك..

قال حامد متسائلاً:

- إيه اللي كنت عايزه؟

- كنت عاوز أعرفها، إزاي أسيب فرس زي دي من غير ما أعرفه!

قالت ريهام بلهجة مستنكرة:

- يعني عرفتني عشان جسمي؟

- أيوه، وفي الحقيقة أنا عمري ما حبيت عشان مش مقتنع بحاجة اسمها الحب، كل ده كلام فاضي. وبصراحة كده إحنا معانا فرسين هنا والاتنين جامدين أوي.

قالت رحمة بتعجب:

- بس أنا لما وافقتك كان عشان ماتقولش لحامد على علاقتي بعصام؟

قال زياد بعصبية:

- طبعًا، إزاي أسيب مومس زيك تفلت مني؟

قالت رحمة غاضبة وهي تحاول القيام من مقعدها لكنها سقطت عليه مُخدَّرة:

- أنا مومس، يا حيوان!

- اسكتي انتي يا رحمة دلوقت؟

قالها حامد آمرًا رحمة التي انصاعت للأمر فورًا، فأكمل:

- وانتي يا ريهام عاوز تقولي حاجة؟

دمعت عينا ريهام وهي تقول بأسى وتنظر لزياد:

- أنا مش مصدقة يا زياد إنك تطلع كده، ضحكت عليَّا وفاكراك بتحبني السنين دي كلها، خمس سنين وانت بتضحك عليَّا، مش مصدقة، وانتي يا رحمة بتخوني حامد مع عصام صاحب عمره عشان إيه، حامد كان حارمك من حاجة؟

- أيوه يا ريهام، حامد كان حارمني من حاجات كتير، الحنان والكلام الحلو،

والفلوس عمرها ما كانت كل حاجة، أنا كنت عاوزة حد يحتويني، يحبني، يعطف عليَّا، وعصام إدَّاني كل ده، وادَّاني حتة منه، إداني ياسر.

زياد مُتهكمًا:

- مش قُلت مومس.

هوت لكمة قوية على وجهه زياد من حامد الذي استشاط غضبًا، بصق زياد الدم ومعه جزءًا من أسنانه، فقال متألمًا والغضب يملأ كل كلمة:

- بتضربني يا قرني عشان خاطر المومس التي انت مسرَّحهم.

لكمة ثانية جعلت زياد يترنح ويبصق المزيد من الدم والأسنان، همَّ زياد بالقيام فلم يستطع، أراد أن يتكلم فخرجت الكلمات منه غير مفهومة، فقالت ريهام:

- سيبه يا حامد ده كلب ومايستاهلش.

نظر حامد لريهام غير مصدق ما يسمع، ثم قال بلهجة مستنكرة:

- إزاي يا ريهام توافقي على حاجة زي كده؟

- يا حامد ماتظلمنيش أنا ضعفت وهو استغل ضعفي، سيبك منِّي أنا، أنا ضعت وخلاص، خليك في رحمة، إنت ظلمتها فعلاً يا حامد، هي فعلاً كانت محتاجة الحنان مش الفلوس، الفلوس عمرها ما تعوَّض الحب والحنان.

- في حاجة تانية عاوز أقولها..

قالها زياد والدم يسيل من فمه، فقال حامد:

- عاوز تقول إيه؟

ضحك زياد بوهن وهو يقول متهكمًا:

- وعصام كمان ضحِك على ريهام بحجة إن شايفها زعلانة ويهمه مصلحتها، وحاول يصلح ما بينا.

صاح حامد بكل ما أوتي من قوة:

- الكلام ده صح ريهام؟

طأطأت ريهام رأسها وقالت باكية:

- أيوه..

زياد بمزيد من السخرية:

- أنا واقع في بحر من المومسات، قلبي الصغير لا يتحمل.

- كفاية..

صاح بها حامد، وهو غير مصدقٍ لما سمعه ويسمعه، تطحن الأسئلة خلايا مخه طحنًا، يحاول استيعاب الموقف وربط الخيوط، يحاول إيجاد تفسيرًا منطقيًا لهذا الانهيار الذي يضرب عائلته، نظر في ساعته، فهزَّ رأسه راضيًا لما رأى أن لديه متسعًا من الوقت للمزيد من الحقائق، فقال:

- ريهام، عاوز أعرف رأيك فيَّا وفي العيلة كلها؟

- حاضر، بس مش عايزاك تزعل، أنا بحبكم كلكم، بس زعلانة أوي من بابا، عشان على طول مش موجود زيك، ونفس المشكلة اللي مع رحمة الفلوس مش كل حاجة، الاهتمام والرعاية والحنان هما كل حاجة.

- المومس الفاضلة.

نظر حامد لزياد وأراد الفتك به، لكنه توقف عندما قالت رحمة:

- سيبك منه يا حامد، هيأخد جزاءه مع الوقت.

- المومس الفاضلة التانية، بتتكلم.

- اخرس يا حيوان؟

ضحك زياد بسخرية مُقلدًا صوت ريهام:

- اخرس يا حيوان.

- زياد، إيه رأيك فينا؟

قالها حامد بصوت جهوري، نظر له زياد غير واعٍ لما حوله، فقال بأسلوبه الاستفزازي مُتهكمًا:

- إنها حقًا.. عيلة وسخة من الكبير للصغير، ده حتى أمك...

لم يكمل زياد قوله بسبب الصفعة التي انهالت عليه من حامد، الذي ابتلع الإهانة، ونظر لرحمة قائلًا:

- وانتي يا رحمة؟

- أنا قُلتلك رأيي بصراحة قبل كده..

- عاوز أسمع تاني..

- لا، معنديش حاجة زيادة أقولها.

- براحتك يا رحمة؟ وانتي يا ريهام ما اتكلمتيش عن ماما..

- ماما عندي بالدنيا كلها، ربنا يخليها لينا.

انفجر زياد ضحكًا ودمعت عيناه، بعد أن توقفت ريهام عن الكلام، زفر حامد وقال:

- طيب يا جماعة إحنا عاوزين نصالح ريهام على زياد؟

- أنا مش هرجع لواحد كان بيستغلني عشان جسمي..

- وأنا عمري ما هرجع لواحدة مومس.. مبولة كل الرجالة هتتلم عليها.

بصقت ريهام على زياد عدة مرات، استقبلها بابتسامة مستفزة قائلاً:

- أنا خدت منك اللي أنا عايزه خلاص يا مومس.. ما تأفوريش.

ارتفع رنين المؤقِّت الذي وضعه حامد لينبهه بقُرب انتهاء المفعول، نظر للجالسين الذين بدأوا يستعيدوت وعيهم تدريجيًا، فزع الجميع لصراخ زياد من الدم السائل من فمه وهو يتساءل:

- الدم ده جه منين؟

- إنت دُخت ووقعت على الأرض واتخبطت في بوقك..

لم يستعب زياد ما حدث، فقام مترنحًا لخارج المكتب، وتوجَّه لغرفته وأغلقها عليه من الداخل، ثم قامت رحمة وريهام تتكئان على بعضهما البعض دون أن تنطقا بكلمة واحدة واتجهتا للخروج من المكتب، فقال حامد:

- ماتزعليش يا ريهام من الحيوان ده، هجيبلك حقك.

ردت ريهام بوهن وبنبرة مُحبطة:

- خلاص يا حامد، أهو اللي حصل، وأنا كمان هجيب حقي.

خرجتا من الغرفة وصعدتا للطابق العلوي، ثم أغلق حامد باب غرفة المكتب وجلس على المقعد المجاور للخزينة وهو ينظر للمقاعد التي كانوا يجلسون عليها منذ قليل، بدأ يتنفس بصوت مسموعٍ وقال محدّثًا نفسه بصوت مسموع:

- للمرة الثانية فريد عنده حق، اللي هعرفه هيضايقني.

ثم قام وأخرج كارت الذاكرة من الكاميرا ووضعه مع سابقه في الخزينة بجوار العلبة التي تحوي تلك المادة التي كشفت وستكشف المزيد الخبايا، نظر حامد للعلبة وقال بإصرار:

"هكمِّل للآخر، وهنشوف هترسى على إيه.."

أغلق الخزينة غاضبًا وهو يقول:

"هجيبلك حقك يا ريهام إنتي ورحمة".

خرج من غرفة المكتب بعد أن أحكم إغلاقها وصعد السلم واختفى داخل الممر المفضي للغرف، ثم طرق باب غرفة ريهام فقالت وهي تصرخ:

- عاوزة أقعد لوحدي شوية.

تركها وشأنها فما تمر به صعب للغاية، ودخل غرفته فوجد رحمة تتزين، نظرت له في المرآة وابتسمت، لم يبادلها بأي شيء، خلع ملابسه وارتدى ملابس النوم ووضع نفسه في السرير وغطَّ في نوم عميق كأنه كان يحتاج النوم بالفعل وكأنها غير موجودة أو لم يَرَها أبدًا.

***

انتبه لتلك الطرقات الخفيفة على الباب، انتفض من نومه فجأة، ووسط ظلام الغرفة تحسَّس هاتفه بجواره حتى عثر عليه، نظر في ساعته فوجدها تشير إلى الثالثة صباحًا، أنْصتَ جيدًا فتأكد من سماعه لتلك الطرقات على الباب، وصوتٌ هامس ينطق باسمه بطريقة متكررة، نهض من على السرير واتجه نحو الباب، الطرقات تزداد والصوت الخافت ما زال يتكرر، أضاء مصباح الغرفة ثم فتح الباب ليجد آخر شخص يتوقع منه زيارة أو تواصل في هذه الساعة وبعد كل ما حدث.

وجدها تقف أمامه في أبهى صورة يمكن لخياله أن يرسمه، وعيناها تمسح قسمات وجهه التي تفاجأت لرؤيتها، فقال وهو غير مصدق:

- ريهام!

دفعته للداخل برفقٍ وهي تقول:

- وحشتني!

أغلقت الباب برفقٍ حتى لا يُحدِث أيَّ صوت، وظلت واقفة تنظر له هائمةً حالمةً كما كانت تنظر له سابقًا، أما زياد فلم يستوعب عقله ما يحدث أمامه، على الرغم مما حدثَ بينهما فهي لا زالت تعشقه، تملَّكه الغرور وهو يقول:

- أنا عارف إنك لسه بتحبيني..

ضحكت ريهام ضحكتها الجريئة الرنانة ثم قالت:

- طبعًا يا زيزو، وأنا موحشتكش!

- أوي.

قالها زياد واقترب منها وقبَّلها وغابا في القُبلة حتى دفعته عنها بهدوءٍ وهي تقول بصوتٍ حالمٍ:

- يلا نرجَّع اللي فات.

ابتسم زياد وبدأ في خلع ملابسه حتى أصبح بالسروال الداخلي، وأولاها ظهره وفتح ذراعيه عن آخرهما وقال ضاحكًا:

- يلا زي زمان.

اقتربت منه ريهام دون أن تزيل أي قطعة من ملابسها، وجمعت شعرها خلفها وقالت:

- غمض عينيك ولف.

أطاعها دون تردد، ودار حول نفسه مغمض العينين وقال:

- إيه المفاجأة يا ريري؟

دوت صرخة زياد بكل بقوة كدويٍّ صوت صفارة الإنذار التي تنطلق دون توقف معلنة عن وجود خطر ما، لكن الخطر قد حدث بالفعل، قطعت ريهام بسكين حاد يقطُرُ دمًا ما يفتخرُ به زياد وكل ذكر، ما يفتخر به زياد واعتاد تسميته بمنبع الحب، نظر ملتاعًا إلى منبعه الذي افترق عن جسده وإلى النزيف المتواصل وهو لا يزال يصرخ بكل قوة، سقط أرضًا وحاول التقاط الجزء المفصول من جسده، فركلَتْه ريهام بقسوة في وجهه فسقط بعيدًا صرخ وسبها بأقذر ما في

قاموس السباب والشتائم من كلمات، ينظر لها غير مصدِّقٍ لما حدث، لكنَّ صدمته كانت أكبر عندما رآها تجلس على ركبتيها وتمسك السكين وتُقسم المنبع المقطوع إلى قطع وعلى وجهها ابتسامة مجنونة، وعيناها تحولتا لشكلٍ مُخيفٍ لم يعهده من قبلُ. أطلق زياد صرخة مدوية مختلطة ببكائه ونحيبه على ما حدثَ ويحدث أمامه، استمر في الصراخ حتى انفتح باب الغرفة ودخلها حامد ورحمة التي صرخت هي الأخرى بقوة لما رأت الدماء والأشلاء المتناثرة وسقطت قُربَ الباب تصرخ وتبكي وهي تدفن وجهها في كفيها، أمَّا حامد فظن أنه فقدَ حاسة النطق وهو ينقل بصره بين زياد المُلتاع وريهام، وذلك السكين المخضَّب بالدم وبين وجه ريهام الذي بدا عليه الجنون والسخرية ممتزجان بطريقة ألقت الرعب في نفسه.

- ريهام، إنتي عملتي إيه!!

أجابت ريهام بهدوء وبصوت أشبه بالفحيح ودون أن تنظر إليه:

- خدت حقي من الحيوان ده، خلَّصته وخلصت بنات كتير غيري من منبع الحب.

ثم نظرت لزياد الذي يئن وقالت متهكمة وهي تقترب منه:

- أنا آسفة يا حبيبي، أنا عملت كده عشان بحبك، وعشان ماتحبش حد تاني غيري.

مرت بجواره واتجهت نحو المرآة تعدل من هيئتها ببرودٍ وكأنها لم تتحول لوحشٍ كاسرٍ منذ لحظات، نظر لها زياد وهو يئن محاوِلاً الكلام، فقال بحروف متقطعة صارخة:

- مومس.

نظرت ريهام في المرآة، وهزت رأسها في أسى، والتفَّت فجأة وجلست على الأرض خلف زياد وأمسكت بعنقه بقوة، وقالت بصوت هامس في أذن زياد:

- أنا مومس يا زياد.

تملك التوتر من زياد وحامد الذي قال صارخًا:

- ريهام، هتعملي إيه، كل حاجة وليها حل، وكفاية اللي حصل، ريهام بصيلي، عشان خاطري كفاية اللي حصل، عشان نقدر نلم الدنيا من غير مشاكل.

نظرت ريهام لحامد وابتسمت وهزت رأسها موافقة وقالت وهي تقبِّل عنق زياد:

- بحبك..

قالتها ثم مررت السكين على عنقه بسرعة فانفجرت الدماء من عنقه مع تلك الصرخة المدوية التي أطلقها، وضعت ريهام عنق حبيبها السابق على الأرض، وركلتها بغضبٍ فانفصلت رأسه عن جسده جزئيًا.

وقفت ريهام بجوار الجسد الهامد ونظرت لشقيقها المذهول، اقتربت من حامد وقالت:

- أنا خدت حقي، ماكنتش هستناك، عشان عمرك ما كنت هتعمل حاجة، إنت آخرك كلام وبس.

خرجَتْ ريهام من الغرفة بهدوءٍ تاركة خلفها مشكلة كبيرة. حامد واقفٌ عقله لا يستطيع أن يحلل ما حدث، ورحمة منهارة تمامًا، وفاتها رؤية ذبح ريهام لحبيبها السابق، والجسد المسجى المرتجف الغارق في الدماء.

عاون حامد زوجته على النهوض مجنِّبا إياها رؤية ذلك المشهد القميء وأخرجها من الغرفة وخرج معها وأغلق الباب خلفه، وأراح ظهره إلى الباب وأغمض عينيه ثم قال:

- روحي شوفي ريهام فين وماتسيبيهاش خالص لحد ما أشوف حل للمصيبة دي.

أطاعت رحمة زوجها وتركته في خطوات ثقيلة، ترى بالكاد أمامها، وتصعد درجات السلم بوهنٍ وهي ترتجف. تابعها حامد ببصره في قلقٍ حتى اختفت عن نظره، فدخل الغرفة مرة أخرى، وترك جسده يسقط على الأرض، وابتسم في مرارة وهو يحدِّث نفسه: "تاني مرة فريد يكون عنده حق، بس ماتوقعتش توصل للدرجة دي، أنا كان آخري هضربه علقة وأنزّله في الصحراء بهدومه الداخلية، لكن قتل ماعملتش حساب كده".

أغمض عينيه وبدأ يتنفس بصعوبة محاولاً التفكير في حلٍّ، نهض فجأة متمالكًا نفسه ووقف ينظر لجثة خطيب أخته الملقاة على الأرض وبدأت عيناه تدمعان قليلًا، منع نفسه من البكاء بأن بصق على الجثة وسبها، لكنه انهار باكيًا كطفل صغير وقال:

"عامل نفسي راجل أوي، على إيه ده أنا طلعت جبان، ليه يا ريهام عملتي كده، والله كنت هجيبلك حقك، استعجلتي أوي".

ركل حامد الجثة عدة مرات ليتأكد من أنه قد لقى حتفه تمامًا، فخُيِّل له أن الجثة تتحرك، فارتعد وتملكه الخوف، وإذا بالجثة ترتجف مُجددًا، لكنه تمالك نفسه وتنفس بعمق ثم زفر بقوة وأخرج هاتفه واستدعى أحد الأرقام، وانتظر الرد الذي جاء متأخرًا بصوت ناعس، ما لبث أن سمعه حامد حتى صاح في الطرف الآخر:

- نايم ومش حاسس بحاجة انت!

أجاب الصوت الناعس بهدوءٍ:

- إيه يا عم الدَّخْلَة دي، طبعًا نايم الساعة أربعة الفجر، هكون بعمل إيه؟

- مش عواديك يعني تنام بدري كده؟

قال الصوت ساخرًا وأن لم تزل منه رائحة النوم:

- أصل كان معايا حتة جامدة كانت عاوزاك الصراحة.

ضحك حامد مجاملًا ثم قال:

- شكرًا.. مرة تانية..

- إنت كنت عاوز إيه في ساعة زي دي؟

- كنت عاوز أطمن عليك يا عُصّ، وحشتني يا عم.

أطلق عصام صوتًا منغمًا وأتبعه بسُبة بذيئة قبل أن يقول:

- مصحيني عشان تقولي واحشني..

كرر عصام السبة والصوت قبل أن ينهي المكالمة، أجرى حامد اتصالًا به مرة أخرى فوجده وقد أغلق هاتفه، ثم انتبه فجأة وقال:

- أنا بكلم الزفت ده ليه؟

قالها وخرج من الغرفة وأغلقها جيدًا وركض حتى خرج من الباب الرئيسي للقصر نظر حوله حتى رأى تلك الغرف المتجاورة في طرف الحديقة، ركض نحوها وفتح أولى الغرف وأضاء مصباحها فإذا به أدوات زراعة، أخرجها ثم نظر في ساعته وأصدر همهمة وعاود الركض ثانية للداخل، دخل الغرفة الموجود بها الجثة، دخل الحمَّام ونزع الستارة البلاستيكية ووضعها على الأرض بجوار الجسد الدامي ثم نزع المفروشات من على السرير ووضعها على الستارة البلاستيكية وبدأ في سحب الجثة تدريجيًا ليضعها في كفنها.

ارتعد حامد وصرخ بحدة لما انفصلت الرأس عن الجسد، أفرغ حامد ما في بطنه من طعامٍ على الرأس المفصول، قاوم مرارة العصارة وأكمل تكفين الجسد دون تغسيله وحمل الرأس المقطوع ووضعها أعلى الجثة مانعًا نفسه من الانهيار وأحكم ربطها بالحبال التي جلبها معه من الغرفة الموجودة في الحديقة.

ثم جرَّ الجسد حتى خرج من الباب الرئيسي مخلفًا وراءه خيطًا سميكا من الدماء التي تسيل من الجسد، توقف بغتة عندما وجد آثار حفر أمامه، تخرج منها ريهام، نظرت له وابتسمت وقالت:

- يلا مفيش وقت قبل النهار ما يطلع؟!!

ركضت نحوه تساعده، سحبا الجثة سويًّا وألقاها في الحفرة وأهالا عليها التراب.

ظلَّ حامد واقفًا ينقل بصره بين ريهام والحفرة، اقتربت منه ريهام وأمسكته من ذراعه وهزَّته عدة مرات وهي تقول:

- يا حامد، مالك فيه إيه؟!

فتح حامد عينيه بقوة وانتفض ليجد نفسه في غرفة نومه وبجواره رحمة وريهام تنظران له بإشفاق، فقالت رحمة:

- مالك يا حبيبي، كابوس ده ولا إيه؟

رمش حامد بعينيه عدة مرات ثم خبط وجهه بكفيه قبل أن يقول:

- فين زياد؟

امتعض وجه ريهام وهي تقول:

- عاوز يقابلك تحت لقيته بيتصل بيَّا من الصبح.

- هي الساعة كام دلوقت؟

قالت ريهام:

- حداشر الصبح.

قام حامد من السرير متكئًا على رحمة وهو يقول:

- أنا داخل آخد دش وهنزل أقابله، حضِّوريلي الفطار والقهوة وهأنزلُّكم، تابع

الاثنتين تخرجان من الغرفة، قام واتجه للشرفة لينظر للحديقة فوجدها غَنَّاء كما هي ووجد الغرف في نهاية الحديقة.

قطع رنين الهاتف أفكاره ونظر في شاشته ليجد رقم زياد، لم يرد وأغلق هاتفه، وخرج من الغرفة دون أن يستحم وهو يقول:

"الله يخرب بيتك يا فريد يا شوقي، كان يوم مهبب لما قابلتك!"

***

على طاولة الطعام جلس حامد يتناول طعامه صامتًا ينظر لزياد الجالس أمامه في توتر ويُمْعنَ النظر ليتأكد من أنه لا يحلم، زياد يبادله النظرات بأسلوبه الاستفزازي، فتيقَّن حامد أنه مستيقظٌ ولا يحلم، رحمة وريهام جالستان على الأريكة تراقباهما من بعيد تشعران بتوتر، الجو بالداخل كريه على الرغم من اعتداله بالخارج.

- ريهام، تعالي اقعدي معانا لو سمحتي.

نادى حامد على شقيقته التي جاءت على مهل وجلست بجواره، تنظر لزياد نظرات كراهية لا يُمكن تجاهلها، فقال حامد في هدوء:

- بصوا يا جماعة عوزين نوصل لحل عشان ننهي الموضوع ده، أنا هسألكم نفس السؤال، وعاوز إجابة يا نعم يا لا، عوزين ترجعوا لبعض ولا لا؟

أجاب زياد مؤكِّدًا أسلوبه السخيف في الرد:

- لا!

فقالت ريهام بصوتٍ مُحبَطٍ:

- وأنا لا برضه عشان...

قاطعها حامد بصرامة:

- مش عاوز أعرف أسباب.

ثم وقف مخاطبًا الجميع:

- جهزوا نفسكم عشان هنسافر دلوقت.

تركهم وانصرف وصعد للدور العلوي وهو يشير لريهام ورحمة أن تتبعاه، تبعتاه على الفور وصعدوا ثم اختفوا في الممر العلوي تاركين زياد وحيدًا وعلى وجهه علامات الارتياح، فقام واتجه لغرفته المؤقتة يبتسم ويصفر، دخل الغرفة وبدأ في تبديل ملابسه مُحدثًا نفسه:

"أنا اتجوز واحدة مومس، آه هي جامدة.. بس مش ممكن أتجوز واحدة نامت معايا من غير من نكون متجوزين، بس في حاجة مش فاهمها حامد بيتعامل معايا عادي أوي عشان مايعرفش أصل الحوار، بس لو عرف هينفخني وش، بس ريهام عمرها ما هتتكلم عشان هي جبانة ويمكن جبانة أكتر مني كمان، سيبك من الكلام ده يا زيزو، خش خد دش وفَوَّق نفسك ومفيش حاجة هتحصل، دي عيلة شمال أصلًا".

وفي هذه الأثناء كان حامد مجتمعًا بريهام ورحمة في غرفة ريهام واكتسى وجهه وصوته بعلامات الجدية وهو يقول:

- اللي هيحصل في الطريق واحنا راجعين ماحدش ليه دعوة بيه، عاوزكم تساعدوني وتخليكوا معايا على الخط.

ثم نظر لريهام وقال ضاحكًا:

- هجبلك حقك.

تركهما ودخل غرفته ووراءه رحمة، التي قتلها الفضول وهي تقول:

- إنت ناوي على إيه؟

- خليها مفاجأة! اجهزي انتي وريهام بسرعة بس خلينا نمشي من هنا.

قالها ضاحكًا وارتدى ملابسه وهبط للدور الأرضي وخرج من الباب قاصدًا السيارة، أعدَّها للسفر ثم نادى على الجميع، خرجوا تباعًا من الباب رحمة وريهام تحملان الحقائب، حاول زياد مساعدتهما، فرفضتا بشدة، فانسحب وركب السيارة في صمتٍ، ساعد حامد فتاتيه في وضع الحقائب، ركب الجميع السيارة، اختطف حامد نظرة سريعة للساعة فابتسم في غموض، وأدار المحرك وتحرك بالسيارة.

بدأت الشمس في المغيب، وبدأ الليل يفرض سطوته على النهار، توقف حامد فجأة في وسط الطريق المعتم، وأطفأ أنوار السيارة واعتدل ليواجه زياد، وقال:

- اقلع هدومك وانزل هنا؟

ضحك زياد وقال:

- حلوة الحركة دي يا برنس.

اختفت ضحكة زياد وهربت الدماء من وجهه لما رأى فوهة مسدس في جبهته يوجهها حامد نحوه وفوهة أخرى توجهها رحمة من الخلف.

- كل ده كلام فاضي مش هتعملوا حاجة.

قالها زياد ساخرًا من الموقف، فقال حامد ساخرًا هو الآخر:

- طب وكده!

أنزل حامد فوهة المسدس لتلامس المنطقة الحساسة، فارتعد زياد وتوتر وهو يقول:

- إنت بتعمل إيه؟

بلهجة آمرة قال حامد:

- اقلع هدومك وانزل.

- بتهزر انت يا برنس.. صح.

قالها زياد بتوتر، فصاح فيه حامد مكررًا الأمر:

- اقلع هدومك وانزل.

بدأ زياد في خلع ملابسه في يأسٍ وخوفٍ، قطعة وراء قطعة حتى صار بالسروال الداخلي فقط.

أشار حامد لزياد أن اخرج من السيارة، قاوم زياد الأمر فما كان من حامد إلا أن ضغط بفوهة المسدس أكثر على المنطقة التي يهددها، فاستسلم وهبط من السيارة وأغلق الباب رافعًا يديه في الهواء مبتسمًا في بلاهة لحامد وقال:

- خلاص يا عم حلوة اللعبة دي، اتبسطت!

قال حامد بسخرية:

- حلوة جدًا يا زيزو.

قالها وأغلق الأبواب مركزيًّا وأدار المحرك وانطلق بسرعة.

ظل زياد واجمًا وقال ساخرًا ليذهب عن نفسه الخوف:

- حلوة أوي الحركة دي، شوية وهيرجعوا!

مرَّ الوقت بطيئًا ولم يرجع أحد له لالتقاطه، نظر في ساعته فوجدها تُشير إلى العاشرة ليلًا، الطريق مظلم ولا توجد سيارات، فقط صوت الهواء القوي الذي يضرب جسده.

جلس على الأرض بعدما وجد إطارًا ممزقًا، وبدأ الهواء يفعل بجسده وعقله ما يشاء، حتى سمع زياد ذلك الصوت المتكرر، أنصت للصوت فوجده يزداد، صوت عواء قوي.. يعلو ويقترب.

***

حالة من الضحك الهستيري انتابت الجميع بعدما تركوا زياد ملقى في الصحراء شبه عارٍ في وقت متأخر من الليل، وبلا أدنى شعور بالندم قالت ريهام ساخرة:

- يستاهل اللي جراله.

فأكملت رحمة وقالت:

- كان واطي أوي يا ريهام.

ضحكت الاثنتان في سخرية، ينظر لهما حامد مبتسمًا، لكن عقله مشغول بما سيحدث بعد ذلك، اختلس نظرات لرحمة التي لم تتمالك نفسها من الضحك، اشتعلت النيران في جوفه بعدما عرف أنها قد استسلمت لصديق عمره ثم لخطيب أخته السابق خوفًا من الفضيحة، أي فضيحة تلك التي تعالجها بفضيحة، انشغل عقله أكثر وهو يقترب من القاهرة، لقد خالف ترتيب خطته الموضوعة وتركها للظروف، مَن التالي؟، السؤال يلح عليه إلحاحَ متسولٍ يلح في طلب المساعدة، فقال مطمئنًا نفسه:

- أريح شوية وبعدين أكمل عشان أنا مش قادر أستوعب اللي بسمعه.

- مالك يا حامد سرحان في إيه؟ إوعى تكون زعلان على الزفت اللي اسمه زياد؟

قالتها ريهام، فضحك حامد مسايرًا مناخ السخرية الساري حاليًا، وقال:

- زعلان إيه، أنا سرحان في الطريق، عمومًا إحنا قربنا نوصل البيت.

وبالفعل دقائق ووصلوا الفيلا، وقد تجاوز الوقت منتصف الليل، هبطت رحمة وريهام من السيارة وظلَّ حامد في مكانه فقال بلهجة صارمة:

- هجيلكم كمان كام يوم، عشان أنا سايب الشغل بقاله كتير.

بصوتٍ لائمٍ قالت رحمة معاتبة:

- شغل تاني يا حبيبي!!

نظر حامد لزوجته نظرات حانية المظهر ولاعنة الجوهر، وقال متصنعًا الحزن على فراقها:

- معلش يا حبيبتي، يومين وهرجع، ماشي.

قالها وألقى لها قبلة عبر الهواء، استقبلتها ووضعتها ناحية قلبها.

انطلق حامد بسيارته بسرعة وأجرى اتصالًا من هاتفه وما لبث أن سمع صوت محدِّثِه فقال:

- يا عوصّا، كويس إنك صاحي والله.

أجابه بصوته الضاحك دائمًا وقال:

- ما انت عارف أنا زي دراكولا، أُمر يا برنجي.

- فاكر البت الصاروخ اللي حكيت عليها؟

- آه، مالها؟

- ماتظبطلي معاد معاها، أنا مخنوق شوية.

بضحكة ساخرة قوية قال عصام:

- حبيبي يا برنس، هو ده حامد اللي أعرفه، حظك حلوة، جاية كمان شوية.

- حلو، جايلك، إنت فين؟

- في البيت يا عم.

- مسافة السكة وجايلك.

قالها حامد وأنهى المكالمة دون انتظار ردٍّ، عدل من الطريق الذي يسير فيه حتى توقف أمام بناية متوسطة الارتفاع وقف أمامها وصعد للدور الأول، وقرع الجرس عدة مرات، فانفتح الباب عن وجه عصام الضاحك وهو يقف أمام الباب شبه عارٍ، فقال حامد ساخرًا:

- إنت بدأت الوصلة من غيري.

صافحه عصام وتعانقا ودلفا للداخل، فقال حامد:

- لسه الشقة زي ما هي، ما اتغيرتش، الحاجة الوحيدة اللي بتتغير هنا النسوان اللي بتجبهم.

ضحك عصام وقال:

- أكيد.

- بقولك، هي جت ولا لسه؟

- جوه في الأوضه بتجهز.

- إنت بدأت؟

هزَّ عصام رأسه نافيًا ثم قال مازحًا:

- إنت ضيفي، سايبلك الافتتاح.

ذهب عصام للغرفة المقابلة لباب الشقة وطرقها وقال:

- جاهزة يا ست الكل، البرنس وصل.

جاء الصوت الأنثوي مائعًا وهو يقول:

- ما دام البرنس وصل، تبقى البرنسيسة جاهزة.

ضحك عصام وحامد، فتقدَّم حامد نحو الغرفة وقال:

- ممكن البرنس يدخل؟

بصوت أكثر ميوعة من ذي قبل:

- اتفضل.

دلف حامد الغرفة فأبهرته رائحة العطر الذي يفوح في أركان الغرفة، أغلق

الباب بالمفتاح وخطا خطوات بسيطة قبل أن تخرج من خلف كارافان فتاة فائقة الجمال ترتدي ما يصفّ ويشفّ، تفحص حامد تفاصيلها من أخمص قدميها حتى وصل لوجهها وتملكته صدمة اتسعت معها عيناه حتى كادتا تخرج من محجريهما وانقطع صوته، وهي كذلك، بصوت مبحوح وفم ترتجف شفتاه خرج منه الكلام متقطعًا:

- سمية!!!

***

عندما التقاها حامد لأول مرة في منزل الأسرة، استقر في عقل حامد أن سمية شابة مغلوبة على أمرها، تعاطفَ معها بعدما أصبحت وحيدة بعد وفاة والدتها مؤخرًا، ووالدها الذي توفى وهي ما زالت طفلة، بها مسحة من الحزن التي تراها لدى تعيسي الحظ الذين تقسو عليهم الأقدار بتوالي المصائب، وافق على القرار الذي اتخذته والدته بأن تعيش معهم سمية كشقيقة لهم، وقد راعت سمية أصول الضيافة على أكمل وجه؛ فهي لا تتدخل في شئون الأسرة التي تعيش معها إلا إذا طُلب منها، دومًا ما تنسحب وتعود لغرفتها في هدوءٍ إذا سمعت أو رأت بوادر مناقشات أُسَرية خاصة.

لكن بعدما استقرت الصورة في ذهنه حولها، الآن تبددت تلك الصورة، وحل محلها صورة أخرى نصفها ضبابي ونصفها واضح. ألقى حامد بجسده على أقرب كرسي له، وعلى وجهه أمارات الذهول، عقله يغلي كمرجل بخاري على وشك أن ينفجر لارتفاع حرارته، الأسئلة تطحن رأسه بلا هوادة، حدَّث نفسه قائلًا:

"أنا مشغول بيها ليه دي مش من بقيت أهلي، ما تعمل اللي تعمله، كفاية اللي أنا فيه".

أبت سمية أن تتركه في حاله، فجلست على السرير في مواجهته، ونظرت نحوه وقالت بصوت مهموم:

- طبعًا مش مصدق!

لم ينطق حامد بكلمة، فأردفت قائلة:

- أنا عارفة إنك مش مصدق، البنت الغلبانة المنكسرة اليتيمة طلعت...

تنهدت سمية ثم أكملت:

- ولا أنا مصدقة نفسي، بس الوضع ده معقد أوي، يا حامد، اسمح لي أقولك حامد من غير أستاذ زي ما كنت بقولك قبل كده.

تنفس حامد بصوت مسموع:

- قولي حامد براحتك، بس الوضع معقد إزاي، عشان حابب أفهم، إيه اللي خلاكي تعملي كده؟

زفرت سمية في إحباط وقالت:

- مامتك..

احتقن وجه حامد من الصاعقة التي هبطت على رأسه، فقالت سمية مكملة سيل الصواعق الذي يهبط من شفتيها:

- أيوه مامتك، هي اللي خلتني كده.

صرخت سمية وهي تتفادى منفضة السجائر التي ألقاها حامد نحوها بكل قوة لتصطدم بذراعها، فقالت مذعورة بعدما سقطت على الأرض:

- أنا مابكدبش، وممكن تسألها ولو إني متأكدة أنك لا هتقدر تسألها ولا هي هتجاوب على سؤالك.

- أمي عمرها ما تعمل كده، دي طيبة وغلبانة، وحجت مرتين قبل كده.

ضحكت سمية ضحكة مائعة كأنما تؤكِّد لنفسها هويتها كعاهرة، ثم قالت:

- حجت مرتين قبل كده، ربنا يتقبَّل يا سيدي، أنا هقولهالك يمكن تفوق، أمك قوادة يا أستاذ حامد، هي اللي علمتني كل حاجة، حتى الضحكة اللي انت سمعتها من شوية.

صرخت سمية من الصفعة التي هبطت على وجهها من حامد، الذي خلع قميصه وألقاه بعيدًا واقترب أكثر وأمسكها من رقبتها ورفعها عن الأرض، ضربت سمية ذراعي حامد بلا جدوى، فقالت بصوتٍ مبحوحٍ:

- بس ربنا خدلي حقي منها، عارف إزاي، مش منها شخصيًّا خدتُه من ريهام ورحمة، فاكرهم كويس، أختك ومراتك.

قال حامد بصوتٍ غاضبٍ وهو لا زال ممسكًا برقبة سمية:

- تقصدي إيه؟

- سِبني هموت.

ترك حامد رقبتها وتركها تجلس على السرير مجددًا ووقف أمامها وقد زادت حرارة جسمه، فقال:

- تقصدي إيه؟

ابتعدت عنه وهي تتنفس بصعوبة عدة مرات متتالية كأنما تستعيد روحها من جديد، ثم قالت ولا زال صوتها مبحوحًا:

- رحمة بتخونك مع عصام صاحبك، وخلِّفت منه ياسر ابنك .. قصدي ابنه، مش فارقة كتير ما انتوا أصحاب، وريهام زياد سابها عشان حقَّق هدفه اللي عايزه من ساعة ما شافها أول مرة في الكلية، وأظن إنك فاهم أقصد إيه، وفي حاجة كمان زياد عرِف اللي بين رحمة وعصام وقضى وقته مع رحمة.

وكأن كلام سمية مطرقة ثقيلة هبطت على رأسه، على الرغم من معرفته السابقة به إلَّا أنَّ أحدًا غيره يعرف ذلك فهي الكارثة ولا شكَّ.

- وانتي عرفتي إزاي كل ده.

- هحكيلك على كل حاجة.. يمكن تفوق!

***

الطقس حار خانق في هذا الوقت من الصيف، ونساء متشحات بالسواد يبكين وينتحبن بصوتٍ مكتومٍ ورجال واقفون يدخنون ويتحدثون في همسٍ، وقفت بينهم فايزة نصار ترتدي نظارة سوداء تخفي نصف وجهها وعينيها اللتين تحوَّلَتا للون الدم، وتغطي رأسها - على غير العادة - بغطاء رأس أسود اللون ملائم تمامًا للمناسبة الاجتماعية التي تحضرها، لقد توفيت صديقتها القديمة والعزيزة سميحة، بعد أن مزَّق المرض جسدها، صُدِمَت حين سمعت خبر وفاتها ولم تصدقه في البداية، لقد كانتا سويًّا منذ يومين فقط تتحدثان وتضحكان على ما فات من أيام العِز وراحة البال والشقاوة والمرح.

شقت صفوف المعزين حتى تستطيع دخول المسكن لتوديعها، استطاعت بعد معاناة الدخول للمنزل، واستقبلتها سمية ابنة صديقتها بوجه أحمر قانٍ باكٍ بفعل النحيب، وعينين حمراوين إثر بكائها المستمر، ألقت سمية بنفسها في أحضان صديقة والدتها ودخلت الاثنتان في نوبة بكاء ارتفع فيها صوتُ نحيبهما، حتى فرقت بينهن النسوة الواقفات داخل المنزل وهن يبكين أيضًا.

دخلت فايزة الغرفة التي تنام فيها سميحة نومتها الأخيرة وهي تبكي بقلبٍ مفطور، ألقت بنفسها على الجسد الميت واحتضنته وظلت تبكي لفترة، حتى جذبتها ريهام المتأثرة من الموقف، رفضت فايزة في البداية لكن بعد إصرار ابنتها والمحيطين بها قامت على مضض وأخرجنها من الغرفة إلى الشرفة الرئيسية وأجلسنها واحضرن

لها بعضًا من الماء، رافقتها ابنتها وابنة صديقتها لتهدئتها وطلبت من الحاضرين تركهن منفردين وإغلاق الشرفة عليهن.

جلس ثلاثتهن تنظر عيونهن إلى بعضها البعض في احمرار وبكاء، كسرت فايزة جدار الصمت بأن أخرجت علبة سجائر من حقيبتها وأشعلتها وقالت:

- وحِّدي الله يا سمية!

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

- ده قدر ربنا، ومافيش شخص يقدر يعمل حاجة، المهم إنك تستمري في حياتك وتكملي مسيرة أمك الله يرحمها.

- الله يرحمها، طبعًا يا ماما فايزة.

قامت سمية واحتضنت فايزة وقبَّلتها ووقفت ريهام تراقب المشهد في صمتٍ، فأردفت فايزة في صمت قائلة:

- المهم أسبوعين كده وتكلميني، ماشي.

- حاضر يا ماما.

- إحنا لينا كلام بعد الجنازة.

همّوا بالخروج من الشرفة، أوقفت فايزة سميحة سائلة إياها:

- إنتي عزباء؟

- أيوه!

- مفيش حاجة حصلت خالص قبل كده خطوبة، أو ارتباط مع أي حد؟

- لا.. أبدًا!

نظرت أمامها وقالت مُحدِّثة نفسها بصوت مسموع:

- عزباء، تمام.

لم تفهم سمية وريهام الكلام ولا المغزى من ورائه، ثم أطلقت فايزة العنان لصوتها للصراخ والنحيب على فراق أعز الناس وأطيب الناس.

***

- إيه الحلاوة دي يا رحمة!

ابتسمت رحمة لمعاكسة حماتها، ثم جلست بجوارها وقالت:

- صباح الفل يا ماما.

- صباح النور يا حبيبتي، على فين كده؟

- أبدًا، خارجة مع صاحباتي من أيام الكلية.

- عرَّفتي حامد إنك خارجة؟

- اتصلت بيه ماردش عليَّا، بعتِّله رسالة.

نظرت لها حماتها بتعجب مثلما فعلت ريهام أي ماذا تقولين، أمسكت رحمة بطرف خيط العتاب القادم:

- والله بكلمه من امبارح وفعلاً ما بيردش، عشان خاطري يا ماما انتي وريهام لو اتصل أو اتصلتوا بيه عرفوه عشان مايزعلش.

ابتسمت حماتها وقالت لها:

- ماتخافيش، روحي مع صاحباتك وأنا هبقى أقوله إنك عرفتيني.

قبَّلت رحمة حماتها وهي تقول:

- ربنا يخليكي ليا يا ماما.

- ويخليكي ليَّا يا حبيبتي.

ودعتهم وخرجت من باب الفيلا، تابعتها حماتها بنظراتها ثم التفت لريهام المنشغلة بمحادثة زياد على واتس آب، لكزتها في كتفها ثم قالت:

- بتعملي إيه يا ريهام؟

ردَّت ريهام دون أن تلتفت لوالدتها التي تحدثها:

- بشيِّت مع زيزو.

- يا أختي بلا نيلة بكرة تزهقوا من بعض، بقولك البت سمية صحيت ولا لسه؟

لا زالت ريهام ممسكة بهاتفها، فانفعلت فايزة عليها قائلة:

- يا بت سيبي الهباب اللي في إيدك ورُدّي عليَّا.

- أيوه يا ماما.

- يا اختي اطلعي شيتي فوق وابعتيلي سمية.

قامت ريهام في ملل وصعدت السلم وهي تنادي على سمية بصوت عالٍ:

- يا سمياااااااااااااااااااه، كلمي ماما.

أخذت تكررها بصوت عال، وأمها تنظر لها وتقول:

- هي البت دي مجنونة ولّا إيه؟

خرجت سمية من غرفتها ولا زالت مرتدية ثياب النوم، تنهر ريهام لصوتها المزعج ودون أن تنطق بكلمة واحدة جاءتها ريهام وقبلتها وقالت بصوت رقيق يناقض صوتها منذ ثوانٍ:

- صباح الخير يا قمر، ماما عايزاكي.

اتسعت عينا سمية في تعجُّب وهي تقول:

- طب ما انتي صوتك حنين أهو، لزمته إيه شغل بتوع الأنابيب.

- أنابيب يا سمسم، شكرًا، كلمي ماما.

ابتسمت سمية لرد فعل ريهام وتركتها ونزلت السلم لتجد فايزة جالسة على الأريكة وقد مدَّت قدميها وهي تُسبِّح على مسبحة سوداء، وصلت إليها سمية ثم قبلت رأسها:

- صباح الخير يا ماما.

- صباح النور يا حبيبتيي، اقعدي عايزاكي.

- خير يا ماما.

اعتدلت فايزة في جلستها، واقتربت منها وقالت:

- بصي يا سمية، أمك الله يرحمهما كانت موصّياني عليكي من قبل ما تموت بكتير، وعشان كده أنا جبتك هنا لأن زَيِّك زي البت المجنونة اللي طلعت، وتهمني مصلحتك زيها بالضبط.

- تقصدي إيه يا ماما، إنتي جايبالي عريس!

- عريس إيه يا بت، أنا قصدي حاجة أكبر من كده بكتير.

- أكبر إزاي يعني؟

- هقولك، بس الأول تعرفي إيه عن مامتك؟

- أمي يا ماما، والله أنا مش فاهمة حاجة؟

تململت فايزة وجذبتها من يدها وقامت وهي تقول:

- ماينفعش نتكلم هنا تعالي ندخل جوه.

سحبتها من يدها ودخلت غرفة مكتب زوجها وأغلقت خلفها الباب، جلستا متقابلتين، ثوانٍ وارتفع صوت سمية بالصراخ والبكاء.

***

عندما سمعت سمية ما ترويه لها الصديقة الوفية لوالدتها الراحلة.. أصيبت بالانهيار، لا تصدق ما سمعته، السيدة الفاضلة فايزة نصار أمها البديلة تخبرُها أن أمها الحبيبة كانت تعمل في مجال الدعارة، وبمجرد سماع سمية لكلمات فايزة، دخلت في نوبة بكاء وصراخ، حتى إنه من شدة وَقْعْ الكلام عليها حاولت صفع فايزة على وجهها، لكن فايزة احتضنتها لتهدِّئ من روع الفتاة المصدومة، لم تتحرك فايزة أو تنطق لأنها متيقنةٌ من شدة الصدمة التي تعرضت لها الفتاة، تركتها تخمد ثورتها بنفسها، وقامت من مكانها متجهة نحو الأريكة جلست القرفصاء وأشعلت سيجارتها منتظرة نتيجة ما قالته.. وقد تحقَّقَ لها ما أرادت، هدأت سمية وخمدت ثورتها رويدًا رويدًا، ثم جلست على الأرض بجوار الأريكة التي تجلس عليها فايزة، ولا زالت عيناها تبكيان وقالت بصوتٍ مبحوحٍ:

- الكلام ده صح يا ماما؟

ردت فايزة بهدوء غير مكترثة بحال الفتاة:

- أيوه..

تنفست سمية بصعوبة وهي تضع يديها على ساق فايزة وتقول:

- يعني أنا نتيجة غلطة!

ربتت فايزة على رأس سمية، ثم ابتسمت وقالت:

- أنا هحكيلك على كل حاجة، تعالي بس اقعدي جنبي واهدي كده، خُدي ولعي السيجارة دي واسمعيني كويس.

نفَّذت سمية الأوامر وجلست بجوارها، التفت لها فايزة ولم تختف تلك الابتسامة من وجهها:

- بصي يا حبيبتي، إنتي لا جاية من غلطة ولا الكلام الفاضي اللي انتي قولتيه

دلوقت، أمك اتجوزت صغيرة كان عندها 19 سنة وخلفتك بعد سنة جواز، لكن أبوكي مات الله يرحمه في حادثة عربية وانتي عندك 4 شهور، وأمك تعبت أوي بعد ما مات، أهله وأهلها باعوها أصلهم كانت متجوزين غصب عن أهاليهم.

قاطعتها سمية المبهوتة:

- كانوا متجوزين عرفي؟

ردت فايزة:

- لا يا بت، شرعي وعلى يد مأذون، المهم أمك داخت بيكي على أهلها وأهل أبوكي بس مفيش فايدة، البِبَان كلها مقفلة، كانت مضطرة تعمل كده وإلا تموتوا من الجوع إنتوا الاتنين.

انتظرت فايزة قليلًا لترى رد فعل سمية لما تحكيه، لكن وجدتها صامتة فأكملت حديثُها:

- أمك عملت شغل كتير وفلوس كتير أوي، عيِّشِتِك في مستوى كويس وعلمتك أحسن علام، أنا عايزاكي تتخيلي حياتك لو أمك ماعملتش كده، كان زمانك مرمية في شارع ولَّا كان زمانك ميتة وأمك تموت بقهرتها عليكي.

خيم الصمت عليهما تنظران لبعضهما البعض ويتطاير الدخان من السجائر المشتعلة، قطعت عليهما جلستهما ريهام عندما اقتحمت الغرفة في محاولة لمفاجئتهما:

- بتعملوا إيه من غيري؟

لكنها توقفت عندما وجدتهما صامتتين جالستين متقابلتين على الأريكة ورأت سمية وقد تلونت عيناها بلون الدم، واحمرَّ وجهها، وآثار الدموع التي حفرت أنهارًا على وجنتيها، بينما تجلس فايزة أمامها تبكي هي الأخرى، فقالت متوجسة:

- مالكم يا جماعة في إيه؟

وقفت فايزة وقالت بنبرة حزينة:

- كنا بنتكلم مع بعض وجت سيرة سميحة الله يرحمها ماقدرِتش تمسك نفسها ولا أنا قدرت وزي ما انتي شايفة كده.

تأثرت ريهام للموقف وذهبت لسمية واحتضنتها وساعدتها على النهوض وقبَّلتها في جبهتها وربَّتَت على كتفيها، لكن سمية لم تتمالك أعصابها أكثر من ذلك، فدخلت في نوبة بكاء ولم يكن أمام ريهام إلا احتضانها بقوة ومشاركتها البكاء.

نظرت لهم فايزة بإشفاق لكنها وجدت سمية تنظر لها وهي تبكي وبوادر ابتسامة خفيفة غامضة تُرسَمْ على قسمات وجهها الباكي، التقطت فايزة تلك الابتسامة بذكاء وفطنة اكتسبتهما بمرور السنين.

***

كان الطريق مزدحمًا في مثل هذه الساعة من اليوم، تقود فايزة السيارة وبجوارها سمية التي تغيرت ملامحها بعد معرفتها بالحقيقة.. حقيقةُ والدتُها، وشتان الفارقُ بين حالتها وقتها وحالها الآن.

أعلنت فايزة السيطرة عليها واحتلت أراضيها، وقبلها احتلت عقلها، زينت لها الأمور وبسطتها حتى اقتنعت أنه لا غضاضة فيما ستفعله، فأمها كانت هكذا وهي ابنتها، هذا ميراثٌ ولا بُدَّ أن يُسلَّم لأصحابه بالكامل.

وعلى الجانب الآخر، استسلمت سمية تمامًا للمحتل وبكامل إرادتها، هي لا تعلم ما الذي يدفعُها لإكمال مسيرة والدتها، بركان من الأسئلة انفجر في رأسها بعد الذي سمعته، هل هو الفقر والاحتياج والإهمال هم حقًا ما أجبروا والدتها للعمل في مهنة تراها سمية مشينة أخلاقيًا، أم رغبة والدتها في إشباع احتياجاتها الجسدية والنفسية؟، استقر بداخلها الرأيان؛ العوز ونقص الإشباع الجسدي والنفسي هما

السبب، تتذكر والدتها والمواقف التي حدثت بينهما بحلوها ومُرِّها، مرت تلك المواقف أمامها كشريط سينمائي رأته قميئًا، وعلى الرغم من الثروة الكبيرة التي تركتها لها والدتها والتي ممكن أن تمنحها مستوى معيشيًّا مقبولاً، وأن تبدأ حياتها من جديد متناسية ما كان وخاصة أنه لا أحد ممن يعرفونها يعرف ماضيها أو ماضي والدتها سوى الجالسة بجوارها.. صديقة والدتها فايزة.

- أنا مش مصدقة إن ماما تعمل كده؟، كان ممكن تتجوز أو تشتغل أي حاجة غير الشغلانة الوسخة دي.

قالتها سمية موجهة الكلام لفايزة التي انشغلت بالطريق المزدحم، التفتت لها فايزة بعين فاحصة ثم قالت:

- شغلانة وسخة!، اصبري شوية وهتشوفي الشغلانة الوسخة هتعملِّك إيه؟

ردت سمية بحِدَّة:

- هتعمل إيه يعني؟

انفعلت فايزة وقالت بصوت حادٍ وعصبي:

- بصي يا بت، عاجبك تكملي هتاكلي الشهد، مش عاجبك، الفلوس اللي معاكي هتخلص وهتشحتي، وبرضو هتشتغلي شغلانة أمك الوسخة بس غصب عنك مش بمزاجك.

ارتعدت سمية من نبرة صوت فايزة التي شعرت سمية بسببها أنها أمام وحش عملاق سيفتك بها في لحظات، فقالت بصوت مرتجف:

- وإيه الفرق بين الغصب والمزاج؟

لم تغير فايزة أسلوبها أو لهجتها وهي تُجيب:

- شوية وهتعرفي؟

تركتها فايزة على نار هادئة لتكمل إنضاجها.. بهدوءٍ.. بفعل نيران الانتظار، تخطف نظرات بجانب عينها فتجدها واجمة وشاردة، حتى بعد أن غيرت من هيئتها تمامًا قبل أن يخرجوا من المنزل، ليس الفيلا التي يقيمون فيها، بل فيلا أخرى امتلكتها فايزة منذ زمن، ليس لاستخدامها في الأعمال المنافية، بل لإعداد وتجهيز فريقها للعمل.

قبلها بساعاتٍ، وصلت الاثنتان إلى الفيلا، الإبهار رمزٌ لكل شيءٍ فيها، بداية من التصميم الخارجي إلى محتوياتها الداخلية، أدق التفاصيل مُختارة بعناية، حتى الملابس.. ملابس بكافة الأشكال والألوان والأنواع، ملابس رجالية ونسائية مختلفة الأذواق.

انتقل الإبهار إلى سمية، واستشفته فايزة بخبرة سنين في هذا المجال، تركتها تتجوَّل في المكان وتستكشفه كقطة تدخل بيتًا لأول مرة، مبهورة بما تراه:

- تقدَرِي تسمِّي المكان ده "الكواليس" إحنا بنجهِّز نفسنا هنا قبل ما ننزل نشوف أكل عيشنا.

- هو احنا كتير يا ماما؟

- كتير أوي، وفي أنواع كتيرة.

- أنواع!

- مستغربة ليه، أيوه أنواع يا بت، تعالي اقعدي وهفهمك.

جاءتها سمية حيث تجلس وجلست أمامها:

- بصي يا سمسم، باختصار ومن الآخر، فيه نوع بيعمل الموضوع ده بسبب الفقر، وفيه نوع ممكن يكون جوزها مسافر بقاله فترة أو مسجون أو مات وماينفعش تتجوز عشان المعاش ما يروحش فبتعمل كده مش حُبًّا في الموضوع

بس عشان نفسيتها تعبت ومحتاجة للي يحسسها إنها ست، وفيه النوع اللي غاوي وبيعمله بمزاج، واحنا من النوع ده، المزاج.. المهم ننبسط وغيرنا ينبسط.

حل الصمت والذهول على سمية التي بدأت عيناها تدمعان، لمحتها فايزة التي قامت وأمسكتها من كتفيها وقالت:

- أيوه، اللي بتفكري فيه صح، أمك كانت محتاجة الفلوس بعد ما أهل أبوكي وأهلها سابوها، وبعدين الموضوع بقى بالنسبة لها مزاج لحد ما سنها كبر وبقت معلمة كبيرة.

دخلت سمية في نوبة بكاء أخرجتها من فايزة مبكرًا بصفعة على وجهها حولتها لتمثالٍ صامت.

وقفت فايزة وأمسكت بيد سمية ونظرت لها بحِدَّةٍ وقالت بلهجة آمرة:

- خُشي الأوضة اللي في الوش، تاخدي دش وتغيري هدومك وتحطي مكياج عشان خارجين.

بعقل مُشوش مسلوب الإرادة والتفكير، نفَّذت سمية الأوامر الصادرة من قوات احتلالها ودخلت الغرفة، فيما جلست فايزة تنظر نحوها وابتسامة النصر تعلو وجهها لتحقيق أهداف خطتها.

بعد دقائق دخلت فايزة الغرفة فوجدت سمية لا زالت في الحمَّام، اقتحمت عليها الحمَّام، صرخت سمية، اقتربت منها فايزة التي شمرت عن ساعديها وتوجهت لها، ارتسم الرعب على وجه سمية وهي تقول بصوت مرتجف:

- هتعملي إيه يا ماما؟

ابتسمت فايزة، والتقطت قفازًا طبيًا من رف رخامي يعلو الحوض، ثم قالت وهي مستمتعة برؤيتها لسمية وهي عارية ولازال الرعب مسيطرًا عليها:

- هتطمن إن كل حاجة تمام.

ردت سمية بلا فهم:

- كل حاجة إيه؟

أكملت فايزة ارتداء القفازات ثم قالت آمرة:

- اقعدي ووريني!

- إيه!

صفعتها فايزة مرة أخرى، جعلت سمية تنهار وسقطت على الأرض وظهرها لحوض الاستحمام.. وأجهشت بالبكاء والنحيب.

اقتربت منها فايزة وجلست على ركبتيها:

- أيوه كده يا جميل، أحبك لما تسمعي الكلام.

لم تتمالك سمية نفسها وبدأت الصراخ عندما لمست فايزة جسدها.

***

الألم النفسي والذهني أصعب بمراحل من الألم الجسدي، ما شعرت به سمية هو البؤس التام، عندما سلمت جسدها وروحها كُرْهًا لفايزة التي تفقَّدت عذريتها قبل الخروج للحاق بموعد هام رتبته فايزة لعرض بضاعتها.

تزينت سمية حتى أصبحت في أبهى صورة تحت إشراف أمها الروحية، حولتها لملكة جمال تُوِّجت للتو، اختارت لها ملابس ما يبرز مفاتنها دون أن تبرز أي جزءٍ من جسدها، تصفيفة الشعر ومساحيق التجميل والعدسات اللاصقة ذات اللون الرمادي، تغيرت بصورة كاملة، هذه ليست سمية التي تعرفها، اتخذت هيئة نجمات السينما، والفضل ليدِ فايزة الخبيرة التي تستطيع أن تحوِّل فتاة عادية إلى نجمة.

دخلت الاثنتان إلى المطعم الفاخر، جذبت إطلالة سمية أعين المتواجدين مبهورين بتلك الفاتنة القاتلة التي ظهرت فجأةً في المكان، مرتدية فستان أسودَ أنيقًا، مُتناسقة القوام، ذات شعر أسود فاحم وعينين قاتلتين.

أمسكت فايزة بيد سمية، وقادتها لطاولة محجوزة مسبقًا في منتصف المطعم، جلستا تتجاذبان أطراف الحديث، أخرجت فايزة علبة سجائر أنيقة ناولتها خلسة لسمية ونظرت لها نظرة ذات مغزى، على الفور، تصنعت سمية إخراج العلبة من حقيبتها، ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها.. وأشعلت معها المكان بروَّاده وعامليه.

تجولت فايزة ببصرها في المكان لترى نتيجة ما صنعته أيديها، كلما تنظر نحو أحد الروَّاد تجده هائمًا، حتى إن ذلك الرجل الذي تجلس بجواره سيدة والتي تبدو أنها زوجته، صفعته لما رأته مُنجذبًا بشدة لتلك الفتاة التي دخلت المطعم وأنضجت محتوياته في ثوانٍ.

بعدما تأكدت فايزة من نجاح خطتها، أخرجت جهازًا لوحيًّا من حقيبتها، وفتحت تطبيق WhatsApp، وأنشأت مجموعة أسمتها "ليلة جميلة مع نجمة"، شرعت بكتابة رسالة وضغطت إرسال، وكأنها ألقت وقودًا إضافيًا على المكان المشتعل، تلقف بعض الرجال الرسالة التي قرأوها "سمية 27 سنة، عذراء، عاين ونتفق؟".

بدأت الرسائل في الورود تباعًا، شخص يعرض عشرين ألفًا في الليلة، زاد عليه شخصٌ آخر فصارت أربعين ألفًا، من عرض العشرين ألفًا جعلهم خمسين ألفًا ،دخل شخصٌ آخر في المُزايدة على عُذريَّة سمية بعرض قيمته مائة ألف جنيه في الليلة، استفز ذلك الآخرين، ارتفعت حرارة المزاد بعدما عرض أحدهم مائة وخمسين ألف جنيه، توقفوا قليلًا، للحصول على بعض الهدوء، حتى فاجأهم شخص جديد بعرضٍ وصلت قيمته لربع مليون جنيه، الرجال ينظرون حولهم ليستشفوا مَن

هو صاحب العرض السخي، نظرات الأعين تقول أن لا أحد منهم، رسالة جديدة أتت من صاحب العرض الضخم فجَّرت الغضب في أعين باقي المزايدين، أربعمائة ألف جنيه لهذه الفاتنة، لا إراديًا.. وبعدها بثوانٍ، أُرسِلَت رسالة أخرى من أحد الأشخاص السابقين، نصف مليون جنيه لليلة مع تلك الجميلة، دقائق من الصمت سادت أرجاء المزاد، لم يزِد أحد عرضه عن النصف مليون جنيه، أعلنت فايزة أن سعيد الحظ الليلة هو صاحب العرض الضخم، أرسلت له رسالة على رقمه الخاص بأن يقابلها بالخارج بجوار سيارتها بعد قليلٍ حتى تهدأ الأمور، تناولتا الطعام على مهلٍ، وبعينها الخبيرة تطلعت فايزة نحو الجالسين لترى خيبة الأمل في وجوههم، ما عدا واحدًا يجلس بهدوء، ينظر نحوهما مبتسمًا في ظفر، بادلته فايزة بابتسامة مؤكِّدة حُسن اختياره.

قام الرجل وخرج من المطعم، وبعدها بقليلٍ، خرجت فايزة تقود حصانها الرابح، حتى وصلت إلى سيارتها لتجد الفائز واقفًا بجانب السيارة وفي عينيه علامات النصر، اقتربت منه وصافحته، سلمها شيكًا بالمبلغ، فحصته سريعًا ثم وضعته في حقيبتها.

انتحت جانبًا بسمية وقالت لها:

- شفتي!، نص مليون جنيه في كام ساعة، نصيبك منهم 200 ألف، ولو عرفتي تطلعي بحاجة لنفسك، إنتي وشطارتك!

سمعتها سمية ولم تُعِرها أيَّ اهتمامٍ، تركتها واتجهت نحو مالكها لهذه الليلة، ركبت سيارته الفخمة، وركب هو وانطلق بالسيارة، تراقبهما فايزة رائدة صناعة النخاسة التي تشعر بالزهو والفخر كمن حطم لتوه حصنًا منيعًا، حدَّثت نفسها متفاخرة:

"يا سلام عليكي يا بت يا فايزة وعلى دماغك، وكمان البت سمية لما رفعت السعر من تليفونها ولعت الدنيا".

ركبت سيارتها ثم أمسكت بهاتفها، كتبت رسالة للفائز "مبروك عليك القمر" تبعتها برسالة أخرى لسمية "ارفعي راسي يا بت".

أدارت سيارتها وانطلقت تتجول في الطرق لساعات والسعادة تغمرها لاكتسابها لاعبة جديدة في فريقها، وعميلًا سخيًا جديدًا، وقبل أن تتخذ طريق العودة نحو بيتها تجولت لفترة طويلة وهي تشعر بسعادة لا مثيل.

وصلت المنزل فوجدت ريهام وزياد جالسين يمزحان ويتحدثان، رحَّبت بهما، ثم جلست بجوارهما، فتساءلت ريهام:

- مش سمية كانت معاكي؟!

- أيوه كانت معايا.

- أومال إيه اللي رجعها قبلك؟

يبدو أن فايزة لم تستوعب ما قالته ريهام، فقالت متعجبة:

- رجعت!!

- أيوه رجعت وعَمَّالة تعيط ومنهارة، حاولت أفهم منها حاجة مش عايزة تتكلم وطلعت أوضتها وهي مش طايقة نفسها.

دفع الغضب فايزة دفعًا، قامت بعصبية وصعدت السلم بسرعة، اقتحمت غرفة سمية دون استئذان، فوجدتها واقفة أمام المرآة ولازالت بكامل أناقتها وإن فسدت مساحيق التجميل التي تضعها بسبب دموعها التي يبدو أنها لم تتوقف للحظة.. منذ فترة.

انقضت عليها فايزة، ودون أي كلمة واحدة، انهالت عليها بضربٍ مُبرحٍ وشتائم قذرة، وسمية منهارة ومستسلمة وكأنها سعيدة وتستمع بما يحدث لها.

وقفت سمية متكئة على السرير تنظر إلى فايزة طالبة الشفقة، لكن فايزة تحوَّلت إلى جلاد مجنون يتلذذ بجلده لضحيته، لكن الشفقة التي تطلبها صعبة المنال، صفعتها فايزة بقوة دار لها جسد سمية لتسقطَ أرضًا وتنزفُ دمًا من فمها وأنفها.

لم تكتف فايزة بذلك فانهالت عليها بقدميها تضربُها بقسوة في بطنها، وهي تصرخ فيها:

- إيه اللي رجَّعك يا بنت الكلب؟! انطقي!

تأوهت سمية في ألمٍ، وحاولت أن تتكلم فلم تستطع، أكملت فايزة إفراغ ما بداخلها من شحنات الغضب، بتوجيه ركلات في صدر وبطن سمية التي تتلقي الركلات في استسلامٍ تامٍ.

توقفت فايزة بعدما حل عليها التعب لكبر سنها، تنظر نحو الفتاة الملقاة على الأرض باشمئزاز، حاولت سمية رفع يديها لتشير نحو جسدها فلم تقوَ على ذلك، لم تفهم فايزة ما تقصده الفتاة، لكن الدماء على فخذي سمية اللتين تعرتا بفعل الضرب بيَّنت الحقيقة الكاملة لفايزة، التي فهمت ما حدثَ، لكنها لم تقدر ما تمر به سمية من ألمٍ نَفسيٍّ وجسدي، فأكملت سلسلة الضرب والركل والإهانة وهي تكرر جملة واحدة:

- إيه اللي رجعك يا بنت الكلب!

***

بعد أن أفرغت فايزة ما بها من غضبٍ مستعرٍ في الفتاة لخسارتها عميلًا يمكنه دفع نصف مليون جنيه لقضاء ليلة واحدة مع بائعة هوى، إهانات لفظية وجسدية انهالت بها فايزة على الفتاة المستسلمة في ضعف وقلة حيلة، الأنين والبكاء والدموع المنهمرة منها لم تؤثر في قلب سيدتها، بل زادوا من قسوتها،

يشغل بالها ما الذي عاد بتلك العاهرة سريعًا بعدما كان من المفترض أن تبيت ليلتها عند مُستأجرها السخي.

توقفت فايزة عن تعذيب فتاتها بفعل التعب الذي تمكَّن منها بحكم سنها المتقدم، قامت سمية من الأرض بصعوبة وتكومت بجانب السرير منهكة، خائرة القوى، تبدَّلت هيئتها من الفتنة الطاغية إلى المعاناة المؤلمة، فسدت مساحيق التجميل، تمزق رداؤها الذي كان فاتنًا للأعين قبل ساعاتٍ، تبعثر شعرها، وسقطت منها عدساتها اللاصقة والدماء تسيل من وجهها.

فيما كانت سيدتها تجلس متعبة تُحدق فيها، وقد بدأت نيران ثورتها في الخمود قليلًا، تتنفس بصوت مسموع غاضب ممزوج بنظرات حارقة تكاد أن تشعل النار في المكان بمن فيه ككائن أسطوري ينفثُ النار بغضبٍ دون تمييز وفي كل الاتجاهات، وبصوتٍ غاضبٍ أشبه بفحيح الأفاعي قالت:

- إيه اللي حصل يا بت!

وجهت سؤالها لسمية التي ما زالت ترتجف وتزداد حالتها سوءًا من أسلوب وطريقة فايزة في الكلام، ابتلعت ريقها بصعوبة، وأشارت لفايزة بأن تعطيها سيجارة، ألقتها نحوها مشتعلة فسقطت على قدمها فانتفضت خوفًا، اعتدلت في جلستها على الأرض وأمسكت السيجارة الملقاة على الأرض، سحبت أنفاسًا سريعة وبدأت تتحدث:

- بعد ما ركبت عربيته قعد يلف شوية وعمال يبُص عليَّا، وأنا ساكتة وهو كمان ساكت، لقيته بيقولي تحبي تروحي فين، ما ردتش عليه وفضلت ساكتة، بعديها وقَّف العربية في حتة ماشفتهاش قبل كده وضربني بالقلم وشدني من شعري وبهدلني وهو بيقول " أنا دافع فيكي قد كده، يبقي تسمعي كلامي يا..." قالي كلمة وسخة، أنا خفت وقُلت أهدِّي اللعب، روحت قُلتله مش هنروح البيت،

ضربني بالقلم تاني وقالِّي نفس الكلمة تاني: لا يا... هنا في العربية، هجمَ عليا وخلاني أعمل حاجات غريبة، اغتصبني يا ماما، وبعد ما خلَّص لقيته فتح تابلوه العربية وطلع دفتر شيكات وكتبلي شيك بميتين ألف جنيه رماه في وشي وقالي "برضو ما يخلصنيش زعلك يا قمر، بس عارفة يا... يا بنت... لو اتكلمتي في حاجة هطلع..."، طلع بعديها بالعربية وطلب إني.. وهو سايق ولما مارضتش ضربني وشتمني تاني وخلاني أعمل اللي هو عايزه، وصلني لمحل كوافير واداني فلوس عشان أظبط نفسي قبل ما أروّح.

نظرت لها فايزة نظرة مُتفحصة كأنها تتأكد من صدقها وقالت بلهجة صارمة:

- فين الشيك والفلوس؟

أشارت سمية لحقيبتها الملقاة على السرير، قامت فايزة على الفور وأفرغت الحقيبة، فوجدت الشيك ومبلغًا نقديًا كبيرًا، عادت لتجلس، أمام سمية وبدأت في عد المبلغ.

- عشر تلاف جنيه.

ألقتهم لسمية ثم ألقت بالشيك وقالت مبتسمة:

- حلال عليكي يا بت!

نظرت لها سمية ولم تفهم شيئًا، فبادرتها فايزة بقولها:

- مستغربة ليه؟ ده حقك..

ثارت سمية وهي تقول:

- حق إيه، ده اغتصبني.

ردَّت فايزة ببرودٍ:

- مالكيش دعوة، أنا هتصرف معاه بعدين، فوقي كده وخُشي خدي دُش وبعدين نتكلم.

ازدادت سمية ارتجافًا وانفعالًا:

- إنتي ليه باردة، أنا ضعت.. بقولك اغتصبني.

قامت فايزة من جلستها غاضبة وصفعت سمية التي ما زالت جالسة على الأرض:

- أنا باردة يا بنت ال...

تكومت سمية على الأرض من جديدٍ، فيما عادت فايزة لفرض سيطرتها عليها مرةً بالضرب ومرات بالإهانة حتى توقفت من التعب ثم التقطت الشيك والمبلغ، ثم اتجهت نحو الباب وهي تقول:

- ما أعرفش انتي طالعة فقرية لمين، ده أمك كانت تحب الفرفشة كانت دايمًا تقول إن الفلوس تسكِّت أي حاجة تعبانة.

أكملت طريقها نحو الباب، بينما سمية تئن وتنتحب قائلةً:

- أنا ضِعْت.. منك لله.. منك لله.

رمقتها فايزة بنظرة ميتة، وبصقت عليها وقالت:

- ضِعتي إيه، ده انتي هتعيشي في عز، يا معفنة.

خرجت من الباب تاركة سمية غارقة في المستنقع الذي سقطت فيه ولا تدري أكان هذا السقوط صدفة أم بمحض إرادتها أم خوفًا من بطش تلك السيدة المتوحشة أم أن عليها أن ترضى بميراث والدتها القذر.

وفي ذروة ضعفها وتفكيرها انفتح باب الغرفة لتجد فايزة تقف على مدخل الغرفة وتتحدث بلهجة صارمة وآمرة:

- لو حد سألك إيه اللي حصل ابقي قولي أي حاجة، قولي اتخانقت مع حد من قرايبي ولا اتزحلقت في الحمَّام، قولي أي حاجة، بس لو اتكلمتي في حاجة.. اللي انتي شُفتيه مني ده هيبقى مساج بالنسبة للي هعمله فيكِ بعد كده.

أنهت حديثها وركلت رزمة الأوراق المالية الملقاة على الأرض نحوها وهي تضحك:

- اسمعي كلام أمك كويس، الفلوس هتنسيكي التعب، يا وِشّ الفقر.

أغلقت الباب بقوة فأحدث ضجيجًا، فلم تتمالك سمية نفسها فدخلت في نوبة بكاءٍ حتى أغُشيَ عليها من التعب.

***

ارتدت سمية نظارة سوداء كبيرة وغطت رأسها بغطاءٍ أسود لتخفي آثار الضرب المبرح الذي تعرضت له على يد فايزة أثناء دخولها للحي الذي كانت تسكن فيه مع والدتها.

استقبلها الجيران بحفاوة تليق بعِشرة سنين، ذكَّروها بحكايات عن والدتها الطيبة ذات السيرة الحسنة والتي كانت تساعد من يطلب مساعدتها، تقابل كلامهم هذا بابتسامة باهتة، وفي داخلها نارٌ مستعرة، تقول لهم سرًا "أنتم لا تعرفون شيئًا عن تلك السيدة الفاضلة الودودة التي تعرفونها جيدًا وتذكرون محاسنها، فهي للأسف قوادة محترفة اتخذت من تجارة جسدها وأجساد غيرها مصدرًا للرزق".

وبعد أن تخلصت من فضول وتطفل الجيران وأسئلتهم عن حياتها وعن ماذا تفعل الآن، دخلت الشقة التي احتضنت مراحل حياتها من الطفولة للشباب، لكن هذه المرة المشاعر مختلفة، لقد بغضت كل شيء يذكِّرها بهذا الماضي، كرهت والدها ووالدتها وفايزة وجميع مَن تعرف، تتمني الموت هربًا من الألم والعذاب الذي تعيش فيه.

ظلَّت واقفة لفترة في الصالة ترمق كل أركان الشقة التي كساها الغبار، تتمنى أن تشعل فيها النار لتتخلص منها، لكنها تتخلص من هذه الفكرة بمجرد أن تتذكَّر

ما فعلته به فايزة، فلا ملجأ لها إلا هنا من البطش والسطوة التي تمارسها عليها صديقة والدتها العزيزة التي أحسنت حفظ الأمانة.

نزعت حذاءها وغطاء رأسها ونظارتها وألقت بحقيبتها الصغيرة على الأريكة وتجولت في الشقة.

بدأت بغرفتها، دخلتها وأضاءت المصباح، الغرفة باقية كما هي منذ أن تركتها منذ شهور، فتحت الدولاب وجدت ملابسها كما هي، نظرت نحو المكتب الحديدي القديم الموجود في الركن، تذكرت أيام دراستها، وتذكرت كيف كانت والدتها تساعدها وتبعد عنها ما يُشتتها عن دراستها، ثم ذهبت وفتحت النافذة فسطع نور الشمس بداخلها مثيرًا الغبار الذي تكوم على محتويات الغرفة.

تركت غرفتها ودخلت الغرفة المجاورة، غرفة والدتها، أضاءت مصباحها فلم يعمل، تحسست طريقها نحو النافذة وفتحتها وفعلت الشمس ما فعلته بغرفتها، اتجهت نحو السرير الذي فارقت والدتها الحياة عليه، وقفت بجوار السرير تتمتم بعض الأدعية طالبة لها الرحمة والمغفرة، ثم قرأت الفاتحة، وبدأت تبكي كلما نظرت إلى كل ركن في الغرفة.

مسحت الدموع من عينيها وفتحت دولاب والدتها، ازداد بكاؤها عندما رأت حُليّها وملابسها، لمحت عينيها ذلك الصندوق الكبير في الرف السفلي، أخرجته وكان ثقيلًا، وبعد أن أزاحت ما حوله من ملابس، حملته واتجهت نحو السرير ثم وضعته وفتحته وبدأت تعبث بمحتوياته.

صور لها وأخرى لوالدتها وصور لوالدها في شبابه الذي لم ترهُ من قبل، أوراق قديمة، وجدت قسيمة زواج والدها ووالدتها، وصور من زفافهما، وجدت ورقة مطوية في جانب الصندوق، فتحتها بحرصٍ خوفًا من أن تتمزق، قرأتها فوجدت أنها قسيمة طلاق والديها، فسألت نفسها لماذا قالت لها فايزة أن والدها توفى في حادث؟

أكملت بحثها في الصندوق، وجدت مزيدًا من الصور لها عندما كانت طفلة، ضحكت عندما رأتها وتذكرت أيام طفولتها.

مازالت تبحث في الصندوق، صورة لوالدتها مع مجموعة من السيدات بينهن فايزة وهي شابة التي ما إن رأت سمية صورتها والتي لم تتبدل فيها هيئتها كثيراً، ارتجف جسمها خوفًا وتذكَّرت ما حدثَ، وجدت كذلك شهاداتها المدرسية وتذكرت تفوقها، فعادت للضحك مجددًا.

لفت انتباهها ورقة مطوية بعناية مربوطة بخيط أبيض سميك، فضتها في رفقٍ وفتحت طياتها بحرصٍ شديدٍ، فحصت الورقة بعناية وشاهدت فيها خَطَّ والدتها، مسحت برفقٍ ما على الورقة التي مالت للاصفرار من تراب وقرأت ما جاء في السطور:

"ابنتي العزيزة سمية، تحياتي لك وسلامي، لقد قُدِّر لي أن أمرض بعد ولادتك، فلقد أصبت بحمى النفاس ونزع الأطباء رحمي فلن أقدر بعدها على الإنجاب أو حتى المعاشرة مرة أخرى، وعندما عَلِمَ أبوكِ بهذا طلقني من فوره بدلًا من أن يظل بجانبي، تركني وتزوج من صديقة عمري فايزة، صديقة عمري التي تجاهلتُ نظرات إعجابها بوالدك، حتى حدث ما حدث وتزوجا، ترك عمله كموظف حكومي، واتجه لتجارة المخدرات والآثار ليؤمِّن لفايزة الملعونة مستوى معيشيًّا يليق بأسرتها التي كانت عريقة، تركني وأنجب منها حامد وريهام، لكنهُ أبى أن تستمر خسته أكثر من ذلك فسجل اسمك باسم شخص كان يعمل معه توفى أثناء تهريب المخدرات، أنتِ يا سمية لديك أشقاء من الأب، حاذري من فايزة فإنها شيطان قذر لا مثيل له في الخسة، والأدهى من ذلك أن أباكِ الملعون لا يعلم أن فايزة قوادة ومن قبل ذلك كانت غانية محترفة، وحتى إن كان يعلم فلا أتوقع منه الغضب أو الرفض فهو مثلُها خائن وحقير، حاذري يا بُنيتي من تلك الملعونة

فقد خربت حياتي من قبل وهي مستعدةٌ أن تُخْرب عليكِ حياتكِ.. إن استطاعت وتمكنت منكِ، لكِ إخوة ابحثي عنهم واحتضنيهم فهم ضحايا مثلك، ضحايا أب خسيس باع زوجة وابنه من أجل المال وأم كالحرباء تتلون لتحقق هدفها".

- يا بنت الكلاب.

قالتها سمية وهي تتجول في الغرفة غير مصدقة ما قرأته للتو، خرجت مُندفعة إلى الصالة نحو الأريكة التي ألقت عليها حقيبة يدها، أخرجت هاتفها، لكن كانت هناك مكالمة واردة، نظرت في اسم المتصل وقالت بصوت ساخر:

- كويس إنك اتصلتي!

فتحدثت مُتصنعة البكاء:

- أيوه..

- مالك فيه إيه؟!

- مفيش حاجة..

قالتها سمية ثم انفجرت مُتصنعة مزيدًا من البكاء..

- مالك يا سمية! سمية.. ردي عليا فيه إيه.

تمالكت سمية نفسها قليلًا، ثم قالت:

- مفيش حاجة!

- أومال بتعيطي ليه؟!

أجابت سمية وصوتها لا زال باكيًا:

- أبدًا أصل أنا رُحت شقة ماما!

- عشان كده بتعيطي يا حبيبتي!

- معلش، اعذريني أصلها وحشتني.

زادت سمية من تصنعها، ويبدو أن محدثتها تأثرت ببكائها فقالت لها وصوتها يبدو عليه التأثر الكبير:

- تعيشي وتفتكري يا حبيبتي، أنا جاية خليكي ماتمشيش.

- ماتتعبيش نفسك، أنا شوية وماشية.

- بقولك أنا جاية في السكة، مع السلامة.

- ماشي يا ماما، مع السلامة.

أغلقت سمية الهاتف وتحولت لحالة غير الحالة التي كانت تتحدث بها، تنفست بعمقٍ وجلست على الأريكة ثم قالت ساخرة وعيناها تلمعان:

- اتقل على الرز عشان يستوي!!!

***

ارتفع رنين جرس الباب عدة مرات، خرجت سمية من غرفة والدتها واتجهت نحو الباب وعندما فتحته وجدت فايزة واقفة أمامها والتي ما أن رأت سمية منهارة وباكية، احتضنتها.

تأثرت فايزة لحال سمية التي تبكي في أحضانها، ربتت عليها ودخلن إلى الصالة، جلستا متجاورتين، سمية تبكي وفايزة متأثرة بشدة.

- إيه يا بنتي اللي جابك هنا؟!

أجابتها سمية بصوت باكٍ:

- افتكرت ماما الله يرحمهما، وبعدين أنا تعبت من اللي شُفته.

- يا بنتي ماتزعليش مني لما قسيت عليكي، أنا عملت كده عشان عايزاكي تبقي حاجة حلوة.

- يا ماما أنا اتبهدلت، ولما ضربتيني حسيت إني مش مهمة عندك.

- إزاي يا بت تقولي كده، أنا خايفة عليكي ومش عايزاكي تتبهدلي زي ما أمك اتبهدلت في الأول، عايزاكي تعيشي مرتاحة، وبعدين الحيوان اللي عمل فيكي كده أنا هتصرف معاه كويس أوي.

ظلت سمية صامتة لفترة، فأكملت فايزة حديثها:

- هقولك على حاجة، في ناس تانية عايزينك، اتجننوا لما شافوكي في المطعم وشافوا صورك، وهيدفعوا حلو.

- تاني يا ماما؟ ماتجبيش سيرة الفلوس تاني، أنا كرهتها وكرهت نفسي.

قالتها سمية وهي تصرخ وركضت نحو المطبخ وفايزة تركض وراءها ولا تفهم ماذا يحدث حتى وجدت سمية تُخرِج سكينًا كبيرًا وتريد أن تطعن نفسها، على الفور أمسكت النشابة من على المنضدة المجاورة لها وألقتها على سمية لتصطدم بوجه سمية ويسقط السكين من يديها ثم تسقط على الأرض باكية، تجلس فايزة بجوارها وبدأت تبكي هي الأخرى، وتحتضنها بقوة وتبدآن في البكاء.

- إنتي عاوزة تموتي كافرة.

- زهقت يا ماما وتعبت، أكيد الموت أحسن.

- يا بت ماتعمليش كده في نفسك، تعالي نمشي من هنا عشان نعرف نتكلم.

ردَّت سمية بانفعال وصرخت قائلة:

- أنا مش همشي من هنا.

كررت كلامها أكثر من مرة، وألقت بنفسها نحو فايزة ودخلت في نوبة بكاء أخرى، أما فايزة أرجعت رأسها للخلف وزفرت بقوة في مللٍ، ربتت على كتف ورأس سمية عدة مرات، فبدأت سمية تلين وتهدأ قليلًا.

- سمية، تعالي نمشي من هنا، ده نصيب وقدر، ومالناش دخل فيه، تعالي نروح ونتكلم بعدين.

قامت فايزة وساعدت سمية على القيام، خرجتا من المطبخ، لازمت فايزة سمية خوفًا من أن تقوم بشيءٍ مجنونٍ آخر، جلبت سمية مستلزماتها بمساعدة فايزة.

تأكدت سمية من أنها لم تنسَ شيئًا، توقفت للحظة ونظرت ناحية صورة والدتها المعلَّقة، اقتربت منها ثم بصقت عليها.

خرجت فايزة تتبعها سمية التي ألقت نظرة أخيرة على الشقة وهي تنظر للصورة وقالت محدِّثة الصورة:

- سامحيني يا ماما، أكيد هتعذريني.

ركبتا سيارة فايزة الواقفة تحت البيت، وضعت سمية حقائبها في الخلف، وجلست بجوار فايزة وأرجعت رأسها للخلف وأغمضت عينيها.

وأثناء عودتهما للمنزل فتحت سمية عيناها وقالت لوالدتها البديلة:

- معاكي سجاير!

- افتحي التابلوه.

فتحت سمية التابلوه وأخرجت علبة سجائر وقداحة، أشعلت واحدة وقدمت واحدة لفايزة التي رفضتها.

- بقولك يا ماما، أنا عاوز أروح للكوافير عشان أجهز نفسي..

- تجهزي نفسك؟!

- أيوه، عشان الشغل.

تعجبت فايزة من حال سمية المتقلب، وسألتها:

- شغل إيه؟!

ردت سمية دون تردد ودون أن تلتفت لفايزة:

- أنا هكمل شغل ماما الله يرحمها.

***

تبدلت أحوال سمية تمامًا بعد زيارتها الأخيرة إلى شقة والدتها، أتبعتها بزيارة لقبرها ظلت ساعات تبكي وتطلب السماح والمغفرة من والدتها وتدعو لها بما تيسَّر لها من الدعاء.

فمنذ أن ذهبت للشقة ورأت أوراق والدتها وهي تكن كراهية كبيرة لفايزة، تلك المرأة التي دمَّرت حياتها وحوَّلتها لغانية أرستقراطية طمعًا في المال، لقد ربحت مبلغًا طائلًا في أول مزاد على عُذريَّتها، نصف مليون جنيه، وهي كذلك تحصلت على مبلغ محترم في بضع ساعاتٍ شعرت بعدها بهوانٍ وضعفٍ، تشكر ربها وتحمده أنها لم تنجرف وراء فايزة وحُبِّها الجارف للمال والسطوة، لقد شاءت الأقدار أن تكتشف مدى كذب وافتراء تلك السيدة على والدتها، شوَّهت صورتها أمام ابنتها، وسحبتها لمستنقع من العار والخزي، لكنها عندما بحثت في أوراق والدتها بالصدفة اكتشفت الحقيقة، فتلك السيدة الوقور الصديقة الوفية لوالدتها مجرد حرباء متلونة، قوَّادة كاذبة، استغلت ما تتمتع به تلك الفتاة اليتيمة من جمالٍ لتحوِّلها لعاهرة وتربح من ورائها الكثير، أما والدتها التي ظلمتها بسبب كذب فايزة عليها، فتدعو لها بالرحمة والمغفرة وتطلب منها الغفران جراء ظنها السيء بها وبأخلاقها.

تذكرت سمية كل ما حدث وهي تخرج من مركز التجميل، خرجت في أبهى صورة، رأتها فايزة التي كانت تنتظرها في السيارة فلم تتمالك نفسها وهي تصيحُ فرحًا:

- إيه الحلاوة دي يا بت، يخرب عقلك ده انتي زي القمر!

ابتسمت سمية مجاملة لتلك المرأة التي تكنُ بداخلها شرًا لم ترَ مثله من قبل:

- هنبتدي شغل إمتى؟

سألت سمية دون أن تنظر لفايزة، فأجابتها:

- إنتي جاهزة؟

- طبعًا، جاهزة ودلوقتي لو حبيتي!

- حبيبي يا رايق! طبعًا!

سارت فايزة بالسيارة حتى توقفت في طريق جانبي وقامت بضغط زر الانتظار، وأوقفت محرك السيارة.

ظلتا جالستين صامتتين لفترة حتى وجدتا سيارة تقترب وقد أضاءت مصابيح الانتظار وتوقفت بالقرب منهما.

- يلا يا ست الكل.

هبطت سمية من سيارة فايزة واتجهت نحو السيارة الأخرى وركبتها، رحَّب بها السائق وقدَّم نفسه قائلاً:

- عماد شكري.

- سمية.

قالت اسمها بصوت أنثوي فتَّاك يبعث الحرارة في الجسم وعلى وجهها ابتسامة ساحرة أسرت عقل السائق.

أدار الرجل محرك سيارته استعدادًا للرحيل، فسألته سمية:

- هنروح فين؟

- الفيلا بتاعتي في أكتوبر..

- لوحدك؟

- أيوه..

- جميل، هي اتفقت معاك على كام؟

- خمسة وعشرين على أساس إنك هتباتي..

- أوكي، يلا بينا..

تعجب الرجل من الأسئلة التي طرحتها سمية التي لم تمهله فرصة للتعجب أكثر من ذلك عندما قالت:

- بس انت ما اتفقتش معايا لسه؟

- تؤمري ومش هنختلف!

- تمام، Let's go.

- أوكي.

انطلق الرجل بسيارته متخذًا طريقه لقضاء ليلة ممتعة، فيما تابعتهما فايزة حتى غابت السيارة عن نظرها.

أدارت فايزة محرك سيارتها واتخذت طريق عودتها للمنزل، لم تجد تفسيراً للتغيُّر الذي حدث لسمية وموافقتها على العمل، توجست من أن تلك الفتاة تهادنُها لغرض ما، لكن عندما أمسكت برزمة كبيرة من الأوراق المالية، تبددت مخاوفها تمامًا وهي تُمني نفسها بالمزيد طالما تواجدت تلك الفتاة تحت إمرتها.

***

شتان الفارق بين رحمة التي تجلس الآن أمام المرآة وقد شحبت، وظهرت تحت عينيها تلك الهالات السوداء المميزة الناجمة عن الإجهاد والقلق والتوتر، أهملت

نفسها وظلت حبيسة في غرفتها طوال اليوم، لا تخرج منها إلا قليلًا للاطمئنان على أطفالها، فمنذ أن واجهها زياد بعلاقتها مع عصام صديق زوجها الحميم، ثم لقاءها بعصام الذي صدمها ببرودٍ ولا مبالاة فاقت تحملها.

وبين رحمة تلك الفتاة الرقيقة الحالمة، التي تذكَّرت أيام الدراسة وكيف كانت تخاف من الارتباط بأي زميلٍ، لأنها مقتنعة أن قلبها وعقلها وجسدها هم مِلكٌ خالص لزوجها ولا أحدَ غيره، والآن هي خائنة لزوجها وأطفالها ومع مَن.. صديق زوجها الحميم، الذي شغل حياتها بعد ابتعاد زوجها عنها، تظن أنه لا يكرهها ولا يحبها وتظن كذلك أنه يريد أن يتخلص منها، لكن وجود منار وياسر يمنعان حامد من تطليقها.

لاحظ جميع مَن في البيت الحالة التي أصبحت فيها، وحاولوا إخراجها من حالتها تلك، ففشلوا، تحدثت فايزة إلى حامد فتحجج بالعمل، ولم تجد فايزة أيًّا من أقارب رحمة يصلح لإصلاح الفتاة المدمَّرة، فوالداها توفيا منذ فترة، ولم تعرف لها صديقة مقربة من قبل، فعلى الرغم من أنها حماتها فهي تعاملها جيدًا، وعلاقة رحمة بريهام جيدة، لكن ريهام لا تصلح لتلك المهمة، وحماها لا يصلح أيضًا لأنه مهتم بالعمل مثله مثل زوجها.

لمعت الفكرة في عقل فايزة، عندما رأت سمية وهي عائدة من الخارج، استقبلتها بترحابٍ، ودخلتا غرفة سمية وأغلقت الباب خلفها.

توجست سمية خوفًا من فايزة التي جلست وقالت:

- سمية، أنا عاوزاكي في موضوع مهم!

ازداد خوف سمية مما هو آتٍ، تشعر بمصيبة قادمة، فقالت مُتوجسة:

- خير يا ماما؟!

تنهدت فايزة بصعوبة ثم قالت:

- رحمة مش عجباني..

- إزاي؟!

- حالتها زي الزفت، اتغيرت، إنت شُفتيها؟!

- فعلا، هي اتغيرت، ومش عارفة ليه؟

- أنا عاوزاكي تعرفي ليه وتبلغيني..

- أنا؟!

تعجبت سمية من اختيار فايزة لها لهذه المهمة، قامت فايزة ودارت في الغرفة وهي تقول:

- أنا ما عرفتش أوصل لحاجة، ولا ريهام، ولا حامد، ولا أبوه حتى عيالها مش عارفين.

- وحامد كمان؟

- أيوه..

- وانتي متوقعة أنها تتكلم معايا؟!

- حاولي بس..

قالتها فايزة وخرجت من الغرفة تاركة سمية تضرب أخماسًا في أسداسٍ، لا تدري ماذا تفعل.

هبَّت فكرة في رأس سمية أن فايزة تريد رحمة لتعمل تحت إمرتها، ضحكت سمية بسخرية من تلك الفكرة.

- الهانم عايزة مرات ابنها تبقى مومس!؟

ظلت سمية تضحك ساخرة وتهز رأسها متعجبة، واستقر رأيها على هذه الفكرة وظلت ترددها "الهانم عايزة مرات ابنها تبقى مومس!؟".

خرجت سمية من غرفتها وتوجهت لغرفة رحمة، وطرقت الباب فجاءها صوت رحمة صارخًا ومخنوقًا:

- محدش لُه دعوة، سيبوني في حالي!

- أنا سمية يا رحمة، افتحي بعد إذنك.

لم ترد رحمة، فطرقت سمية الباب عدة مرات فلم تسمع ردًا، همت بالانصراف لكن صوت انفتاح قفل الباب أوقفها والتفت خلفها لتجد رحمة واقفة على الباب في صورة مزرية أدخلت الشفقة في قلب سمية.

ألقت رحمة نفسها في حضن سمية منهارة باكية، سحبتها سمية داخل الغرفة مرة أخرى، فتوقفت رحمة وقالت:

- مش عايزة أدخل جوة..

- خلاص تعالي نقعد في أوضتي..

قالتها سمية، ثم دخلت الاثنتان غرفة سمية، جلست سمية على الأرض وقد أولت ظهرها إلى الحائط ومدت قدميها، فيما جلست رحمة القرفصاء على السرير.

قامت سمية فأحكمت إغلاق الباب، وعادت لجلستها مرة أخرى، ظلت رحمة ترمق سمية بنظرات حزينة خائفة، قطعت سمية الصمت قائلة:

- لو مش عايزة تتكلمي معايا، براحتك ومش هضغط عليكي.

انفجرت رحمة باكية بقوة، رقَّ قلب سمية لحالها فقامت وجلست بجوارها على السرير ثم احتضنتها وربتت على كتفيها ورأسها وهي تقول:

- براحتك يا حبيبتي، خليكي على راحتك..

- لا أنا محتاجة أتكلم.

- لو مش قادرة بلاش.

- أنا تعبت ولازم أتكلم.

ناولت سمية رحمة زجاجة مياه بجوار السرير، فشربت منها قليلاً ثم تنفست بصعوبة وقالت وهي ترتجف:

- أنا خنت حامد..

يبدو أن سمية لم تستوعب ما سمعته، فقالت:

- خنتي جوزك، مع مين؟

- مع عصام..

- عصام مين، صاحب جوزك!، وحامد عرِف؟

- لا..

- أومال إيه اللي مبهدلك كده؟

- زياد خطيب ريهام شافنا مع بعض؟

- شافكوا ماشيين ولَّا حاجة تانية؟

- لا شافنا ماشيين عادي بس كنا منسجمين أوي..

بلعت سمية ريقها بصعوبة، وفركت جبهتها وقالت:

- ممكن لو زياد اتكلم، تقولي أي حجة..

هزت رحمة رأسها في أسى ويبدو أنها تستعد لنوبة بكاء جديدة وهي تقول:

- اللي بيني وبين عصام كان أكتر من كده!

- أكتر من كده إزاي يا رحمة!

وما إن سمعت كلام سمية ورأت تعبيرات وجهها المليئة بالتعجب والاستفهام،

حتى انفجرت رحمة باكية وتحدثت بانهيار، أما سمية فقد اتسعت عيناها تعجُّبًا مما تسمع.

***

ساعات من الدوران في الشوارع بلا هدفٍ يحاولُ استعادة اتزانه، مطارقُ الفكر تطحنُ خلايا رأسهُ بلا هوادة، جعلته غيرُ مُتزنٍ، حتى كاد أن يصطدم بشاحنة كبيرة، توقف على جانب الطريق مستجديًا الهدوء والسكينة بأي طريقة وبأي ثمن، ولكن من أين له بهما بعد كل ما سمع، أطفأ محرِّك سيارته وأغلق الزجاج ثم أغلق عينيه وأراح ظهره للخلف، بذهنٍ مُشوَّشٍ يطرح أسئلة متتالية سريعة، ومن سرعتها يكاد ذهنه لا يعي ماهية تلك الأسئلة لتصبح الإجابة عليها صعبة أو تبدو مستحيلة.

قطع رنين الهاتف خلوته، نظر في هاتفه الملقى على الكرسي المجاور، فتعجب من تلقيه مكالمة من ذلك الشخص وفي تلك الساعة، ظلَّ ينظر للهاتف حتى انقطع الاتصال، فأغمض عينيه مجددًا، لكن تكرار الرنين استفزه فأجاب المُتصل بملل:

- مساء الخير يا فريد.

جاء صوت فريد حماسيًا وهو يقول:

- قصدك صباح الخير يا معلم، أخبارك إيه؟

- بصوت مهموم قال حامد:

- أنا كويس، إنت اللي أخبارك إيه؟

انتقل الهمّ إلى صوت فريد وهو يقول:

- أنا عايش الحمد لله، بس صوتك بيقول إنك مش كويس.

- هو أنا مفضوح للدرجة دي؟

- صوتك باين، إنت فين دلوقت؟

تنهَّد حامد وقال:

- في الشارع، ماليش نِفس أروح.

عاد الحماس مجددًا لصوت فريد:

- بقولك إيه، أنا في الحسين دلوقت، والفجر قرب يأذِّن ما تيجي نصلي الفجر سوا وبعدين نتكلم؟

ردَّ حامد دون تردُّدٍ:

- مسافة السكة، بقولك إيه هو أخوك معاك؟

ضحك فريد وقال:

- لا مش معايا، مسافر من يومين وراجع.

- حلو أوي اقفل انت، وشوية هتلاقيني عندك، سلام.

- سلام.

دبَّ النشاط في جسد حامد، وأدار محرك سيارته، وسار بها بسرعة مستغلًا خلو الطرق من الزحام في هذه الساعة، فوصل قبل أذان الفجر بدقائق، أوقف سيارته، ثم دخل مسجد الحسين، ثم توضأ وصلى ركعتين، وبدأ يبحث عن فريد بعينيه، اتصل به فوجد هاتفه مغلقًا، ثم رآه قادمًا نحوه بابتسامته الطيبة، تعانقًا ثم جلسا فقال حامد هامسًا:

- إنت كلمتني ليه؟

هزَّ فريد رأسه وكتفيه وهو يقول بهدوءٍ:

- أبدًا، جيت على بالي قُلت أتطمن عليك.

- بس كده؟!

هز فريد رأسه مجددًا وقال:

- أيوه بس كده.

ظلا ينظران لبعضهما البعض حتى ارتفع صوت الآذان، ظلا صامتين حتى فرغ المؤذن فقام فريد وساعد حامد على النهوض وهو يقول:

- نصلي الفجر وبعدين نتكلم.

أومأ حامد برأسه موافقًا، فذهب كُلٌّ منهما في جانب، فجلس حامد وقد تجمعت الهموم في وجهه وأحسَّ بكتفيه وكأنهما تحملان عبئًا ثقيلًا، فانخرط في نوبة بكاء مفاجئة جذبت الناس حوله، نظر له فريد من بعيدٍ وعلى وجهه أمارات الحزن. أُقيمت الصلاة، صلى الاثنان متجاورين وكأنهما يريدان مزيدًا من التواصل بينهما، فلما فرغا من الصلاة قاما صامتين، وخرجا من المسجد في اتجاه السيارة ركباها وخرجا من المنطقة يتجولان بالسيارة في الطرق الخاوية إلا من القليل من السيارات.

- إنت وصلت لحد فين؟ وعامل إزاي؟

سأل فريد، وكأنما أشعل السؤال النار في حامد الذي زفر بقوة وقال:

- زفت بحسَّك يا فريد.

قهقه فريد وهو يقول:

- افتكر اللي قُلته قبل كده!

بلهجة مريرة قال حامد:

- فاكر كل كلمة قُلتها، بس مش مصدق إنهم مخبيين كل ده.

- فاضلك قد إيه في الليستة بتاعتك؟

- فاضل 3..

- ممكن أعرف مين، لو مش هيضايقك؟

ضحك حامد بمرارة وقال ساخرًا:

- لا مش هتضايق ولا حاجة، فاضل الحاج والحاجة وصاحب عمري..

- ربنا معاك.

انفعل حامد من هدوء كلمات فريد، فقال:

- بتتكلم عادي كأنك مالكش دخل بالموضوع.

- وأنا مالي، أنا حذرتك وانت الفضول قتلك، مليش ذنب خالص؟

انفعل حامد أكثر وقال بغضبٍ:

- مالكش ذنب؟

غيَّر حامد الطريق الذي يسلكه فجأة ثم زاد من سرعة سيارته، فانكمش فريد في كرسيه وهو ينظر برعبٍ لحامد الذي يقود بتهور ورعونة وكأنما يطارده شبحٌ، زاد حامد من سرعة السيارة وازدادت قيادته تهورًا، حتى توقف فجأة بالسيارة التي تركت إطاراتها علامات على أسفلت الطريق، ثم قال غاضبًا:

- اتفضل في ستين داهية، مش عايز أعرفك تاني.

ردَّ فريد متعجبًا:

- مالك يا برنس فيه إيه، إنت السبب في كل حاجة، أنا مجرد وسيلة ليس إلا و...

قاطعه حامد وقال:

- إنت بني آدم فاشل كان عندها حق شيرين مراتك تخاف على نفسها وبنتها منك، إنت فاكر نفسك عبقري، إنت غبي وطفس وهمك على بطنك، الحمد لله إن بنتك ماتت قبل ما تخلص عليها بغبائك.

امتقع وجه فريد وقال:

- نورا ماتت، شيرين اللي قالتك كده، ولَّا انت بتألف من عندك أي كلام؟

ازداد انفعال حامد وهو يقول:

- أيوه شيرين اللي قالت كده، وفعلاً كان عندها حق في كل كلمة قالتها عنك، إنت مجنون وغبي.

دار حامد بجسده للخلف وأمسك حقيبة أخرج منها رزم مالية ألقاها على فريد الذي جمعها ووزعها في ملابسه دون أن ينطق بكلمة واحدة ونظر لحامد نظرة خاوية من أي معنى ثم بصقَ على وجهه وكال لكمة قوية لحامد وقال:

- مع السلامة يا قفص.

هبط فريد من السيارة مُترنحًا، واتجه نحو مدخل العمارة التي يقطنها، لكنه انحرف ناحية اليمين حتى توقف أمام أحد المطاعم وبدأ في طلب الطعام، كل هذا وحامد يراقبه من خلال المرآة حتى وجده يعود لمدخل البناية ويختفي بداخله.

التقط حامد أنفاسه في هدوءٍ مغمض العينين، قطع عصام خلوته بمكالمة هاتفية، استقبلها حامد وهو يقول متصنعًا المزاح:

- لسه صاحي ليه يا بطيخة؟

علت ضحكة عصام وهو يقول:

- شكلك فضحتنا.

ضحك حامد وقال:

بقولك إيه، ما تيجي نطلع الساحل يومين نغير جو.

راقت الفكرة لعصام فقال مبتهجا:

- أجيب البت معايا؟

- لا ماتجبش حد، أكيد في كتير هناك، يومين تلاتة هكلمك وأكِّد عليك.

- تمام يا برنجي، سلام.

- سلام.

أنهى حامد المكالمة وتحرك بسيارته ثم توقف أمام بائع صحف فابتاع مجموعة من الصحف، ثم توقف على جانب الطريق وبدأ يتصفح الجرائد حتى توقف عند أحد الأخبار وقد اتسعت عيناه لما قرأ خبرًا يقول "العثور على جثة شاب ممزقة على طريق الساحل" مع صورة منخفضة الجودة للجسد الممزق.

فقال حامد بهدوء:

- الله يرحمك يا زيزو، كنت زبالة بس تستاهل اللي جرالك.

***

فرض الاكتئاب نفسه وبقوة على فريد بعد معرفته بخبر وفاة نورا، طاح في أرجاء الشقة مُحطمًا مُحتوياتها حتى غَلَبهُ التعب فسقط أرضًا وتكوم في أحد الأركان مُمسكًا بصورة نورا وهي ابنة الثلاثة أعوام، ثم دخل في نوبة بكاء حادة، أخرج هاتفه وبحث في الأسماء حتى وجد ضالته وأجرى الاتصال وقد تحشرج صوته وصدره من البكاء والنحيب، أجاب المتصل بصوت ناعس ساخط بسبب الوقت المبكر لمكالمة من شخص غير مرغوب فيه وغير متوقع حدوث اتصال معه بعد كل ما حدث بينهما، فقالت شيرين ساخطة:

- عاوز إيه يا فريد؟

بصوت مبحوح قال فريد غاضبًا:

- نورا ماتت إمتى يا شيرين؟

اعتدلت شيرين في السرير وقالت مصدومة:

- مين اللي قالك يا فريد؟

ردَّ فريد منفعلًا وقال:

- مش مهم مين، ضحكتي عليَّا ليه وخبيتي الخبر ليه؟

بانفعالٍ أكبر قالت شيرين:

- خبيت عشان خايفة عليك، وكفاية اللي حصل قبل كده، ولَّا نسيت انت كنت عامل إزاي.

تنهد فريد بصعوبة وقال:

- ماتت إمتى؟

بدون أي مقدمات انخرطت شيرين في نوبة بكاء انتقلت عدواها عبر الأثير لفريد، ثم قالت باكية:

- من سنتين؟

- حرام عليكي، ماقولتليش ليه، مش حجة إنك خايفة عليَّا.

- أيوه يا فريد خايفة عليك، كنت متوقعة إنك هتنهار وممكن تموِّت نفسك، أنا حبيتك ومش هنكر، بس انت اتغيرت وبقيت واحد تاني غير اللي أنا أعرفه، وفجأة ومن غير سبب لقيتك اتحولت لمجنون.

- أنا مجنون يا شيرين!!

- أيوه يا فريد لما تهملني وتهمل بنتك بالشهور ولما سألتك ضربتني وضربتها، ولا مش فاكر.

ازداد بكاء فريد وهو يقول:

- أنا آسف يا حبيبتي على كل حاجة وحشة عملتها في حقك وفي حق نورا.

أجابت شيرين وهي تبكي مثله:

- مفيش داعي للاعتذار اللي حصل حصل خلاص.

- شيرين...

- أيوه.

- أنا عاوز أروح لنورا ممكن تودّيني النهارده.

- حاضر، قابلني كمان ساعة عند كلية البنات.

- حاضر يا حبيبتي، مسافة السكة.

أنهى فريد المكالمة وخرج من الشقة وآثار البكاء واضحة عليه، نزل الدرج بسرعة مهولة تتنافي مع جسده الثقيل ليصطدم بأخيه الصاعد، فأوقفه وقال:

- فيه حاجة ولَّا إيه؟

توقف فريد ملتقطًا أنفاسه المتقطعة، وقال:

- رايح أزور نورا، تعالى معايا.

سار فريد كالمنوَّم مغناطيسيًا مع أخيه خارج البناية وقال:

- إحنا هنقابل شيرين الأول عشان هتيجي معايا.

- شيرين مراتك؟!

قالها المليجي بتعجب، فقال فريد بهدوءٍ:

- شيرين طليقتي مش مراتي.

أوقف فريد سيارة أجرة، استقلها الاثنان وتوجها لمكان اللقاء، وطوال الطريق ظلَّ فريد يُحدق للفراغ مُسلمًا وجهه لتيار الهواء البارد القادم من نافذة السيارة، شتت السائق انتباهه عندما سأله عن وجهته فكرَّرها فريد عليه، بعد دقائق وصل الاثنان للمكان، هبطا من السيارة وظلا واقفين حتى توقفت أمامهما سيارة تقودها سيدة، هبطت منها شيرين وقد اكتست بالسواد، ولم تنطق بكلمة فقال فريد:

- صباح الخير يا شيرين.

أومأت شيرين برأسها دون أيِّ تعبيرٍ على وجهها، فقال فريد وهو يشير لأخيه:

- محمود المليجي، أخويا اللي كنت كلمتك عليه قبل كده، لو فاكره..

- آه، أهلاً وسهلاً، حمد الله ع السلامة.

ركب الثلاثة السيارة وتحركوا بها لدقائق حتى وصلوا للمقابر، نزلوا وقادتهم شيرين حيث تنام الطفلة، وقف فريد مشدوهًا والدموع تنهمر من عينيه بلا هوادة، تحشرج صوته وبكى كما لم يبكِ من قبل، سقط على الأرض وأسلم ظهره للحائط، وبدأ ينتحب، انتقلت عدوى البكاء والنحيب لشيرين، فيما ظلَّ المليجي صامتًا مبهوتًا بعد عِلمه بوفاة الطفلة، لطالما يُظهر غير ما يدور بداخله، بدأ المليجي يتوتر وينفعل لرؤية أخيه وزوجته السابقة في تلك الحالة، حاول المليجي تهدئته وسحبه للخارج لكنه رفض بشدة، حتى تجمع حوله الناس يواسونه، فانفعل بشدة وبدأ يعتدي على شيرين وأخيه، سحبوه للخارج بكل ما أوتوا من قوة، وركبوا السيارة وانطلقت بها شيرين بسرعة حتى توقفت وقالت:

- انزل يا فريد مش عاوز أشوف وشك تاني ولا تكلمني أبدًا، وآديك عرفت المكان لو حبيت تيجي تسلِّم على بنتك.

هبط المليجي من السيارة وفتح الباب المجاور لفريد وساعده على النزول، أزاح فريد يد أخيه عنه، وابتعد قليلًا، وأوقف سيارة أجرة ركبها وانطلق سائقها بسرعة تاركًا المليجي متعجبًا، فنظر لشيرين التي لم تنطق بكلمة، أدارت محرك سيارتها وابتعدت هي الأخرى.

ظلَّ المليجي مذهولًا لا يستوعب شيئًا، أجرى اتصالًا بفريد فوجدَه قد أغلق هاتفه، فقال بصوتٍ مهزوزٍ:

- ربنا يستر عليك يا فريد.

***

وضع النادل ما يحملُهُ من أطباق على المنضدة وهو ينظر بذهولٍ إلى كمية الطعام الكبيرة التي طلبها ذلك الشخص البدين الذي يتصبب عرقًا على الرغم من برودة الجو لكن استقر في نفسه أنه "فليذهب هذا البدين إلى الجحيم ما دام سيدفع ثمن هذه الأطباق"، ويبدو أن فريد قرأ ما يدور في رأس النادل فناداه وهو ينظر إليه باستحقار:

- مالكش دعوة بالأكل اللي أنا طالبه ما دام هدفعلك تمنه وهسيبلك بقشيش كويس، إنت ليك تنزِّل الطلبات ومتشكرين على كده، تمام يا غتت؟

ابتلع النادل الإهانة راضيًا بقدَرِه الذي أوقعه مع هذا الكائن الأكول، لكن لم يهدأ له بال إذ أراد أن يرد الإهانة لكن قاعدة "الزبون دائمًا على حق" ألجمته، انصرف النادل وهو يسب ويلعن في سره ذلك البدين صاحب الشهية المفتوحة والذي انهمك في التهام ما أمامه من طعامٍ من جميع الأصناف والأشكال مشمرًا عن ذراعيه وفاتحًا قميصه الغارق في بحر من العرق، حتى إنه لم يترك أيه بقايا تكفي لإطعام قطة صغيرة، وأشار لأقرب نادل منه وطلب منه مياهًا غازية تجرعها بسرعة وأشعل سيجارته وسحبَ منها عدة أنفاس وأثناء خروج أحد أنفاس الدخان تجشأ بصوت مُقرفٍ مسموعٍ جذب انتباه الموجودين بالمطعم الذين نظروا إليه باشمئزاز فبادلهم نظرات استنكارية وقال في نفسه: "جرى إيه يا عالم يا وسخة، مشفتوش واحد نفسه مفتوحة قبل كده، ما انتوا كلكوا بتتكرعوا زي البهايم وانتوا في بيوتكوا، إنما هنا عاملين ولاد ناس.. عالم منافقة ومعفنة". ثم قام وغسل يديه وعاد ليجلس مرة أخرى على منضدته وطلب من النادل براد شاي وأن يأتيه بالحساب، أتى الشاي والحساب ونظر في الأسعار نظرة سريعة وتعجب من المبلغ المطلوب الذي وصل إلى ألف جنيه فقال محدثًا نفسه: "ألف جنيه يا ولاد الكلب يا حرامية.. بس مش مهم، المهم إني اتكيف صح".

احتسى الشاي على مهلٍ مع استمراره في التدخين كقطار بخاري، ووضع مبلغ الحساب مع بقشيش سخي، ثم خرج من المطعم وأوقف سيارة أجرة أمر سائقها بالتوجه إلى الكورنيش فانطلق السائق بالسيارة وسأل زبونه البدين عن المكان المطلوب الذي ردَّ عليه وهو يتنفس بصعوبة:

- نزّلني عند القائد إبراهيم بس من ناحية الكورنيش.

أجابه السائق بالإيجاب وسار في طريقه وحاول السائق كثيراً، كعادة بعض السائقين، أن يفتح بابًا للحوار مع الراكب الذي صدَّ جميع محاولاته، ووصل إلى المكان المطلوب، هبط من السيارة ونقد السائق مائةُ جنيه وقال:

- خلِّي الباقي ليك.

تعجَّب السائق منه وشكره وقبل أن يهم بالرحيل قال ضاحكًا بصوتٍ عالٍ:

- متشكرين يا بالوظة يا عجل.

سمعه فريد وحاول اللحاق به فلم يستطع واكتفى بسُبة طارت في الهواء، تمشى على الكورنيش على الرغم من الطقس البارد والهواء المُثلج الذي يصطدم بوجهه الذي احمر من كثرة الطعام.. استمر في المشي على الرغم من وزنه الثقيل حتى خارت قواه فألقى بجسده الممتلئ على أقرب مقعد وهو يتنفس بصعوبة وينظر حوله على الطريق الذي خلا تمامًا من المارة والسيارات إلا من بضع سيارات تمر كل حين، وضع يده في جيب سترته الداخلي وأخرج دفترًا صغيراً تصفح أوراقه بسرعة بحُزنٍ ثم أعاده لجيبه مرة أخرى، ثم أخرج رزمة من النقود وعدَّها ونظر لها وهو يبتسم ابتسامة لا معنى لها تنم عن مرارة ما بداخله ووضع النقود في كيس بلاستيكي وأغلقه بإحكام ووضعه داخل الجيب الداخلي لسترته، ثم قام من مكانه باتجاه سور الكورنيش وقفز من على السور القصير ناحية الصخور ثم خلع

سترته وصنع منها وسادة، ثم أراح ظهره وأسلم عقله وجسده للهواء ورائحة البحر ليفعلا به ما يحلو لهما.

***

انتفض فريد من نومه فزعًا عندما ربتت على وجنته عدة مرات يدٌ صغيرةٌ، فتح عينيه فوجد أمامه ابتسامة رقيقة وعينين سوداوين واسعتين وبشرة متوردة وخصلات شعر معقودة على هيئة ذيل حصان، وسَّع من مساحة جبهتها فازدادت جمالًا ورقة. بادلها الابتسامة وسألها بصوتٍ يُغالِبهُ النعاس:

- إنتي مين يا حلوة؟

أجابت الطفلة بلهجةٍ لائمةٍ:

- أنا زعلانة منك يا بابا عشان ماعرفتنيش.. أنا نورا.

ارتعدت خلايا جسده لما قالته الطفلة، فقفز من نومته واعتدل ونظر لها وحدقَ في قسمات وجهها، احتضنها بلهفة واشتياق وأغرقها بقبلاتٍ ممزوجة بدموعٍ حارة.. حارقة، ثم قال باكيًا:

- أنا آسف يا حبيبتي.. وحشتيني.

ابتسمت الطفلة وقالت:

- وانت يا بابا وحشتني أوي، أنا زعلانة منك.

- ليه يا حبيبتي؟

- عشان سِبتني ومشيت، وكمان سِبت ماما ومشيت.

قبَّل فريد جبهتها وقال:

- أنا آسف يا حبيبة بابا، ماكانش قصدي والله.

قبَّلته في جبهته وقالت باسمة:

- مسامحاك يا بابا، وماما كمان مسامحاك.

ظهرت علامات الفرح عليه وهو يقول:

- بجد ماما مسامحاني؟

أومات نورا برأسها وصاحت قائلة:

- ماما، تعالي عشان بابا عاوز يشوفك.

نظر فريد خلف نورا فوجد شيرين تقترب وهي ترتدي الملابس التي رآها بها أول مرة، الفستان الأرجواني ذا النقاط السوداء والبيضاء الصغيرة، وإن تغيرت قسمات وجهها فوجد به قليلاً من الحزن. وصلت إليه وقبَّلت رأسه، وساعدته على النهوض، فقام واحتضنها وبكى في أحضانها كطفل تائه عاد بعد غياب طويل ومرير لصدر أمه، بكت شيرين لبكائه، وكذلك نورا التي وقفت بينهما، أغرقاها بقبلاتهما ودموعهما، همس فريد في أذن شيرين:

- أنا آسف.

مسحت شيرين الدموع من عيني فريد وقالت هامسة:

- مسامحاك يا فيري.

ضحك فريد وقال:

- بجد؟!

- أيوه يا فيري بجد.

أكملت شيرين مسح الدموع من على وجنتيه وهي تقول:

- في حد نِفسه يشوفك ويتكلم معاك..

سيطر الفضول على نظرات فريد، وقال:

- مين يا شيرين، ونورا راحت فين؟

- تعالى معايا.

أمسكت شيرين يده وجذبته خلفها في ممر رخامي أبيض، حتى توقفت أمام باب خشبي أبيض منقوش عليه ورود مختلفة الأشكال والألوان:

- ادخل جوه، وهتعرف مين، وهتلاقي نورا جوه.

لم يكذِّب فريد خبرًا، ودخل الغرفة ليجد نورا تلهو مع سيدة ترتدي فستانًا أزرقَ جميل الطلة وشعرها أسود مموج يصل لنصف ظهرها، لمحته نورا وابتسمت ثم قالت للسيدة التي معها:

- بابا جه أهو.

وبمجرد أن التفتت السيدة لفريد، أصابه الوجوم؛ لأن السيدة التي تلاعب ابنته كانت نورا محبوبته الأولى.

أطلت عليه بوجهها الصبوح وعينيها الواسعتين وابتسامتها الخلابة ثم نطقت بحروف اسمه بطريقتها المعهودة التي أذابت قلبه من قبل.

- فريد، وحشتني أوي.

ردَّ فريد كمن جذبته النداهة:

- وانتي كمان يا نورا، أنا عمري ما نسيتك أبدًا.

ابتسمت نورا وقالت:

- عارفة.. وانا كمان عمري ما نسيتك.

امتلأ فريد بالحماس وهو يقول:

- شُفتي نورا الصغيرة؟

ضحكت نورا من قلبها وقالت:

- أيوه، عسولة أوي، رينا يخليهالك.

ردَّ فريد بعدما ضربه سوط الحزن:

- الله يرحمها.

انتقلت عدوى الحزن لنورا وهي تقول:

- معلش يا فريد، ده حال الدنيا، بس ربنا عوَّضك عني وعنها بشيرين.

- وضيعت شيرين كمان.

غضبت نورا وقالت:

- ليه يا فريد ضيعت شيرين، أنا شايفاها كويسة وبتحبك.

- وانا كمان بحبها.

- طيب في إيه؟

خرَّ فريد على ركبتيه وبدأ في البكاء، اقتربت منه نورا وجلست على ركبتيها وأصبحت مواجهة له، وقالت بحنان:

- فريد، دي ممكن تكون آخر مرة نتقابل فيها، عشان خاطري حافظ على شيرين، إنت معاك كنز، ماتضيعوش أكتر من كده لسه فيه فرصة ترجعوا.. ومسيرنا هنتقابل في يوم من الأيام.

***

على كوبري قصر النيل أوقف حامد سيارته وهبط منها واتكأ على سور الكوبري يستنشق هواء الصباح المنعش، امتعض وجهه عندما تذكر كل ما مرَّ به منذ بداية لقائه بفريد شوقي، ذلك البدين الذي قلب حياته رأسًا على عقب، بفعل ذلك العقار الذي سمح له بالدخول لمنطقة كانت مخفية ومحظورة بالنسبة له، أظهرت الجانب القبيح لأسرته، وجدَ زوجة خائنة مع صديق عمره، وأخيًرا غرر بها حيوان شهواني رتب لخطته جيدًا، نال ما أراد من شقيقته، وازداد غيه بابتزاز زوجته كي

لا يفضحها، وأمًّا قوادة، تحطمت كُليًا صورة الأم المثالية في مخيلته، تخيلها في كلتا الصورتين، الأم الحنون الطيبة التي تحنو على أسرتها وتدعمهم، وتلك السيدة التي تقود فريقًا من الغانيات. ضحك ساخرًا عندما أجرى تلك المقارنة، كان في إمكانه الاكتفاء بالتجارب التي أجراها وكفاه الصدمات التي تلقاها، لكنَّ لقاءه بسمية أشعل فضوله، لكنه فضول مرير هذه المرة، تذكَّر عندما اختارت والدته رحمة لتصبح زوجته، اختارتها بعين خبيرة، فتاة ساذجة ورقيقة، وتم الزواج، ومرت السنوات، وها هو يقف الآن يجتر مرارة الحقيقة.

عاد بسرعة إلى سيارته وأدار محركها وانطلق بسرعة ضاربًا بقوانين المرور عرض الحائط، ساعده في ذلك الطرق الخاوية في هذه الساعة المبكرة من الصباح.

قطع الطريق المؤدي للساحل الشمالي في وقتٍ قياسي، وصل لقصره الملعون، دخل لغرفة المكتب، وفتح الخزينة ثم علبته السحرية وأفرغ محتوياتها في جيبه، وعاد أدراجه للقاهرة بنفس السرعة التي جاء بها.

وصل الفيلا ودخلها مسرعًا كأنَّ هناك من يطارده، نادى على والدته فخرجت من إحدى الغرف وقد ارتدت إسدالًا، وتمسك في يدها اليُمنى مسبحة، وما إن رآها في هذه الصورة حتى انتابته نوبة ضحك هيستيرية جعلتها تنفعل بشدة وتقول:

- بتضحك على إيه يا ابن الهبلة؟

أجابها حامد وهو لا زال يضحك بجنون:

- كنتي فين يا ماما؟

نظرت له ساخطة وقالت:

- كنت بصلي العشاء وبقرأ شوية قرآن.

- ربنا يتقبّل.

- منا ومنك يا حبيبي، مالك يا واد في إيه.

كتم حامد ضحكته ثم قال:

- لا أبدًا وحشتيني يا ست الكل.

ردت فايزة بامتعاضٍ:

- وحشك حنش.

جلس حامد على الأريكة ثم جلست والدته بجواره، فقال:

- نفسي أشرب فنجان قهوة من إيدك يا ماما، وحشتني قهوتك أوي.

قامت وهي تتمتم:

- هعمل لنفسي فنجان، إشمعنى أنا.

اختفت قليلًا ثم عادت تحمل فنجانين من القهوة وضعتهما ثم عادت للمطبخ مرة أخرى، وفور أن غابت عن ناظره أفرغ حامد إحدى العبوات في فنجان والدته، ثم أمسك فنجانه واحتسى قهوته على مهلٍ، فعادت والدته بزجاجة مياه، شربت منها، وبدأت تحتسي قهوتها، انتهت منها بسرعة وبدأ مفعول العقار في الظهور، ساعدها حامد على النهوض ودخل غرفة المكتب وأجلسها ثم أغلق الباب من الداخل، وأخرج هاتفه وأوقفه على مجموعة من الكتب وقرَّبه من والدته، ثم جلس أمامها وقال:

- عايزين نتكلم بصراحة يا ماما، ماشي؟

أومأت فايزة برأسها وقالت في هدوءٍ:

- كل الصراحة يا حبيبي.

****

- مساء الفل يا ست الكل..

- مساء الهنا عليك يا حبيبي..

- إنتي بتشتغلي في الدعارة يا ماما؟

- أيوه يا حبيبي..

- بقالك كتير؟

- يووووووووووه، ده عُمر يا ابني؟

- يعني أنا وريهام ولاد حرام؟!

ضحكت فايزة ضحكة خليعة وقالت:

- لا طبعًا يا روح أمك، كان زمان قبل ما أقابل أبوك..

- وبابا عارف؟

- طبعًا عارف، أبوك كان مشغَّلني لفترة قبل ما نتجوز.

ضربت هذه الجملة رأس حامد فزفر في أسى وقال:

- وإيه كمان يا ست الكل؟

- أبوك كان جوز صاحبتي سميحة، أم سمية اللي شُفتها هنا، خرَبْت عليهم لحد ما سابها واتجوزني، أبوك أصلًا كان موظف كحيان في الحكومة بيقبض ملاليم، وانا كنت من عيلة كبيرة وساعدته يبدأ شغل تاني عشان نعرف نعيش في مستوى عالي.

- ساعدتيه إزاي؟

- شغَّلته مع عيلتي في المخدرات والآثار والسلاح لحد ما وصلنا للمستوى اللي إحنا بقينا فيه.. وآديك شايف أهو.

- أنا شُفت حاجات كتيرة أوي يا ماما، في حد تاني يعرف الموضوع ده؟

- طبعًا فيه يا حبيبي!

أعدَّ حامد نفسه لإجابة صادمة مثلما اعتاد، وسأل ساخرًا:

- مين يا أمي يا حبيبتي يا غالية؟

تنهدت فايزة بهدوءٍ وقالت:

- زياد خطيب أختك!!

ابتلع حامد ريقه بصعوبة وابتسم بمرارة وقال:

- عرف إزاي؟

- هقولك بس هبتدي من الأول شوية.

- أنا سامعك يا ماما.. سامعك كويس.

***

العلاقة بين زياد وريهام لم تبدأ من يوم خطبتهما، تزاملًا أثناء الدراسة الجامعية، ومنذ اليوم الأول الذي التقيا فيه حدث بينهما انجذاب، نظرات الأعين وطريقة السلام عندما يلتقيان مع باقي الزملاء، شيئًا فشيئًا توطدت العلاقة بينهما، عندما يغيب أحدهما عن الآخر تستحيلُ حياة الآخر إلى جحيمٍ، لاحظ الجميع ذلك، فها هي قصة حب جديدة تولد داخل الجامعة، يقول زملاؤهم هذا دائمًا، يشهد الجميع لريهام بالجمال والأناقة والاجتهاد، ويشهدون لزياد أو زيزو كما يحلو للجميع مناداته بالاجتهاد أيضًا والأسلوب المهذب عندما يتعامل أو يتحدث مع الناس، ثنائي مثالي رائع في كل شيء، لذلك عندما أعلنا - بين زملائهما - أنهما سيخطبان بعد إنهاء الدراسة، لم يندهشوا، فهذا أمر طبيعي، وإمعانًا في إعلان علاقتهما أكثر، قدم زياد دبلة ذهبية رقيقة تليق بمن سترتديها، وضعها في

إصبع ريهام وأعطاها دبلة أخرى فضية وضعتها في إصبعه، الفرح والسعادة ملأا القلوب وفاضت على نظرات كل منهما للآخر.

يوم ارتديا خاتم الخطوبة، كان أسعد يوم في حياتيهما، قضيا اليوم بأكمله في التنزه، القلوب ترفرف من السعادة، عندما التقيت يدهما لأول مرة بعد خطبتهما المؤقتة، كان لها مذاقٌ مختلفٌ، وعندما قبَّل يدها، لم تتحمل ريهام مقدار العشق الذي يُغرقه بها زياد، فقبلته في جبهته قائلة:

- ربنا مايحرمنيش منك ومن حنيتك أبدًا يا زيزو.

أما زياد فبادلها نفس القُبلة على جبهتها وابتسم وهو ينظر في عينيها بعمقٍ:

- بحبك ومش هسيبك أبدًا.

أصر زياد أن يوصلها لمنزلها، لكنها رفضت في رقة متعللة بأنه عندما تصبح الخطوبة رسمية بموافقة العائلتين ستصبح الدنيا أفضل وأجمل.

أوقف لها سيارة أجرة، ركبت، وأصرَّ أن تطمئنه عليها باستمرار حتى تصل للمنزل.

غابت السيارة عن ناظره، تمشى قليلًا وهو يصدر صفيرًا للحن ما، دخل في شوارع جانبية، أخرج من جيبه مجموعة مفاتيح وضغط على أحدها فأصدرت إحدى السيارات الصوت المميز لإلغاء قفلها، ركبها وانطلق متجولًا بها في الشوارع، حتى لمح فتاة جميلة تقف بجوارها فايزة تقفان على جانب الطريق، هدَّأ من سرعته حتى اقترب منهما، اقتربت السيدة من نافذة السيارة الذي فتحه زياد وقالت له:

- إيه رأيك فيها!

تبيَّن زياد وجه فايزة التي تُحدِّثه وقال:

- تمام..

سمع السيدة وهي تقول للفتاة:

- اركبي يا قمر.

ركبت الفتاة وأتممت فايزة اتفاقها مع زياد على مقابل الأمسية الجميلة الذي سيقضيها رفقة الفتاة، التي كانت صارخة الجمال، أشعلت النار داخل زياد، الذي أدار محرك سيارته استعداد للرحيل، أوقفته السيدة وقالت له جملة واحدة:

- خلي بالك من القمر.

ردَّ عليها ضاحكًا:

- في عيني يا أم القمر.

قالها وانطلق بالسيارة لقضاء ليلته الجميلة، فيما وقفت السيدة تنظر للسيارة التي تبتعد وتمعن النظر فيها، أخرجت ورقة من حقيبتها ودونت فيها رقم السيارة الذي كان مميزًا.

دوَّنت بعض الكلمات في دفتر أخرجته من حقيبتها، دوَّنت فيه بعض الكلمات، وأثنا انهماكها في كتابة ما تكتبه، ارتفع رنين هاتفها، أمسكت بالهاتف ونظرت في اسم المتصل، ضحكت، أجابت على الاتصال فجاءها صوت رقيق ومرح في نفس الوقت:

- أيوه يا ماما، أنا روَّحت البيت، إنتي فين؟

- أيوه يا حبيبتي، شوية وراجعة.

- ماشي يا ماما، عاوزة حاجة أعملها؟

- أيوه يا ريهام، حضري لي الحمَّام لحد ما أرجع.

- أوامرك يا ست الكل.. مع السلامة يا ماما.

أنهت المكالمة ثم أوقفت سيارة أجرة، ركبتها، وأثناء طريقها للمنزل، أخرجت مسبحة من حقيبتها، تذكرت ابنتها فدعت لها قائلة:

- ربنا يبعد عنك ولاد الحرام يا بنتي.

***

عندما تقدَّم زياد رسميًا لِخطبة ريهام، ظلت فايزة وزياد يتبادلان نظرات مختلسة، فايزة تحاول الهرب، لكن ابتسامة الثقة المطبوعة على وجه زياد أربكتها، حتى جاء يوم الخطوبة وانتحت فايزة بزياد وتحدثت معه.

- واد يا زياد، تخلي بالك من ريهام، دي الحيلة.

قالتها فايزة بود ومرح مُصطنع، ابتسم لها زياد وقال:

- طبعًا، هحافظ عليها زي ما حافظت على القمر اللي ادتهولي قبل كده.

بُهِتَت فايزة من كلام زياد وأسلوبه، وهمت أن تتكلم لكن زياد أكمل:

- ماتخافيش، محدش هيعرف بس عاوزك تظبطيني.

- من العين دي قبل العين دي يا جوز بنتي.

***

لم يكذب زياد على فايزة وأوفى بوعده فحافظَ على السر، وحافظَ على ريهام خير ما تكون المحافظة.

بعد أن تركتهم رحمة بمفرديهما في المركز التجاري، ظلا واقفين ينظران لبعضهما في هيام، انتبها أنهما لا زالًا واقفين يجذبان أنظار الناس نحوهما، ضحكا وأمسك يدها، أكملا الجولة متشابكي الأيدي، يُمطر أذنها بعبارات مليئة بالعشق والغرام، وهي تتلقى أمطاره في سعادة وقد نسيت أو تناست عمدًا إغلاق مظلة قلبها حتى غرق قلبها أكثر مما هو غارق بالفعل.

تجولا داخل المحلات كزوجين وليس كخطيبين، يرسمان تفاصيل المستقبل القادم من حياتهما، هذه القطعة مناسبة لغرفة النوم، وهذه الأفضل أن تكون في غرفة أطفالهما المستقبليين الذين حدَّدا أسماءهم، الابنة سولاف والابن علاء الدين، وهذه اللوحة مكانها المناسب هو غرفة المعيشة، قررا بأن تمتلئ الجدران بصورهما التي التقطوها في أماكن مختلفة توثيقًا وتأكيدًا لحبهما.

كلما دلفا إلى أحد المحلات يتركان بصمتهما على رواده وعامليه من فرط الارتباط والانسجام الواضح بينهما، ظنًّا أن الناس سوف يحسدونهما على ما هما فيه من ترابط وتقارب، ثم انصرفا بسرعة بعدما اشتريا ما يلزمهما.

طلب منها أن يأخذا جولة بالسيارة قبل أن يوصلها للمنزل، وافقت على الفور واتصلت برحمة لتخبرها، والتي ما إن سمعت صوتها المفعم بأحاسيس العاشقة قالت لها ضاحكة:

- وماله، يا حبيبتي، المهم تكوني مبسوطة.

خرجا من المركز التجاري نحو ساحة الانتظار، ركبا السيارة، أمسك يديها وقبلهما وهو ينظر في عينيها الممتلئتين بالسعادة ويقول لها بصوتٍ عذبٍ:

- بحبك!

خارت قواها من فرط السعادة، وقالت:

- هتودينا على فين؟

ابتسم لها وقال:

- ما تطلبه ملكتي أمر مطاع.

ضحكت في رقة وقالت:

- وما يطلبه أميري الوسيم، أمر مطاع كذلك.

ضحك عندما وجدها تبادله طريقته في الكلام، ثم قال لها:

- إذًا، فلنذهب إلى قصرنا.

أجابته ولا زالت تبادله نفس الطريقة:

- أمر مولاي..

سار بالسيارة متجنبًا أماكن الزحام، وطوال الطريق تبادلًا الحديث حول حياتهما معًا، والمكان الذي سيقضيان فيه شهر العسل، اتفقا على السفر إلى فرنسا وإيطاليا، بعد الزواج مباشرة، يخططان لكل تفصيله حتى ولو كانت صغيرة.

توقفا عند مبنى مكون من أربعة طوابق، ركبا المصعد حتى الطابق الرابع، حيث شقتهما التي تحولت إلى قصر في مخيلتهما، دلفا إلى الشقة التي ما زالت في مرحلة التأسيس ما عدا بعض القطع المتناثرة هنا وهناك حتى إذا ما أراد أحد البقاء فيها.

اتضحت معالم المكان بعدما أضاء المصابيح القليلة المتواجدة، أمسك يدها وقال:

- تفضلي بالدخول يا مولاتي..

دخلت كالأميرة بالفعل، تجولت بخفة داخل المكان، وكأنها تسير على قطع من السحاب، وتجري في أرجاء الشقة كطفلة تم تركها في متجر ألعاب مخصص لها وحدها فقط.

ظلَّ ينظر نحوها وهي تصرخ في سعادة وكأنها تحولت بالفعل إلى طفلة، ثم اتجه نحو باب الشقة وأحكم إغلاقه.

نادى عليها، جاءته تجري وارتمت في أحضانه كطفلة في حضن أبيها، أمسكها وقبَّلها ثم نظر لها فوجدها تبتسم ثم بادلته القُبلة.

انسلت من يده وأكملت جولتها في الشقة، فما كان منه إلا أن ذهب خلفها في إحدى الغرف ثم أغلق بابها بالمفتاح وخبأه في ملابسه.

- بتعمل إيه يا زيزو؟

نظر نحوها وابتسامته التي أسرَتْها من قبلُ مرسومة على وجهه وهو يقول لها بصوت خفيض:

- بحبك..

***

استسلمت تمامًا، ظنت أنها فعلت هذا بكامل إرادتها، فهي تحبه وتعلم أنها عاشقة له حتى النخاع، طردت من رأسها الأفكار السلبية من أنه فعلَ هذا لأنه معجب بجسدها، أو كأنه نذلٌ سيهرب بعد فعلته.

بعدما انتهيا وظلا راقدين على الأرض، منهكين، وإن كانا سعداء على الرغم من وجود نظرة حزينة في عينيها قابلها هو بنظرة هادئة راضية مبتسمة للتخفيف من وطأة الأمر عليها، يحاول أن يُطمئِنها أنه لن يتخلى عنها يومًا ما، أما هي فاستقبلت ما يحاول أن يقوله لها عندما ضغط على يدها برفقٍ، عندما ربَّت عليها، أراد أن يطمئنها أكثر فقبَّل يدها ثم جبهتها، قام وساعدها على النهوض، تركها ترتدي ملابسها وتعدل من هيئتها، وخرج من الغرفة حاملًا ملابسه، ارتداها على عجلٍ ثم انتظرها في الشرفة يدخن، جال بخاطره ما حدثَ، منذ أن رآها أول مرة في الجامعة جذبته على الفور، تقرَّب منها بمنتهى السهولة، ساعدته هي بتلقائيتها عندما كانوا يتحدثون مع مجموعة من الزملاء عن العلاقة بين الشاب والفتاة، حينها قالت ريهام "من المهم أن يكون هناك حب وتفاهم دون كلمة واحدة بين الاثنين".

التقط الخيط الذي ألقته وبدأ ينسج خيوطه لمحاصرتها في كل مكان، كلما

ذهبت، يظهر بالصدفة المتعمدة أمامها، وعندما وجدها جادة ومتفوقة، وجدَ كذلك خيطًا جديدًا ليغزله حولها، اتخذ صفة الجاد والمتفوق على الرغم من أنه لم يكن كذلك أبدًا.

بالمصادفة أيضًا، ظنت أنه تغير من أجلها، لقد غُزلت الخيوط على أحسن ما يكون الغزل، قليلٌ من التخطيط وكثيرٌ من الحظ، حتى جاء اليوم الذي صارحته فيه بحبها، تصنَّع عدم التصديق إمعانًا في إحكام مخططه.

أما هي فلم تشعر للحظة أنها ساذجة، واستقر لديها قناعة بأنه يحبها وأنه تغيَّر من أجلها، ومنذ اليوم الذي صارحته فيه بحبها وصارحها هو كذلك، أصبحا لا يفترقان إلا ليذهب كُلٌّ منهما إلى بيته.

سارت خطته وفقًا لرغبته، وها هو قد حقق رغبته في اللقاء بها منفردًا، والأهم من ذلك أن اللقاء تم بإرادتها الكاملة التامة، محاطًا بإطار ارتباطها القوي به.

- زيزو، يلّا نمشي!

نادت عليه ريهام بصوت متوتر، التفت لها بعدما أخرجته من تفكيره، ابتسم لها واقترب منها وأمسك ذراعيها:

- إحنا عملنا كده عشان بنحب بعض.

نظرات عينيه الحالمة شتت ما لديها من حزن وتأنيب للضمير، وبما أنه أعلن سيطرته عليها، قبَّلته قُبلةً طويلة قطعها رنين هاتف ريهام الذي أظهر اسم رحمة التي تتصل لتطمئن عليها، أجابت الهاتف مستعيدة طريقتها المرحة:

- أيوه يا رورو، إنتي فين؟

جاءه صوت رحمة معاتبا في مرح:

- إنتي اللي فين يا بنتي!

- إحنا خلصنا وماشيين من الكافيه أهو، أنا لسه كنت هكلمك لقيتك بتتصلي.

- أنا خلصت أنا كمان، يلّا عشان نروَّح سوا، أنا لسه في المول، لما توصلوا برَّه كلميني أطلع على طول.

- خلاص تمام، باي يا رحمة.

نظرت ريهام لزياد قائلة:

- معلش، هنعدّي على رحمة عشان تروح معانا.

- ولا يهمك.

خرجا من الشقة، ومن البناية كلها، وركبا السيارة في طريقهما للقاء رحمة التي تلقت اتصالًا من ريهام بأن تجهز نفسها للعودة.

وصلا حيث تقف رحمة، ركبت في الخلف، وبدأت في وصلة من الحسد الضاحك على الانسجام الواضح بين الثنائي.

ضحكا لدعاباتها، وأثناء الطريق توقف زياد في محطة بنزين لتموين سيارته، ذهبت ريهام لشراء مشروبات من المحطة فيما انتظر زياد ورحمة في السيارة.

- كنت عاوز أسأل سؤال؟

سأل زياد رحمة التي أجابت بترحاب قائلة:

- طبعًا، اتفضل.

أدار زياد رأسه للخلف، وقال:

- كنتي مع عصام في جروبي اللي في وسط البلد بتعملوا إيه؟

شحب وجه رحمة تمامًا، واتسعت عيناها حتى كادتا تخرجان من محجريهما، ظلت واجمة حتى وجدت ريهام قادمة نحوهما تبتسم وتلوِّح بالمشروبات التي

أحضرتها، تناول منها زياد ما تحمله، ثم ركبت وأعطت لرحمة مشروبها ورأت أنها تغيرت قليلًا فسألتها:

- مالك يا رحمة؟

- تعِبت شوية، ماتقلقيش عليَّا لما أشرب اللي انتي جاياه هفوق.

تصنَّعت رحمة الضحك وسألت ريهام:

- إنتي جايبة ايه بقى!

- ده سؤال برضو يا رحمة، احنا بنات، هوت شوكليت طبعًا، وجبت لزيزو قهوة.

ضحك ثلاثتهم، ما عدا رحمة التي تضحك مجاملة لهم، وفي داخلها بركانٌ مشتعلٌ ويزداد اشتعالًا كلما نظر لها زياد عبر مرآة السيارة ويبتسم ابتسامة بدت لها مخيفة ومرعبة إلى أقصى حد.

***

- يعني انتي يا ماما، عارفة أن زياد ساب ريهام عشان خد غرضه منها؟

قالت فايزة بتوتر:

- خَد غرضه إزاي.. تقصد إيه يا ابني؟

قال حامد لا شعوريًا بلهجة شامتة:

- خَد غرضه يا ماما، أشرحها لك إزاي دي، إنتي معلمة كبيرة وفاهمة.

بكت فايزة بحرقة.. شعرت بغُصة في حلقِها، شعرت لأول مرة بشعور أهل الفتيات التي تجبرهن على البغاء، والتي كانت تسخر منه بقولها "عالم غاوية فقر"، والآن هي تجرب ذلك الشعور المرير، تذكَّرت سمية وما فعلته بها، تذكرت كيف سلمت ابنتها لخنزير كان هدفه طوال السنين جسد ابنتها فقط وأجساد فتياتها، والآن تتجرع لأول مرة كأس الذل والمهانة والعار التي طالما أسقتها لغيرها.

- بتعيطي ليه يا ماما؟!

قالها حامد بحزن وأسى وهو يمسح على رأس والدته التي تبكي وتغرق الدموع وجنتيها وأطراف الإسدال الذي ترتديه، دق صوت المنبه في ساعة حامد لاقتراب انتهاء المفعول فلمح علامات العودة إلى الواقع تبدأ في الظهور على وجه والدته.

عندما أفاقت فايزة ووجدت أثر البكاء عليها، سألت:

- في إيه يا واد يا حامد، أنا بعيط ليه؟

- أبدًا يا ماما، افتكرتي سميحة صاحبتك.

اعتصرت فايزة شفتيها في ألمٍ وقالت:

- الله يرحمك يا سميحة يا حبيبتي.

وبدأت تمتم بالفاتحة وتدعو لصديقتها الراحلة، وحامد ينظر لها مشدوهًا بما يراه ورآه وسمعه.

***

هبطت الطائرة القادمة من القاهرة في مطار الأقصر، والتي أقلت آدم الشامي يرافقه حامد الذي يسير بخطوات ثقيلة، شارد الذهن، تسترجع ذاكرته كل ما حدثَ، لكن الذي أصابه بالحيرة حقًا هو مكالمة والده التي تلقاها فجرًا، طالبًا منه أن يحضر لمطار القاهرة ليرافقه في سفره للأقصر لإنهاء بعد الارتباطات.

أنهيا إجراءات الوصول والتفتيش وخرجا من المطار صامتين، قاصدين ساحة الانتظار الملحقة بالمطار، توقفا حيث ينتظر رجل يرتدي الملابس المميزة لأهل الصعيد يقف بجوار سيارة دفع رباعي فضية اللون ابتسم حين اقتربا نحوه، تقدم نحوهما وصافحهما بحرارة بالغة، ركب ثلاثتهم السيارة وخرجوا من منطقة المطار متجولين في المدينة حتى حل الظلام، دخلوا في منطقة جبلية وعرة ساروا فيها لفترة

حتى وصلوا إلى سفح أحد الجبال حيث كان في انتظارهما رجل يقف خلفه رجلان آخران يمسك كل منهما بسلاحه.

نزلوا من السيارة وحيوا الواقفين بإشارة من أيديهم، قادهم الرجل الملثم الذي كان ينتظرهم مرتديًا ملابس شبيهة بالملابس العسكرية وناول كلًّا منهما نظارة مخصصة للرؤية الليلة ارتدوها فتحول الظلام الدامس في أعينهم إلى نهار واضح.

صعدوا الجبل الوعر قرابة نصف الساعة حتى وصلوا إلى أحد الكهوف الواقف أمامها بعض الرجال يحرسون المدخل، دخلوا الكهف بحذرٍ بعد أن استبدلوا نظَّارات الرؤية الليلة بخوذة مثبت بها كشاف إضاءة، ساروا في الكهف ببطءٍ وحذرٍ بالغين بسبب الطبيعة الوعرة على الرغم من وسائل الإضاءة التي تمَّ تركيبها داخل الكهف، وصلوا إلى منطقة تتطلَّب نزول منحدرٍ، نزلوه بمساعدة سلم مرنٍ كالموجود في السفن ومعسكرات التدريب العسكرية حتى وصلوا إلى ما يبدو أنه قاع الكهف وكان في استقبالهم مجموعة أخرى من الرجال وقفوا أمام مدخل ضيق منخفض الارتفاع، توقفوا عنده لالتقاط انفاسهم ثم دخلوا متتابعين خافضين رؤوسهم في المدخل لمسافة قصيرة ثم استعادوا وقفتهم الطبيعية ليجد آدم الشامي وحامد أنفسهما واقفين على مدخل مقبرة فرعونية تلمع محتوياتها بفعل الكشاف الذي يرتدونه أعلى خوذاتهم وتظهر نقوشها الملونة في لوحة فنية بديعة جعلت آدم يقول لا إراديًا بكل حماس:

- اللهم صلي على النبي، إيه الحلاوة دي!

فتح حامد فمه من الذهول عندما دخل المقبرة ورأى محتوياتها تلمع تحت الإضاءة القادمة من الكشافات الموضوعة على الرؤوس، تجوَّل آدم في المقبرة يتفحص الرسوم على الجدران ويتفحص محتوياتها بعناية، وعينه الخبيرة تتجول فيها وتُدقق فيها مستكشفًا تفاصيلها.

دخل عليهم رجل خمسيني العمر بشرته مائلة للاحمرار، رحَّب به آدم في ود واحتضنه:

- حمد الله على السلامة مستر ألفريد..

ردَّ الرجل بعربية مُتكسرة تجعل الخواجة بيجو فصيحًا إذا ما قورن به:

- شكرًا يا هبيبي إنت آمل ايه؟

ضحك آدم لطريقة نطقه:

- تمام، اسمها حبيبي يا خواجة، بقالك عشر سنين في مصر ولسه ما اتعلمتش عربي.

ضحك ألفريد لدعابة آدم ثم قال:

- واهدة واهدة آدم، أنا لسه بتعلم.

- وماله ألفريد تتعلم.

قالها آدم وهو يضحك، وربت على كتف ألفريد ثم أشار بيده نحو ابنه وقال:

- This is my son Hamed.

- Nice to meet you, Hamed. I'm Alfred Irwin.

دخل الثلاثة المقبرة ونظر آدم إلى ألفريد وقال:

- What do you think?

- Great Adam, very good, have you inspected the tomb?

- Not yet, Alfred, we just discovered it.

- OK, let us do what we used to do

- Well.. let us go

أشار حامد للرجال المتواجدين معه بالاستعداد لعملية الفحص، فيما تعمق آدم وألفريد يتبعهما حامد وبعض الرجال داخل المقبرة لاستكشاف باقي محتوياتها، سمعوا صوتًا يصيح من مدخل المقبرة:

- الحكومة بتلف في المنطقة، وقفوا أي حاجة بسرعة.

لم يفهم ألفريد ما يقوله الرجل ونظر إلى آدم الذي وضَّح له الأمر:

- Police men are surrounding the area, we have to stop everything for a while.

-Oh, boggit, let's get the hell out of here.

هرول الجميع نحو باب المقبرة للهروب، خرج ألفريد أولًا واصطدم رأسه بالحائط ثم تبعه آدم الذي يتحرك بخفة رغم سنه الكبير، يليه حامد المذهول، قادهم الرجل الذي صاح فيهم منذ قليل، تبعوه بتوتر، صعدوا خلفه في ممرات ضيقة، ودخلوا خلفه أحد الكهوف اختبأوا فيه، طال انتظارهم ونفد منهم الصبر.

أمسك دليلهم بجهاز لا سلكي وعبث به، لكن الجهاز لم يعمل، فقال:

- هنطلع على قمة الجبل وناخد الطريق الوراني.

- تمام يلا بينا.

تحرك الثلاثة نحو قمة الجبل في طريق وعرة وظلَّ الدليل يطالبهم بالحذر، ظلوا يصعدون حتى وصلوا إلى تبة متعرجة عليهم تسلقها للوصول إلى خلف الجبل لاستكمال هروبهم، صعد الدليل بمهارة وخفة ثم تبعه آدم بنفس المهارة والخفة.

قفز ألفريد نحو التبة لكن انزلقت قدماه وسقط على ظهره، نظر نحوهم ولم يستطع النطق، لَوَّحَ بيديه طالبًا المساعدة، نظر له آدم وهز رأسه شفقة به وأخرج

مسدسه المزود بكاتم صوت وأطلق منه ثلاث رصاصات نحو ألفريد الملقى على الأرض استقرت إحداها في رأسه واستقر الباقي في صدره.

نظر نصار الدليل لآدم وابتسم:

- كده نتحرك خفيف، خفيف.

فصاح حامد في رُعبٍ:

- حد يساعدني..

قفز حامد بكل ما استطاع من قوة وتشبث بالتبة وساعده نصار، حتى صعد لقمة التبة.

ومضوا في طريقهم نحو الهروب، آدم وحامد يتبعان نصار الخبير بطبيعة المنطقة، هبطوا من الجبل من على منحدر جهزه نصار للطوارئ، انزلقوا عليه سريعًا حتى وصلوا لسفح الجبل ووجدوا خيولاً ركبوها وانطلقوا بسرعة في الصحراء للتخفي من أعين الشرطة.

***

قاد آدم ونصار وحامد خيولهم بسرعة في محاولة للهرب من أفراد الشرطة الذين كانوا يمسحون المنطقة في إجراء روتيني، اكتشفوا وجودهم بالصدفة وبدأوا مطاردتهم ظنًّا بأنهم تجار مخدرات أو سلاح، هرب الثلاثة بعد مقتل ألفريد، أما باقي الرجال فتعاملوا مع قوات الشرطة.

على الرغم من سن آدم الكبير الذي تخطَّى الستين عامًا إلا أنه يتمتع بلياقة بدنية لا يتمتع بها شباب أصحاء في مقتبل العمر، ناتجة عن التزامه بممارسة الرياضة يوميًّا منذ إنهائه للخدمة العسكرية بعد حرب أكتوبر.

تقدَّم نصار طريق الهروب لدرايته بطبيعة المكان يتبعه آدم وحامد، وصل ثلاثتهم إلى منطقة قريبة من النيل وكان في انتظارهم سيارة يقودها أحد أتباع

نصار الذي قادهم لبيتٍ كبيرٍ في وسط المدينة ليستقروا فيه.

وصلت السيارة وهبط منها آدم ونصار ودخلوا البيت، أصدر نصار تعليماته لرجاله بتأمين المكان جيدًا مع إظهار أن الوضع هادئٌ أمام الجميع.

وُضِعَ الطعام على الطاولة وجلس الاثنان يأكلان ويتحدثان، قال آدم بعد أن أشعل سيجارته:

- تفتكر ده كمين؟

- ما أظنِّش، دي كانت دورية عادية.

ردَّ آدم متعجبًا:

- دورية، تفتكر هيلاقوا حاجة؟

- لا هُمَّا فاكرينا بتوع مخدرات تقريبًا.

- طب والرجالة هيعملوا إيه؟

- ماتخافش على الرجالة، هيتصرفوا.

- يعني ماحدش فيهم هيتكلم كلام ملوش لازمة.

- أبدًا!

رجع آدم بظهره للوراء قليلاً ثم قال:

- إنت جايب الثقة دي منين؟!

ضحكَ نصار:

- رجّالتي يا آدم بيه، أنا عارفهم زين، الواحد منهم ممكن يموت ولا يتكلم.

حكَّ آدم ذقنه وهو يقول:

- طب وجثة ألفريد.

- ماتخافش، الحكومة مش هتلاقيها، عشان في بطن الجبل وماحدش هيعرف يوصلها، إحنا هنستنى يومين تلاتة الدنيا تهدا وهخلي الرجالة يخلصوا منها.

- تمام، الله ينور.

- وعليك يا آدم بيه.

- هسبكم ترتاحوا الليلة وبعدين بكرة نكمل كلامنا.

***

ترك نصار حامد وآدم جالسين صامتين، حامد يسبر غوار أبيه بعد الذي عرفه عنه منه ومن غيره، ينظر له غير مصدق ما رآه ويراه، تحطمت في ذهنه صورة أبيه التي رسمها، ودارت الأفكار في رأس حامد وهو ينظر للدخان المتطاير من فم أبيه وهو واقف أمام الشرفة صامتًا:

"عندما تقابله أو تجلس معه للمرة الأولى يبهرك بأسلوبه القوي في الحديث، نبرات صوته ونظرات عينيه القوية والفاحصة، تمسح خلايا مخ جليسه وتسبر أغواره فاضحة كل خبايا من يتحدث معه.

أظن أنه منذ أن كان طفلًا أحب أبي السيطرة على كل شيء يملكه أو لا يملكه، ومع مرور سنوات عمره أصبح مُتسلطًا على من حوله بداية من أفراد أسرته وحتى العاملين معه.

استوحى قوته من قوة جسده، ومن قوة إرادته في تحقيق أهدافه، زادت قوته من ممارسة الرياضة وزادت قواه العقلية من القراءة والاطلاع في مجالات مختلفة.

وبمرور سنوات كثيرة بدا لي أنه اختار لنفسه شعارًا ليعيش عليه، اقتبسه من شعار إحدى الشركات الشهيرة "القوة لا تعني شيئًا بدون تحكُّمٍ"، طبق ما يقصده هذا الشعار بكل حرف من حروفه، أصبح قويًا أكثر لا يتحمل أن يرى أيَّة أخطاءٍ تمنعه عن تحقيق أهدافه، يثور عندما يخطئ أحدُ أفراد أسرته أو أحد العاملين معه.

كَّون ثروته بعد مجهودٍ كبيرٍ وبعد مساعدة من الأقدار التي قادته صدفة إلى اكتشاف إحدى المقابر الفرعونية عندما كان شابًا بمساعدة والدتي وأسرتها، الكنوز القديمة بألوانها المبهجة أذهبت عقله، كوَّن إمبراطورية من العمال المتخصصين في التنقيب عن الآثار، وزادت شهرته في الخارج كخبير آثار، أضاف لمجموعته الاقتصادية الإتجار في المخدرات والسلاح كتنويع لمصادر الدخل.

ازدادت كذلك شهرته داخل مصر كرجل أعمال مرموق تبرز الصحف إنجازاته الاقتصادية والتي أضاف لها بُعدًا اجتماعيًا من خلال المؤسسات الخيرية ومؤسسات تنمية المجتمع، وأضاف لمملكته مزيدًا من القوة والنفوذ عندما انضم للحزب الحاكم، وخاض انتخابات المجالس النيابية والتي فاز فيها باكتساح، لكنه عندما أوكل إدارة أعماله إليَّ لم يعجبه أسلوبي في الإدارة، فاستقال من مهمته كنائب، وعاد لممارسة أعماله بصورة طبيعية واحتفظ بعلاقاته الحزبية والسياسية تأمينًا لحياة المال والأعمال.

ازدادت ثروته ومعها ازدادت سطوته ونفوذه أكثر على من حوله، أجبرني على اتباع أسلوبه في إدارة أعماله، لأني سأصبح المسئول عنها بعد ذلك، يخفي عن الجميع حقيقة الأعمال الأخرى التي يمارسها، ليس خوفًا منهم، بل رغبة في الحفاظ على صورته أمام أسرته وأمام الجميع، وكذلك رغبة في الإبقاء على الوجاهة الاجتماعية والمستوى المعيشي لعائلته".

- كل اللي احنا فيه ده، من تجارة ممنوعة؟

قالها حامد لأبيه الذي ما زال واقفًا أمام الشرفة، فألتفت له آدم مبتسمًا ابتسامة صفراء باهتة تنضح بالسخرية، واقترب حيث يجلس حامد على طاولة الطعام، وجلس على المقعد المقابل له يدخن بهدوءٍ، ويقول:

- كنت فاكر إيه، أنا لو كنت فضلت موظف حكومة زي ما كنت، ماكنتوش هتلاقوا تأكلوا، وهتعيشوا طول عمركم فقراء.

- بس ليه عملت كده، يا بابا.. أنا مش مصدق!!!

- تصدق أو ماتصدقش.. هو ده الواقع ولازم تكمل من بعدي، فاكر يوم ما قابلتك في كوستا؟

- طبعًا، فاكر.

- بص يا حامد، أنا جايلي تهديدات بالقتل..

تبدلت ملامح وجه حامد بعد سماعه لجملة تهديدات بالقتل، وظل صامتًا مبهوتًا، فأكمل والده حديثه:

- الموضوع خلافات على الشغل ومالوش دعوة بالسياسة والقرف بتاعها.

- أومال إيه الموضوع يا بابا؟

- خلافات على فرض سيطرة على منطقة نفوذ، مع راجل كبير قوي في البلد، ومسنود من ناس بره، عايزين يخلصوا مني وعشان كده أنا خلصت من ألفريد لأنه جاسوس.

زفر حامد في ضيق وكاد أن يحرق العالم بزفرته تلك، فقام من مكانه يدور حول طاولة الطعام، يزن تأثير كلام أبيه عليه وعلى مستقبل أسرته إذا ما توفى والده، فاقترب من إحدى النوافذ شاردًا، إلى أن قطع شروده صوت تهشم زجاج ويرى بعدها والده مُلقى على الأرض يتألم والدم ينزف من كتفه اليسرى، بُهت حامد للحظة، ثم ركض نحو والده باكيًا يحاول مساعدته لكنه عندما رأى أن الرصاصة قد اخترقت قلب أبيه، رأى لمعان الحياة يخفُت ببطءٍ من عينيه حتى انطفأ وهج

الحياة، توقف النبض عن القلب، وبدأ الجسد يبرد شيئًا فشيئًا، ارتخى الجسد مفارقًا الحياة، تاركًا حامد مذهولًا، باكيًا، مصدومًا، لا يقوى على أن ينطق بأي حرف، دارت الدنيا في عينيه، ثم سقط مغشيًا عليه، والدموع تنهمر من عينيه.

***

تلقت الأسرة خبر الوفاة بالصدمة، حتى سمية التي لم ترَ أباها قط، أصابها الحزن، على الرغم من الكراهية التي ازدادت بداخلها بعد علمها بالحقيقة من خطاب أمها، انهارت ريهام ورحمة تمامًا، والأحفاد الصغار لا يعرفون ما سبب الحزن الذي سيطر على البيت فجأة، أما فايزة فكانت رابطة الجأش كعادتها، وإن كانت تنهار بين الحين والآخر حينما تكون بمفردها، تتصنع أمام الجميع الرضا بقضاء الله وقدره، ومن داخلها انهيار وتهشم كاملان.

***

الرنين المزعج للهاتف أيقظه من نومه المضطرب منذ أيامٍ.. منذ أن انسحب من الحياة، القلق يضرب أوصاله، يا تُرى أين ذهب وأين اختفى؟

- أيوه.. مين معايا؟

جاءه صوت محدثه رخيم يتحدث بهدوءٍ:

- الأستاذ محمود المليجي معايا؟

- أيوه أنا.. مين معايا؟

- معاك عقيد/ مصطفى عبد الدايم من مباحث الإسكندرية.

أطارت كلمة مباحث آثار النوم المتقطع من رأسه، فقال متوجسًا:

- أيوه أنا.. في حاجة حضرتك؟

- أنا كنت عاوز أبلغك خبر مش لطيف.

ازداد محمود المليجي توجسًا ثم قال:

- خير يا باشا؟

- أخو حضرت فريد شوقي، تعيش أنت من إسبوع، في إسكندرية.

- إنت بتقول إيه؟!

صرخ بها المليجي، ثم أجهش بالبكاء، وأخذ يتحدث بكلام غير مفهوم، شعر معه محدثه بالتعاطف، فقال:

- وحِّد الله يا أستاذ محمود، كنا عايزينك تتفضل عندنا عشان تستلم الجثمان وننهي الإجراءات.

بصوتٍ حزينٍ وكلمات متقطعة، قال المليجي:

- حاضر.. حاضر.

ثم أنهى المحادثة دون كلمة إضافية، وهبَّ وارتدى ملابسه على عجل وخرج من المنزل يبكي بشدة.

***

وصل محمود المليجي الإسكندرية وقت الظهيرة، وتوجَّه لمن أخبره بما حدث، فاستقبله بودٍّ يليق بالحادث، وذهب معه حيث يرقد جثمان أخيه في ثلاجة مصلحة الطب الشرعي، وما إن رأى جثمان أخيه حتى سقط عليه باكيًا بشدة، يطلب منه السماح والمغفرة، ويدعو له، وأغرق جسد أخيه بقبلاته ودموعه، قبل أن يسحبوه للخارج، ويذهبوا به إلى مديرية الأمن لإنهاء الإجراءات.

- هو إيه اللي حصل؟

سأل محمود المليجي باكيًا الضابط المختص الذي حادثه، فأجابه بهدوءٍ:

- لقينا جثته على أحد الشواطئ، غرِق بعد ما وقع في المياه، واحنا اتأخرنا في الاتصال بيك لحد ما تأكدنا إن مفيش شُبهة جنائية في وفاته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- ده قضاء ربنا وقدره يا أستاذ محمود، بس في شوية حاجات كنت عاوز أعرفها قبل من نقفل شغلنا؟

- تحت أمرك.

- فريد كان مريض بأي حاجة؟

هز محمود المليجي رأسه في أسى وقال:

- كان مريض نفسي من فترة طويلة، وخف، لكن بعد ما عرف إن بنته ماتت من سنتين، انهار جدًّا، وكان هيموِّت نفسه واحنا في المقابر، ولقيناه مرة واحدة سابنا واختفى، وحاولت أتصل بيه، بس تليفونه كان مقفول.

هز الضابط رأسه متفهما، ثم قال:

- بس إزاي عرف إن بنته ماتت من سنتين؟

- طليقته كانت مخبية الخبر عليه، عشان ماينهارش أكتر.

- كان بيحب الأكل؟

- جدًّا.

- أنا عاوز أعرفك حاجة إن أحد أسباب وفاة أخوك الله يرحمه كانت الأكل، كان واكل كتير جدًّا وده كان باين من فاتورة الحساب اللي لقيناها في جيبه، رجعنا للمحل اللي كان فيه وتأكَّدنا من كده.

توقف الضابط عن الكلام لما رأى نوبة بكاء ونحيب جديدة بدأها محمود المليجي، فربت الضابط على كتفيه، وأشار له بمجموعة من الأوراق، وقعها المليجي بخط مهزوز.

أنهى محمود المليجي الأوراق اللازمة ليواري جسد أخيه، قرَّر دفنه بالإسكندرية؛ لأنه لا يعلم لأسرته مقابر، بكى بشدة أثناء الدفن عندما تذكَّر أنه

كان من المفترض أن يزور قبر والديه كما طلب فريد، لكن ظهور حامد في حياتهم عطَّلهم عن هدفهم، لمعت عينا المليجي عندما تذكَّر حامد، ازداد حنقًا على حنقه، فقال المليجي محدثًا نفسه:

"هو السبب، هو الشيطان، هو الزلازل الذي دمرنا أنا وأخي.. أعدك يا أخي أني سأنتقم لك مهما كلف الأمر"

***

طرقات عنيفة على الباب أيقظت المليجي النائم بعمق بعد أيام من عودته من الإسكندرية، أيقظه الطرق المتواصل من أحد الكوابيس التي أصبحت تلازمه منذ وفاة أخيه، قام من السرير برأسٍ ثقيلٍ مُتعب يتخبط في الأثاث، حتى وصل إلى الباب وفتحه بوهن، إلى أن فوجئ بلكمة قوية في وجهه من حامد دفعته بعيدًا ثم أسقطته أرضا والدماء تسيل من أنفه وفمه، فسب متألمًا:

- يا ابن الجزمة!

حاول النهوض لكن حامد كان قد اقترب منه بعد أن أغلق الباب وركله في بطنه فزاد من الآم المليجي الذي حاول النهوض مجددًا فسقط مرة أخرى بقلة حيلة.

جلس حامد ثم وضع قدمه على رأس المليجي وضغط عليها بقوة وتحدث بلهجة صارمة:

- فريد مات إمتى وإزاي؟

تأوه المليجي وقال:

- إنت عرفت منين؟

- قريت الخبر في الجرايد، هو من غير اسم بس لما كتبوا بدين ومريض نفسي عرفت إنه هو.

تأوه المليجي وقال:

- غرِق في البحر بعد ما أغمى عليه.

قال حامد بمزيد من الإصرار:

- اتكلم مع حد في أي حاجة؟

هز المليجي رأسه نافيًا، فركله حامد وقال:

- انطق يا زفت، ماتهزليش راسك.

- ما اتكلمش مع حد.

قالها المليجي صارخًا، ثم دفع قدم حامد عنه، فاختل توازن حامد وسقط أرضًا، فقفز عليه المليجي بكل قوته وحاول شل حركته، لكن بنية حامد الرياضية ساعدته على التخلص من المليجي، ثم كال له ركلة أعادته لمكانه، فسقط بجوار الأريكة، سحب المليجي سكينًا كان يخبئه أسفل الأريكة في أحد الفراغات وهبَّ واقفًا يلوح بها في وجه حامد وهو يقول:

- إنت اللي قتلت فريد، إنت اللي قُلتله، صح؟

- أيوه يا غبي، أنا اللي قُلتله، عشان غبي وطفس ومجنون، عشان دمَّر حياتي وحياة عيلتي.

- إنتم عيلة وسخة أساسًا.

قالها المليجي وهو يهدِّد بإلقاء السكين على حامد، الذي تراجع خطوات للخلف خوفًا من أن يطوله السكين، استمر المليجي في التهديد والإطاحة بالسكين في وجه حامد، يتقدم خطوة ويتأخر أخرى كأنه في مبارزة بالسيف، ثم قال بغضب:

- إنت السبب، كنت عاوز أدفنه جنب أبويا وأمي، ماخلتوش يقولّي هما مدفونين فين، خلتني دفنته وخلاص، هموِّتك يا ابن الجزمة.

اقترب المليجي أكثر من حامد وهو يدور في دوائر محاولًا إيجاد أقصر طريق للوصول إلى حامد، لكن حامد الواقف بحذرٍ، استل مسدسًا كاتمًا للصوت هدد به المليجي:

- تفتكر يا زفر، أنهي أسرع؟ الرصاصة ولّا تحدف عليًا سكينة؟

استمر المليجي في دورانه حول حامد وهو يرغي ويزبد ويتمتم بشتائم لحامد ويسدد له نظرات ميتة قاتلة، لكنه تجمد في مكانه عندما صوب حامد فوهة المسدس نحوه وضغط الزناد.

اتسعت عينا محمود المليجي عن آخرهما بعدما استقرت الرصاصة في منتصف جبهته، سقط جسده مُتشنجًا، مُتصلبًا، في أمرٍ طبيعيٍّ عند حدوث إصابة مباشرة للمخ.

ظلَّ حامد واقفا ينظر لنافورة الدم المتدفقة من رأس المليجي بهدوءٍ، ظلَّ صامتًا لبُرهة ثم بصق عليه وجلس بجوار الجسد ينظر له بعينين ماتت فيهما الحياة، ومات فيهما كل شيء.

قطع رنين هاتف حامد الصمت، فأخرج حامد هاتفه من جيبه وكان عصام هو المتصل، ابتسم ساخرًا، وأجاب:

- عصاااااام... مساء الزفت على عيونك!

- زفت عليك وعلى اللي جابوك يا عمرو، أخبارك إيه؟

- خرا بحسك يا حبيبي!

- في إيه يا برونس، مالك قافش كده ليه؟

ضحك حامد بسخرية وقال:

- كل مرة بقفشك بدَخْلَة مش تمام، وكل مرة تلبسها زي الخروف.

قهقه عصام وقال:

- والله مفيش خروف غيرك، بقولك، إنت مش قُلت هنروح الساحل كام يوم نغيَّر جو، أنا جاهز من زمان.

لمعت عينا حامد بعدما تذكر موضوع السفر، فقال مُتصنعًا الحماس:

- جاهز نسافر الصبح؟

انتقل الحماس لعصام فقال:

- إنت عارفني ببقى جاهز على طول.

- تمام هعدي عليك بعد الفجر، لو عاوز تدلع نفسك لحد ما آجي، قشطة.

- قشطة مين يا عم، البت الصاروخ اللي كنت جاي عشانها، هربت ومش عارف أوصلها.. وحشني الصاروخ.

- ماتتعبش نفسك، هنلاقي صواريخ هناك، أو ممكن نشتري وإحنا ماشيين.

- هوباااااااا، هو ده حامد حبيبي اللي أعرفه.

- سلام دلوقتي وأجهز انت لحد ما أجيلك.

- سلام يا برونس الليالي.

أنهى حامد المكالمة ثم نظر لجسد المليجي الساكن، ثم دخل الغرفة التي كان يجلس فيها مع فريد، وجمع المحتويات التي تخص فريد والمليجي معًا، ثم دار في جميع الغرف يبحث فيها عن أي شيءٍ ذي قيمة، جمع ما جمعه ووضعه في حقيبته، واتجه للباب خارجًا، لكنه توقف والتفت ناحية جسد المليجي ، وأخرج مسدسه، وأفرغ ما فيه من رصاصات، استقرت جميعها في رأس المليجي الذي أصبح مثل المصفاة، ثم خرج من الشقة والمبنى كله دون أن يشعر به أحدٌ.

***

هزَّ حامد رأسه راجيًا الاستفاقة، فتح عينيه وأغلقها عدة مرات، وتجول ببصره في الغرفة التي يجلس فيها، ضحكَ وقام واتجه للبهو الكبير ليجد جسد عصام ساكنًا، ابتسم في مرارةٍ، ثم عاد لغرفة المكتب وتوجَّه للكاميرا وأعاد ضبطها، ثم جلس على المكتب وركز بصره على عدسة الكاميرا وتحدث ببطء وأعطى لكل كلمة حقها في النطق:

"لا أعلم حقًّا هل الفضول وحده أم الصدفة هما ما دفعاني لفعل ذلك؟ فضولي ورغبتي في معرفة حقائق أقرب الناس ورأيهم فيَّ أنا.. أنا حامد آدم الشامي رجل الأعمال المرموق، نجل رجل الأعمال الناجح والعبقري صاحب العقلية التجارية الألمعية آدم الشامي.. هكذا كانت ولا زالت الصحف القومي منها والمستقل تصفه وذلك مقابل سيل الإعلانات الذي يهطُلُ عليها سنويًا، لكن الحقيقة التي اكتشفتها أنه راجل فاسد.. نعم هو رجل فاسد ويبدو أنني ورثت جينات الفساد منه، فسادي لم يكن في مجال العمل على العكس من أبي ولكن في حياتي الشخصية -أنا الفساد والفساد أنا- ارتكبت جميع الأخطاء، بلا استثناء، وأكبرها ما فعلته مؤخرًا من كشف لحقائق أبي تاجر السلاح والآثار وأُمي السيدة الوقور التي تدير حاليًا شبكة عنكبوتية للإتجار في أجساد النساء، وأختي المبجلة التي تركها خطيبها بعدما أغواها والتي سارت بعمق أكثر في طريق الغواية، وصلت لصديقي الوحيد والعزيز عصام الذي تمنى ذلك يومًا ما، وقد تحققت له أمنياته، ولم يكتفِ بذلك فقط بل امتدت أطرافه اللزجة كعنكبوت مقزز إلى زوجتي والأسوأ الذي اكتشفته كذلك أنه الوالد الحقيقي لياسر ابني الأصغر، وأصبح لي شقيقة أخرى ظهرت من العدم كنتيجة لفساد أبي وأمي، و اكتشفت كذلك كم البؤس والشقاء الذي عاشه ذلك البدين الذي ساعدني في اكتشاف حقائق عن دائرة من النار عشتُ وأعيش فيها، أنا لا أريد فضحهم ولا أريد قتلهم.. يكفيني فقط أن أنظر في وجوههم وأبتسم ويسألونني لماذا تبتسم؟ فيكون ردي "لا شيء.. لقد تذكرت نكتة"، لقد سجلت

هذه الأحداث صوتًا وصورة وهم غائبون جزئيًا عن الوعي جراء عقار الحقيقة الذي طوَّره ذلك المسكين البدين أنثى الخرتيت، سامحني يا صديقي البدين، قررت الاحتفاظ بالمادة المصوَّرة في مكان آمن، وقد أعددت كل ما يلزم لذلك؛ ابتعت كاميرا فيديو عالية الجودة، ورتبت كل ما يلزم وأصبحتُ مستعدًا لذلك فهل كانوا مستعدين؟ سأحتفظُ بتلك التسجيلات في مكان آمن.

والآن وقد مرت السنون، وماتت والدتي، دعوت الله لها كثيراً لعلَّه يغفر لها، لم أقوَ على مواجهة الحياة، تزوجت ريهام من رجل محترم لم أجرؤ على أن أخبره بما حدث، لكن ريهام أصرت على أن تُخبرهُ هي، أخبرته.. وأصرَّ هو عليها وتم الزواج، ورُزِقَت بآدم، ورث عن جده الاسم وأتمنى ألا يرث صفاته اللعينة، رحمة، اعتذرت لها عما بدرَ منِّي في تلك الفترة، الإهمال هو سبب كل ما حدثَ، احتضنتُ ياسر، فأنا أبوه وليس ذلك الداعر الراحل، صحيح أنني لم أنسَ ما فعله، لكن ما ذنب طفلٍ كهذا، أنا أبوه وسأحافظ عليه.

خلفت أزمتي تلك أربعة قتلى، أبي مات بين يدي، فريد شوقي مات بسببي وبسبب شراهته للطعام، وقتلت كذلك محمود المليجي مُتعمدًا لكيلا ينكشف أمري وأمر أسرتي، وتركت زياد عاريًا في الصحراء فافترسته حيوانات الصحراء عقابًا على ما اقترفه".

***

خرج حامد من المقر الرئيسي للمجموعة التجارية التي أصبح يمتلكها بعد وفاة والده، استقل سيارته السوداء الفارهة واتخذ طريقه نحو وسط المدينة، الطريق مزدحم كالعادة والسير بطيء جدًا، أصابه بالملل، اتصل بزوجته فلم تجبه، ألقى بالهاتف على المقعد المجاور وأشعل سيجارته لا رغبة في التدخين بل رغبة في إضاعة الوقت وقتلًا للملل الذي يسببه الزحام، بدأ الطريق في التحرك، انطلق

بسرعة هربًا من تجدُّد الزحام مرة أخرى، وصل إلى جراج التحرير حيث ترك سيارته وترجَّل نحو شوارع وسط المدينة، قاصدًا شارع قصر النيل، وصل إلى أحد البنوك دلف بداخله واستلم رقمًا وذهب ووقف أمام أحد الشبابيك، أودع مبلغًا من المال في حسابات رحمة وريهام وآدم الصغير ومنار وياسر، ثم عرج إلى ممرٍّ جانبيٍّ حتى وصل إلى القسم الخاص بالخزائن الخاصة أخرج بطاقته وسلمها للموظف المختص الذي تأكد من صحة البيانات واستدعى أحد زملائه ليرافق حامد إلى مكان الخزينة، مشى خلف الموظف في ممرٍ طويلٍ مليءٍ بكاميرات المراقبة، حتى دلفا من باب جانبي يُفضي إلى الخزانة المنشودة، وضع حامد مفتاحه وأداره وكذلك فعل الموظف ثم كتب حامد رقمًا سريًا، فُتحت الخزانة سحبها الموظف وأشار لحامد بأن يتبعه لغرفة مجاورة، دلفا فيها، وضع الموظف الخزانة وانصرف وأغلق الباب خلفه، فتح حامد الخزينة وأخرج منها دفترًا أنيقًا ذا غلاف بني مُحاط بإطار ذهبي منقوشٌ عليه اسمه بماء الذهب بخط منمق، فتحه وقلب صفحاته سريعًا، ثم وضعه في حقيبته، ثم أمسك بألبوم صور قديم والابتسامة ترتسم على وجهه، تصفحه بحرص حتى لا تتمزق محتوياته، ووضعه في الحقيبة، ثم أخرج أوراقًا مالية من عملتي الدولار واليورو ثم أخرج أربع زجاجات صغيرة تأكد من كونها محكمة الغلق، وأخرج كروت ذاكرة ثم أغلق الخزينة وراجع محتويات حقيبته، خرج من الغرفة ووجد الموظف في انتظاره، أعادا الخزانة لمكانها وأغلقاها تمامًا، ثم مشيا في طريق عودتهما للخارج حتى وصلا للباب الرئيسي. شكره حامد ثم خرج من البنك متجولاً في الشوارع وعيناه تدمعان متوجهًا لمبنى كبير قابع في شارع مُزدحم مواجه لمتحف الفن الإسلامي.

***

"الألم فوق المستطاع، والضوء المبهر لا تتحمله عيناي، عاجز عن تحريك ذراعيَّ وساقيَّ ورأسي وعيني، أنا لا أشعر بجسدي، وكأنه قد توقَّف عن العمل، انتبهت تدريجيًا لما حولي، قدماي عاريتان ملتصقتان ومقيدتان أمامي، حاولت تحريك يديَّ لكنهما مقيدتان أيضًا أمامي، وهالني أنني كنت عاريًا إلا من قطعة قماش بيضاء رديئة الصنع تستر عورتي فقط، وطعم الجفاف يسري في فمي، حاولت فتح فمي للحديث فلم أستطع، وبالكاد أرى، أمعنت النظر، لأجد جسدي مُمددًا على لوحٍ خَشَبيٍّ، أتبول وأتغوط لا إراديًا، لا أشعر سوى بدموع تحرق عيون من حولي، عيناي مغلقتان ولكن بصري شاخصٌ، ولا أعرف كيف ذلك؟ أسمع أصوات بكاء ونحيب مختلفة، ها أنا أدفع الثمن بعد أن سلمت واعترفت بكل ما حدث، وها قد اكتسبت جزاء ما فعلته، فأنا الآن في الطريق إلى مقبرتي.. لأُدفن... لأُصبح ذكرى... لأُصبح روحًا مُعلَّقة.. تنتظر الدعاء بالرحمة والمغفرة من الجميع.."

تمت

* * *

للتواصل مع الكاتب:

E-mail: author.mahmoud@gmail.com

Facebook: https://www.facebook.com/AuthorMahmo

Twitter: @TheauthorMahmo